# نفحات القرآن

الجزء الثالث

المؤلف

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

المقدمة

الطرق الى الله ...

طرق معرفة الله

تمهيد :

برهان التغيّر والحركة

تمهيد :

شرح المفرادت :

جمع الآيات وتفسيرها :

علاقة الأُفول مع بالحدوث

إيضاحات

برهان الحركة ومقدّماته

أدلّة وجود الحركة الجوهرية

إثبات وجود الله ببرهان الحركة

العالم متغيّر وكلّ متغيّر حادث

حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

برهان الوجوب والإمكان

تمهيد :

شرح المفردات :

إحتياج الجميع إليه

إيضاحات

برهان الوجود والإمكان من الناحية الفلسفية

برهان الغنى والفقر في الروايات الإسلامية

برهان العلّة والمعلول

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

إيضاحات

برهان العلّة والمعلول في الفلسفة والكلام

إيضاح برهان العلّية

برهان الصدّيقين

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

إحاطة الوجود الإلهي :

إيضاحات

برهان الصدّيقين في الروايات الإسلامية والأدعية :

إيضاح برهان الصدّيقين

الطريق الباطني لمعرفة الله

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها

عهد عالم الذرّ

حصيلة البحث عن عالم الذرّ

إيضاحات

( عالم الذرّ ) في الروايات الإسلامية :

فطرة العقل أم القلب ؟

شواهد حيّة على فطرية الإيمان بالله

الفطرة في الروايات الإسلامية :

وحدانية الذات المقدّسة

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

أعظم الظلم

السقوط الموحش

الجنّة محرَّمة على المشركين

الله بريء من المشركين

إيضاحات

دلائل التوحيد

شهادة الفطرة على وحدانية الله ( عزّوجلّ )

تمهيد :

جمع الآيات وتفسيرها :

تلجأون إليه في كلّ شدّة

النور الوهّاج في الظلمات

تناسُق العالم دليل آخر

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

إيضاحات

برهان الوحدة والتمانع في الروايات الإسلامية

دليل صرف الوجود

تمهيد :

جمع الآيات وتفسيرها :

إيضاحات

دليل الفيض والهداية

دعوة الأنبياء جميعاً

إلى الله الواحد

تمهيد :

جمع الآيات وتفسيرها :

دعوة الأنبياء العامّة إلى الله الواحد

ايضاحات

برهان التركّب

التوحيد والأدلّة النقلية

مصادر الشرك الهامّة

إتّباع الأوهام

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

أسماء بلا عناوين

المصدر الثاني للشرك

تمهيد :

جمع الآيات وتفسيرها :

إيضاحات

مصالح وهميّة

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها :

إيضاحات

إنتشار الشرك بين العرب

عوامل أُخرى للشرك وعبادة الأصنام

عامل التقليد والاستعمار

تمهيد :

شرح المفردات :

جمع الآيات وتفسيرها

إيضاحات :

فروع التوحيد

التقسيمات الأساسية

توحيد

الذات والصفات

**تمهيد :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات :**

**التوحيد في العبادة**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات**

**توحيد الأفعال**

**توحيد الخالقية**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات**

**توحيد الربوبيّة**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات**

**توحيد المالكية**

**والحاكمية التكوينية**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات :**

**توحيد التقنين( الحاكمية التشريعيّة )**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الايات وتفسيرها :**

**إيضاحات :**

**توحيد الطاعة**

**تمهيد :**

**شرح المفردات :**

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**إيضاحات**

[١]

# نفحات القرآن

## الجزء الثالث

## تأليف

## آيةاللة العظمي مكارم الشيرازي

[٣]

الاهداء:

إلى الذين يعشقون القرآن

إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر

إلى الذين يريدون أن يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر

[٤]

بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني

محمد جعفر الامامي

عبدالرسول الحسني

محمد الاسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدي الاشتهاري

**المقدمة**

**الطرق الى الله ...**

**كما ورد في بداية هذا الكتاب أن هناك طريقاً مشرعاً في باطنِ كلِ قلب نحو الله عزّوجل، وتنطلق في روضةِ روح كلِ انسان انشودةٌ تعبر عنه، ولهذا السبب بالضبط، ونظراً لكثرة النفوس الانسانية، فان الطرق الى الله لا حصر لها، ولكلّ انسان نوع من الادراك والشعور المختص به حول الله تعالى.**

**ولكن مع كل هذه الاختلافات فان وجهة الجميع واحدة، ويتحرك العالم بأسره نحوه. ويظهر في اعماق روحِ كلِ انسان برعم من معرفة ذاته وصفاته، وتتبسم في قلب كل انسان زهرةٌ من ازهار معرفته.**

**ويرتفع دائماً من هذا «الوادي الايمن» نداءُ (اِنّي اَنا اللهُ) ويدعو الفطرة السوية الكامنة في كل النفوس الانسانية اليه ، وبصوت (فاخْلَع نَعْلَيكَ إنَّكَ بالوادِ المُقَدَّسِ طُوى) يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد في هذا الوادي المقدس.**

**ويوصي جميع بني آدم للعمل بمضمون وصيته لمريم (وَهزيّ اليكِ بِجذْعِ النَّخْلَةِ) فيهزّون الاغصان المثمرة لشجرة التوحيد لتتساقط عليهم ثمرات الايمان والمعرفة الطيبة.**

**وان لا يخشون ابداً من نيران شرك النمروديين، وان يكونوا ابراهيميين**



**فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء. ليطفئوا نيران الشرك المحرقة ويحيلونها الى روضة للتوحيد.**

**وان يركبوا في سفينة المعرفة المنجية كما ركبها نوح، ليُغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره ــ حتّى الكنعانيون منهم ــ .**

**وان يطرقوا على رأس «السامري» دون وجل ، ويحرقوا عجله الذهبي المنمَّق الذي يتسبب في جذب قلوب المتعلّقين بالدنيا ومحبّي الثروة واكتناز الذهب في نار غضبهم المقدّسة. وينثروا رماده في بحر الفناء!**

أجل فانّ سالكي هذا الطريق يكرّرون ما قام به الأنبياء المرسلون في سيرهم الظاهري في هذا العالم من خلال سيرهم الباطني للوصول إلى الهدف والمراد وه «معرفة الله».

وفي نهاية المطاف يلبّون النداء الـــروحي لنبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) « قولوا لا اِله إلاّ الله تفلحوا » ، فيقتربون من أعلى مقامـــات الفلاح والفوز من خـــلال ترديدهم لنغمة التوحيد الروحية السامية بجميع أجزاء وجودهم «حتّى الويد والشريان».

فيخرجون بهذا السير والسلوك الإلهي من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم إلى «دار الحقيقة» ومقام القرب الإلهي.

* * *

ولكن النقطة المهمّة تكمن في أنّ هذا الطريق يمتاز بكثرة المنحدرات والمرتفعات والمنعطفات التي تكمن في مسالكها شياطين الجنّ والإنس. ويبذلون الجهد الجهيد لحرف سالكي هذا الطريق «بزخرف القول»، لأنّ إمامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزّة الله وجلاله منذ البدء لاغوء بني آدم، ولعلمه بأنّه



«رجيم» ومطرود من حضرته ، فانّه يدعوا الآخرين للاصطباغ بصبغته.

«الوسواس الخنّاس» صفة للشياطين الذين يضعون النقاب على وجوههم، كالغول الاُسطوري عند العرب ، يسيرون عدّة أيّام في جادة الصواب ، وبعد أن يسحبون مجموعة من الناس خلفهم ، ينحرفون عن الصراط المستقيم ، ويلقون بهم في أدوية «الضالّين» و «المغضوب عليهم» المرعبة.

إذن ماذا ينبغي القيام به ؟

وأين طريق النجاة ؟

ياتُرى ، هل يمكن طي هذا الطريق بأرجل العقل الخشبية فقط ، على الرغم من أنّ هذه الأرجل الخشبية تُعدّ وسيلة من الوسائل التي وهبها الله تعالى ونوراً من الأنوار الإلهية ؟!

أم يجب ركوب أجنحة الوحي والصعود إلى سماء المعرفة ، والذهاب لأبعد من ضوء الشمع والمصباح ، فنمدَّ أيدينا نحو الشمس المتلألأة ، ونستمدّ العون منه للوصول إليه ، لنحصل على الدليل من ذاته على ذاته ؟

حيث انّ مضمون حديث رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)) «مَنْ اِبتَغى العِلْمَ في غَير القُرآن أَضَلَّهُ الله» ينصّ على ذلك، وهل يوجد غيره، يعرفه حقّ معرفته ليتمكّن من تعريفه للآخرين؟

انّ هذا الكتاب وهو المجلّد الثالث من التفسير الموضوعي لـ «نفحات القرآن» هو عبارة عن جهد متواضع في هذا المجال لمعرفة الله في مختلف الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد، وتأييد حكم العقل بلسان النقل، وترسيخ اُسس البرهان بآيات الوحي.

محرّم الحرام ١٤١٠ قم المقدّسة ـ الحوزة العلمية

مرداد ١٣٦٨ ناصر

مكارم الشيرازي

[٨]

[٩]

طرق معرفة الله

[١٠]

[١١]

تمهيد :

بالرغم من أنّ الطرق إلى الله ليست محدودة النطاق ـ وكما يقول بعض العلماء انّ السبل إلى الله هي بعدد الخلائق (الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق)(١)ـ إلاّ أنّه توجد خمس طرق عقلية رئيسية وطريق فطري واحد لإثبات ذات الله المقدّسة، والطرق العقلية هذه عبارة عن:

١ ـ برهان النظم .

٢ ــ برهان الحركة .

٣ ــ برهان الوجوب والإمكان (الفقر والغنى) .

٤ ــ طريق العلّة والمعلول .

٥ ــ برهان الصدّيقين .

والطريق السادس هو طريق (الفطرة) والسلوك (الباطن) والبحث في أعماق الروح الإنسانية ، ومن الملاحظ انّ القرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع ، غير أنّ أشمل البراهين التي يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذي يثبت وجود ذلك المبدئ الأزلي وما يملكه من علم وقدرة ، وذلك بعرض عجائب الخلق والآثار البديعة والأنظمة العجيبة في عالم الوجود . ولذا خُصّص أكثر الجزء الثاني من (نفحات القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيان موارده ــ وشواهده في القرآن الكريم .

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لإثبات وجود الله ، ثمّ نتحدّث عن قضيّة

---

١ ــ نقله البعض بعبارة (عدد أنفاس الخلائق) ويعني انّ كلّ نفس يتنفّسه الإنسان طريق الله . ولكن هذه الجملة مل نجدها بصورة حديث في مصادرها بل وردت في كلمات العلماء .



الفطرة في ظلّ التوجيهات القرآنية .

هذه صورة إجمالية عن أبحاث هذا الجزء .

نؤكّد مرّة اُخرى ونكرّر بأنّ هذه الأبحاث لا تُقدّم كأبحاث فلسفية أو كلامية، بل كأبحاث في التفسير الموضوعي كما تقتضيه طبيعة الكتاب ، أي أنّنا نسير في ظلال الآيات القرآنية ونستضيء بتوجيهات هذا النور الإلهي ، لوو كانت ثمّة قضايا اُخر فإنّا سوف نتحدّث عنها تحت عنوان (إيضاحات) ، وأبحاثنا ــ في الحقيقة ــ لا تستوجب غير ذلك ، لأنّها في حالة العكس سوف تفقد أصالتها كأبحاث تفسيرية .

* * *

[١٤]

[١٥]

تمهيد :

إنَّ عالمنا الذي نعيش فيه في تغيّر دائم ، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكلّ شيء يعيش حالة من التغيّر .

ويبدو أنّ نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بـــالتغيير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغيير والتبدّل على صعيد نفسه أو على صعيد عالم المادّة ، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة عن هذا التغيير ليلا ونهاراً ، بل انّ ظاهرتي ( الليل والنهار ) هما من أوضح النماذج عن التغيير والتبدّل في العالم.

هذه التغيّرات والحركات التي تحكم العالم تدلّ بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه هذه التغيّرات والحركات كلّها ، وكأنّ الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة .

والتغيير والحركة في الموجودات هما في الأساس شاهدان ساطعان على حدوثها ، كما أنّ حدوثها دليل على وجود خالقها .

هذا الإستدلال ــ الذي سَيردُ شرحُهُ في المباحث مستقبلا ــ ورد في الآيات القرآنية بلطافة خاصّة ، وبهذه الإشارة نرجع إلى القرآن الكريم كي نقرأ هذه الآيات:

(وكذلك نُري ابراهيمَ ملكوتَ السَموات والأرض وليكونَ من المُوقنينَ * فلمّا جنَّ عَليه الليلُ رءا كَوكباً قالَ هذا ربّي فَلّما أَفَل لا أُحبُّ الاَفلِينَ * فَلمّا رءا القَمَر بازغِاً قالَ هذا ربّيى فَلمّا أفَل قالَ لَئنْ لَم يَهْدني ربّي لأكُونَنَّ منَ القومِ الضالّينَ * فلّما رءا الشمسَ بازغةً قالَ هذا ربّي هذا أكبرُ فلمّا أَفلتْ قالَ ياقومِ انّي برىء ممّا تُشركُون * انّي
وَجَّهتُ وَجْهيَ للَّذيْ فَطَر السَمواتِ والأَرضَ حَنيفاً وما أَنا مِن المُشركين)(١).

---

١ ــ سورة الأنعام : الآية ٧٥ ــ ٧٩ .

**شرح المفرادت :**

**١ ــ ( أفل ) و ( أفلت ) مشتقة من مادة ( أُفول ) وتعني الإختفاء كما يقول جمع من اللغويين ، ولكن ( الراغب ) في ( المفردات ) أكثر دقّة حيث يقول : الأُفول يعني اختفاء الأجسام النيّرة كالشمس والقمر ، والصحيح هو ما يذهب إليه الراغب ، لأنّ هذا المعنى هــو المتبادر مــن إطلاق هذا اللفظ ، كما انّه ذو معنى كنائي في بعض المجالات ، فمثلا يعبّر عن موت العالم بــ ( الأُفول ) ، وفي ذلك ــ في الحقيقة ــ تشبيه بالشمس أو النجم ، والتعبير بالأُفول والغروب هو بهذا اللحاظ.**

**٢ ــ كلمةُ ( بازغ ) و ( بازغة ) مشتقةٌ من المصدر ( بزوغ ) بمعنى الشروق وانتشار النور ، كما يذهب إليه الراغب في المفردات فيقول هو في الأصل يعني اخراج دم الحيوان بُغية العلاج ثمّ استعمل بمعنى الطلوع .**

**أمّا ابن منطور فانّه يقول في ( لسان العرب ) : الأصل فيه بمعنى الفتق ويستعمل في موارد فتق العروق في الإنسان أو الحيوان من أجل العلاج وبما انّ طلوع الفجر وأمثاله يشقّ ظلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى (فتأمّل جيّداً) .**

**٣ ــ و ( كوكب ) مشتقٌ من ( وكب ) أو ( كوَب ) وقد فسّره الكثير بمعنى ( النجم ) ، ولكن الراغب في المفردات فسّره بمعنى ( النجم عند الطلوع ) ، وعندما يفسّره البعض بمعنى كوكب ( الزهرة ) فهو من قبيل المصداق الواضح له ، لأنّ كوكب الزهرة هو أشدّ النجوم تلألؤاً ولمعاناً .**

**كما يطلق هذا اللفظ أحياناً على الوسيم والجميل ، أو الجزء المهمّ من كلّ شيء ، وعلى كبير القوم أيضاً ، ولكنّها معان مجازية في الظاهر .**

**أمّا ( قمر ) وإن كان معروفاً ، ولكن توجد هنا نقطة جديرة بالإلتفات وهي انّ الكثير من اللغويين صرّحوا بأنَّ لفظ ( القمر ) يطلق في فترة تمتدّ من الليلة الثالثة**



**وحتّى الليلتين الأخيرتين من الشهر ، وعليه لا يطلق لفظ القمر في الليلتين الأوليين ولا في الليلتين الأخيرتين بل يطلق لفظ ( الهلال ) ، لأنّ اللغويين يعتقدون بأنّ ( القمر ) و ( القمار ) من أصل واحد ويعني الغلبة ، وبما إنّ نور القمر في الليلة الثالثة يتغلّب على أنــوار النجوم المجاورة ، لــذا أطلق عليه هــذا اللفظ(١).**

( شمس ) هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من الجدير أن نذكر هذه الملاحظة وهي انّ لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه أيضاً .

وبما انّ الشمس غير ثابتة في السماء وهي في حركة دائبة ( بالنسبة لنا سكّان الأرض ) لذا يطلق هذا الإصطلاح على الأشخاص الفوضيون والحيوانات الجموحة فتُعرف بـــ ( الشَموس ) .

جمع الآيات وتفسيرها :

إبراهيم ((عليه السلام) ) يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوي

تتحدّث الآية الأُول عن اراءة الله سبحانه ( ملكوت ) السموات والأرض إلى إبراهيم ( (عليه السلام) ) كي ينبعث اليقين في روحه بمشاهدتها ، وتتجدّد الحياة في إيمانه الفطري حيث تقول ( وكذلكَ نُري ابراهيمَ ملكوتَ السمواتِ
والأرضِ وليكُونَ من المُوقنين)(٢).

المقصود من ( اراءة ملكوت السموات والأرض ) هو مشاهدة حكومة الله ومالكيته لعالم الوجود بملاحظة الموجودات المتغيّرة في هذا العالم ]لأنّ (ملكوت) لفظ مشتق من ( ملك ) بمعنى الحكومة والمالكية ، وزيادة الواو والتاء

---

١ ــ لسان العرب ، مفردات الراغب ، كتاب العين .

٢ ــ يقول بعض المفسّرين بأنّ في تشبيه الآية إشارة إلى انّنا كما أريناك ــ يانبي الإسلام ــ ملكوت السموات والأرض فاتّا قد أريناها إبراهيم أيضاً (و عليه ففي الآية جملة مقدّرة ) .



للتأكيد [ هذه الحاكمية المطلقة والمالكية المسلّمة لله على العالم جاءت بالتفصيل في الآيات اللاحقة ، وهذه الآيات ــ في الحقيقة ــ جاءت على صورة البيان ( الإجمالي ) و ( التفصيلي ) وهو من الأساليب القرآنية المعروفة في بيان القضايا المهمّة ، ففي البداية تذكر القضية بشكل مغلق كي يستعدّ السامع ثمّ تشرع بشرحها ] التعبير بفاء التفريع في ( فلمّا ) إشارة واضحة إلى هذا الأمر [ .

على كلّ حال فانّ القرآن شرع بتبيان هذا الإجمال في الآيات اللاحقة ، فيبدأ أوّلا بالنجوم ويبيّن إستدلال إبراهيم ( (عليه السلام) ) في إبطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو : (فلّما جَنَّ عليهِ الليلُ رءا كوكباً قالَ هذا ربّي) .

التعبير بـــ ( رأى كوكباً ) مع انّ نجوماً كثيرة تظهر في الليل ــ فيه إشارة إلى نجم كبير ولامع ألفت نظره إليه ، وبما انّ كوكب ( الزُهرة ) يظهر أوّل الليل و ( كوكب ) يعني ( النجم عند طلوعه ) يتأيّد بذلك التفسير الذي يميل إليه أغلب المفسّرين وهو انّ النجم كان الزُهرة أو المشتري اللذين كانا يعتبران في العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركين ، وخاصّة ما ورد عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) في إحدى الروايات بأنّ هذا النجم هو كوكب الزُهرة .

على كلّ حال فانّ هذا النجم لم يدم طويلا حتزى أفل ، فقال إبراهيم (... لا اُحبُّ الآفلين) .

مرّة اُخرى التفت إبراهيم إلى طلوع ( القمر ) من وراء الاُفق فأضاء السماء والأرض بنوره الأخّاذ والجميل فقال إبراهيم (هذا ربّي).

ولكن لم يدم طويلا حتّى تعرّض القمر إلى مصير النجم واختفى وراء الاُفق وترك السماء في طلام مرّة اُخرى ، ( عندئذ قال إبراهيم ( (عليه السلام) ) الذي كان يسعى للوصول إلى وحدة المعبود والربّ الحقيقي (لئن لَم يَهدِني ربّي لأكونَنَّ من القوم الضالّينَ) .

وبهذه الطريقة أوضح أنّ سعي الإنسان لا يكفي للوصول إلى الحقّ ، بل يجب أن يشمله الإمداد الإلهي كي لا يكون من الضالّين ، ومن المؤكّد انّ هذا



الإمداد يشمل الذين يجهدون أنفسهم في إبتغاء الحقّ ، والله سبحانه .

وأخيراً انتهى الليل ، وأخذ الظلام يلمّ ستائره وفرّ من صفحة السماء ، وبزغت الشمس فجأةً بوجهها النيّر المتلألئ من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية على الجبال والصحاري . (فلّما رءا الشمس بازغةً قالَ هذا ربّي هذا أكبرُ)(١).

ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس في جوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب الغروب ، نادى إبراهيم ( (عليه السلام) ) : (ياقوم انّي برىءٌ ممّا تُشرِكُونَ) .

لقد أدرك من أُفول هذه الموجودات وغروبها انّها ليست سوى مخلوقات ، خاضعة لقوانين الخلق والتغيّرات بما فيها الأُفول والغروب ، ومن ذلك فهم انّ وراء هذا المشهد قدرة خفيّة ثابتة لا سبيل للأُفول والغروب والتغيّر إلى ( ذاته المقدّسة ) أبداً .

* * *

وأضاف : انّي أتوجّه إلى مَن خلق السموات والأرض ، ولا أُذعن للشرك أبداً ، انّي موحّد كامل التوحيد وعابد وعبد مخلص (إنّي وَجَّهتُ وَجهيَ لِلذّي فَطَر السّمواتِ والأرضَ حَنيفاً وَما أنا مِن المُشركيْنَ).

هل وقعت هذه الأحداث الثلاثة في ليلة واحدة أم في ليلتين ؟ ، قال بعض المفسّرين ــ نظراً لعجزهم عن تصوّر وقوعها في ليلة واحدة ــ انّها وقعت في ليلتين ، في حين يدلّ ظاهر الآيات انّها تعاقبت في ليلة واحدة ونهار واحد وهذا ممكن تماماً ، لأنّ كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح في أوّل الليل ثمّ يأفل سريعاً ، ثمّ يظهر القمر بدراً من أُفق الشرق [ والتعبير بــ ( بازغ ) يدلّ على انّ

---

١ ــ ( الشمس ) وان كانت مؤنثاً مجازياً ويجب أن يشار إليها بــ ( هذه ) ولكن نعلم انّ قضيّة المذكر والمؤنث سهلة وهنا يمكن أن يكون ( هذا ) إشارة إلى ( الموجود ) أو ( المشاهد ) .



القمر كان بدراً أو قريباً منه [ وعندما يختفي القمر في أُفق الغروب لا تلبث الشمس حتّى تشرق ، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت في ليلة واحدة ونهار واحد .

وليس هذا مهمّاً كثيراً ، فالمهمّ هو أن نعرف بأنّ شخصاً في تلك المكانة العلمية والعرفانية وهو إبراهيم ( (عليه السلام) ) وبملاحظة ما للأنبياء من مقام العصمة ( حتّى في فترة ما قبل البعثة ) كيف يمكن أن يتحدّث بكلام مقرون بالشرك في ظاهراً ؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال بطريقين :

الأوّل : بقرينة ذيل الآيات حيث يقول (ياقوم إنّي بَرِيءٌ ممّا تُشرِكُونَ) يُفهم انّه كان في حالة التحدّث والكلام والجدال مع المشركين ونعلم أنّ مدينة بابل كانت تضمّ عبدة النجوم والقمر والشمس .

إنَّ المعلّم الذكي والمتحدّث الماهر عندما يواجه المعارض اللجوج المعاند فلا يقابله بمعارضة عقيدته فوراً بل يماشيه فترة ، أي يتحرّك مع الموجة قليلا ثمّ يركبها ، وبهذا النحو يكون إبراهيم ( (عليه السلام) ) في بداية الأمر معهم ظاهراً لكي يريهم ضعف عقيدتهم ومنطقهم عند أُفول هذه الأجرام السماوية . وهذا الأُسلوب في النقاش مؤثّر ونافذ ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما
لإبراهيم ( (عليه السلام) ) من مقام في التوحيد والمعرفة .

في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا ( (عليه السلام) ) في جوابه للمأمون الذي كان يعتقد بتعارض هذه الآيات مع عصمة الأنبياء انّه قال : ( ... إنّ إبراهيم ( (عليه السلام) ) وقع إلى ثلاثة أصناف : صنف يعبد الزهرة ، وصنف يعبد القمر ، وصنف يعبد الشمس ... وكان قوله هذا على الإنكار والإستخبار ... )(١).

والتفسير الآخر هو انّ إبراهيم ( (عليه السلام) ) ألقى هذا الكلام بشكل فرضي ، والمحقّقون يواجهون ذلك في الغالب عند التحقيق .

---

١ ــ عيون أخبار الرضا ( (عليه السلام) ) باختصار ( بنقل من تفسير الميزان ٧/٢١٤ ) .



للإيضاح نقول : يتوصّل الإنسان تارةً إلى قضيّة ما عن طريق الإستدلال الوجداني والشواهد الفطرية ولكنّه يريد أن يجعلها في إطار البرهان العقلي ، فيستعين بفرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كلّ فرضية حتّى يصل إلى ما يريد .

فمثلا : يتوصّل المحقّق إلى أصالـــة الروح بوجدانه ويرغب في إقامة البرهان على ذلك فيفترض الروح ماديّة أو أنّ الماديّة من خواصها ثمّ يدرس اعراض المادّة وخواصها ومستلزماتها فيصل أخيراً إلى أنّ الماديّة ( أو اعراض المادّة ) لا تتوافق مع الظواهر الروحية فينفيها الواحدة تلو الأُخرى حتّى يبلغ تجرّد الروح .

وإبراهيم ( (عليه السلام) ) أيضاً ولكي يسلك طريق التوحيد المنطقي والذي توصّل إليه بوضوح في أعماق روحه يفترض فرضيات مختلفة ويقول ( هذا ربّي ) و ( هذا ربّي ) ثمّ يصل إلى بطلان هذه الإحتمالات بأُفولها وغروبها حتّى يقول أخيراً ( إنّي وَجَّهتُ وَجهيَ لِلَّذي

فَطَر السمواتِ والأَرضَ )(١) ويكمل
توحيده المستدل .

ونلاحظ في بعض الروايات إشارات خفيفة إلى هذا المضمون ، كما نقرأ عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) في قوله تعالى ( كانَ الناسُ أُمّةً واحدةً ) الآية في حديث طويل ... وفي آخره يقول الراوي : قلت له : أفي ضلال كانوا قبل النبي أم على هدى ؟

قال ( (عليه السلام) ) : لم يكونوا على هدى بل كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق الله ، ولم يكونوا ليهتدوا حتّى يهديهم الله أما تسمع بقول إبراهيم ( (عليه السلام) ) : « لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين » أي ناسياً للميثاق(٢).

---

* ــ وردت احتمالات أُخرى في تفسير الآيات أعلاه منها الإستفهام الإستنكاري والإستفهام بقصد الإستهزاء وأمثاله ، وخاصّة في تفسير التبيان وتفسير الفخر الرازي حيث أوردا إحتمالات عديدة ، ولكن لا ينسجم أي منها مع لحن الآية .

٢ ــ نور الثقلين : ١/٧٣٦ ، الحديث ١٤٨ .



ولكن القرائن الموجوة في الآيات والروايات التي وردت عن الإمام الرضا ( (عليه السلام) ) في هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الأوّل .

* * *

علاقة الأُفول مع بالحدوث

لقد إستدلّ إبراهيم ( (عليه السلام) ) بأُفول الكواكب والشمس وغروبها على نفي أُلوهيتها ، وقا بأنَّ هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلهة للعالم ، والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة ؟

توجد هنا آراء مختلفة :

١ ــ ( الأُفول ) علامة التغيير ، بل هو لون من التغيير ، والتغيير دليل على نقص الموجود ، لأنّ الموجود الكامل من كلّ جهاته لا تُتَصوّر فيه الحركة ولا التغيير لأنّه لا يفقد شيئاً ولا يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق ، وعلى ذلك فانّ الموجــودات المتغيّرة والمتحرّكــة تكــون

نـــاقصة حتماً فهي امّا تفقد كمالا ، أو أنّها تبحث عن كمال جديد ، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود .

٢ ــ الموجود المقرون بـــ ( الأُفول ) معرّض للحوادث ، وكلّ ما كان معرّضاً للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزليّاً وواجب الوجود لإستلزامه الجمع بين ( الحدوث ) و ( الأزلية ) وبين هذين حالة تضادّ ( تأمّل جيّداً ) .

٣ ــ كلّ حركة تحتاج إلى محرّك من الخارج ، فـــان كان ذلـــك المحرّك متحرّكاً فعلينا أن نبحث عن محرّك آخر حتّى نصل إلى وجود ليس فيه حركة مطلقاً .

٤ ــ الحركة ــ وخاصّة الحركة نحو الأُفول ــ دليل على انّ عالم المادّة صائر إلى الفناء ] وهو أصل الكهولة و ( الأنتروبي ) الذي سنشيرُ إليه [ وكلّ ما كان مصيره



الفناء لا يكون أبديّاً حتماً ، ومثل هذا الموجود لا يكون أزليّاً قطعاً ، وبذلك لا يمكن أن يكون واجب الوجود .

انَّ كلّ مفردة من المفردات التي ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على إستدلال النبي إبراهيم ( (عليه السلام) ) بها وملاحظته ، ويمكن أن يكون في كلام إبراهيم إشارة طريفة إليها جميعاً .

ينقل ( الفخر الرازي ) عن بعض المحقّقين : انّ إستدلال إبراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لإستفادة الخاصّة والمتوسّطين والعوام .

امّا الخاصّة فانّهم يفهمون حقيقة ( الإمكان ) من ( الأُفول ) وكلّ موجود ممكن هو بحاجة إلى الخالق ، وهذه السلسلة متّصلة حتّى تنتهي بالطاهر المنزّه من الإمكان ولا سبيل إلى ذاته ، كما نقرأ في موضع آخر ( وانَّ إلى رَبّكَ المُنتَهى )(١)، وامّا المتوسّطون فانّهم يفهمون من الأُفول مطلق الحركة وانّ كلّ متحرّك حادث وكلّ حادث محتاج إلى وجود القديم الأزلي ، وامّا العوام فانّهم يفهمون الغروب من الأُفول ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تمحى وتضمحل عند الغروب وتزول سلطتها وحكومتها ، ومثل هذه الأشياء لا تصلح للألُوهية ، إذن جملة ( لا اُحبُّ الآفِلِينَ ) كلام يستفيد منه ( المقرّبون ) و ( أصحاب اليمين ) و ( أصحاب الشمال ) وهذا أكمل وأوضح برهان(٢).

ومن هنا يتّضح لماذا لم يستند إبراهيم ( (عليه السلام)) إلى طلوع هذه الكواكب مع انّ الطلوع والغروب كلاهما مصداقان للحركة ؟ وذلك لأنّ ظاهرة الزوال والفناء وإنقطاع الفيض والبركة يشاهد في الغروب تماماً في حين لا يشاهد ذلك في الطلوع .

وعليه فأنّ الفصاحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الإعتماد على ( الغروب )

---

١ ــ سورة النجم : الآية ٤٢ .

٢ ــ تفسير الفخر الرازي : ج١٣ ، ص٥٢ .



لكي تتوضّح القضيّة أكثر ، وتكون مقبولة تماماً لدى جميع الطبقات . وهذه النقطة جديرة بالملاحظة أيضاً وهي أنّ الحركة ــ كما سيأتي ــ لها أنواع وأوضحها هي ( الحركة في المكان ) وقد إستند إليها في الآية ( الحركة المكانية هنا مقترنة بالحركة الكيفية ، لأنّ كيفية النور في هذه الكواكب تتغيّر مع الحركة وتكون ضعيفة النور عند الغروب حتّى تختفي عن الأنظار ) .

* * *

يعتقد بعض الفلاسفة انّ الآية ٨٨ من سورة النمل تتضمّن إشارة إلى برهان الحركة حيث يقول تعالى : ( وَتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدةً وهيَ تَمرُّ مرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللهِ الّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيء انَّهُ خَبيرٌ بما تَفْعَلُونَ ) .

فيقول أُولئك بأنّ هذا التعبير ناظر إلى ( الحركة الجوهرية ) وهي الحركة التي تكون في ذات الأشياء وباطنها ، الحركة التي تدلّ على أنّ عالم المادّة بأجمعه حادث ويحتاج إلى خال ] سيأتي شرح هذا الكلام في باب الإيضاحات بإذن الله [ولكن بناءً على أنّ الآية ناظرة إلى حقيقة ( الحركة الجوهرية ) فانّها لا تشير إلى الإستدلال التوحيدي ولا إلى الإستفادة من ظاهرة الحركة لإثبات وجود الله ( تأمّل جيّداً ) .

ويعتقد أغلب المفسّرين بأنّ هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة ( أشراط الساعة هي الأحداث المروّعة التي تحدث عند قيـــام القيامة وخـــاصّة تَحَرُّك الجبال وتلاشيها ثمّ صيرورتها غباراً كما جاء في آيات عديدة من القرآن الكريم )(١).

ولكن كما قلنا في ( التفسير الأمثل ) : إنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية ، لأنّ تلاشي الجبال قبيل قيام الساعة مروّع إلى درجة يجعل الإنسان يعيش

---

١ ــ للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة ( التفسير الأمثل ) ج١٣ ، ذيل الآية ١٠٥ / سورة طه .



وحشة عظيمة في حين تقول الآية بأنّك لا تعلم بحركة الجبال .

ولهذا نعتقد انّ الآية تشير إلى حركة الجبال المواكبة لحركة الأرض في الدنيا وتشبيهها بحركة السحاب ، وجملة ( ترى ) فيها إشارة إلى الوضع الموجود والتعبير بـــ ( صُنَعَ اللهِ الذّي أَتْقَنَ كلَّ شَيء ) وذيل الآية ( انّهُ خَبيرٌ بما تَفْعَلُونَ )كلاهما دليلان على انّ الآية ترتط بحركة الجبال في هذه الدنيا(١).

ويعتقد البعض الآخر بأنّ الآية ٢٩ من سورة الرحمن ( يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّمواتِ والأَرضِ كلَّ يَوم هُوَ في شَأْن ) إشارة إلى مسألة الحركة الجوهرية التي يمكن عن طريقها الوصول إلى وجود الله ( عن طريق برهان الحركة ) .

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة أيضاً ، بل انّ ظاهرها هو أنّ الله يخلق كلّ يوم أمراً جديداً ، خلقه دائم ومستمر ، وهو يبتكر في كلز زمان أمراً جديداً ، ويقدّر كلّ يوم نعمة جديدة ، وعمله هو الإستجابة لقضاء حوائج السائلين .

كما أنّ الظاهر من تعبير الآية وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها هو ما ذكر أيضاً ( تحدّثنا عن هذا الموضوع مفصّلا في التفسير الأمثل )(٢).

ويُستنتج من مجموع ما تقدّم أنّ أبرز الآيات الدالّة على برهان الحركة هي آيات إبراهيم ( (عليه السلام) ) التي إستدلّ بها على نفي اُلوهية النجوم وذلك بأُفولها وغروبها وإحتياجها إلى الخالق كذلك .

* * *

إيضاحات

١ ــ برهان الحركة ومقدّماته

---

١ ــ لاحظ التفاصيل في ج١٥ ، ص٥٦٣ ذيل الآية ٨٨ / سورة النمل .
٢ ــ تفسير نمونة : ج٢٣ ، ص١٣٧ .



الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية إستخدامه في مسألة إثبات وجود الله يقتضي ملاحظة الاُمور التالية إجمالا :

أ ــ تعريف الحركة .

ب ــ وجود الحركة .

جـ ــ أركان الحركة .

د ــ المقولات التي تقع فيها الحركة .

أ ــ تعريف الحركة :

ذكرت عدّة تعاريف للحركة ، أوضحها التعريفان الآتيان .

١ ــ خروج الشيء من القوّة إلى الفعل بصورة تدريجية .

٢ ــ الزوال والحدوث المستمرّ .

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هي امّا أن ينبت نبات أو ينضج ثمر تدريجيّاً ، وفي هذه الموارد كلّها يكون للجسم وضع فعلي كما انّ له القابلية في ذات الوقت لاتّخاذ وضع آخر ، وعندما يفقد الوضع المودجود تدريجيّاً ويتقبّل وضعاً جديداً ( ما كان فيه بالقوّة يصبح فعليّاً ) فانّ ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال ، غير انّ هذا لا يعني انّ الحركة مركّبة من أجزاء إسمها ( السكون ) أو انّها مركّب من ( الوجود العدم ) بل انّ الحركة أمر واحد مستمر في الخارج وله أجزاء في التحليل العقلي .

من هذا البيان يمكن إستنتاج انّ الشيء إذا كانت له فعلية تامّة ووجود مطلق فلا تتصوّر فيه الحركة ، بل سيكون ذا ثبات تامّ ، وبتعبير آخر أنّ الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان ، وعلى لا توجد في ذات الله سبحانه حركة على الإطلاق .



ب ــ وجود الحركة :

لا نواجه مشكلة مهمّة في إثبات الوجود للحركة فذلك من الاُمور البديهيّة ، حيث نلاحظ بأُمّ أعيننا وبوضوح ونحسّ بحواسنا الاُخرى باستمرار وجود حركات في الخارج ، وعليه فانّ أدلّة المنكرين لوجود الحركة ومنهم ( الفيلسوف اليوناني ذنون وأتباعه ) لا قيمة لها وانّها تجابه أمراً بديهياً ، وذلك لأنّنا لا يمكن أن نعتبر الماء الجاري في النهر ، أو التفاحة التي تنضج في الشجرة تدريجيّاً ، أو عندما نركب السيّارة ونسافر من مدينه إلى اُخرى اُموراً خيالية قد ابتلينا بها ، وانّها اُمور ذهنية وليست خارجية لأنّ هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات ، ونحن في غنى عن الإستدلال ضدّه .

ولكن لا يمكن إنكار انّ فهم الحركة بدون قوّة حافظة أمر غير مقدور ، لأنّ الحركة لا يمكن إدراكها بإحساس آني لأنّها أمر تدريجي .

ج ــ أركان الحركة :

ذكر الفلاسفة ستّة أركان للحركة :

١ــ المبدأ ٢ــ الغاية ٣ــ المحرّك ٤ــ المتحرّك ٥ــ موضوع الحركة ٦ــ زمن الحركة ( ستعرف انّ الزمان ليس سوى مقدار الحركة ) وبتعبير آخر أنَّ الزمان وليد الحركة وليس والدها ) .

وسنرى أيضاً انّ هذه الأركان الستّة تطابق نظرية شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإنّا لا نحتاج موضوعاً للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

د ــ مجالات الحركة :

كان الفلاسفة في السابق يعتقدون بأنّ الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية هي:(١).

---

١ ــ المقولات العرضية التسع هي : الكم ، الكيف ، الوضع ، المتى ، الأين ، أن يفعل ، أن ينفعل ، ملك ، والإضافة وشروحها في محالّها .



أ ــ الحركة في ( المكان ) ، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق .

ب ــ الحركة في ( الكمية ) نظير زيادة حجم النبات النامي .

ج ــ الحركة في ( الوضع ) نظير حركة الأرض حول نفسها .

د ــ الحركة في ( الكيفية ) نظير التغيّر التدريجي في لون وطعم ورائحة الفاكهة في الشجرة .

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة في غير هذه الموضوعات الأربعة ( غير ممكنة في جوهر الأشياء من باب أولى ) فكان فلاسفة اليونان لا سيّما ( ارسطو ) وأتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وآخرون يعتقدون باستحالة الحركة في الجوهر ، وكما قلنا في البحث الماضي انّهم كانوا يتصوّرون انّ ذات المتحرّك هي من أركان الحركة ، ويعتقدون بأنّ الحركة لا مفهوم لها ما لم يوجد موجود ثابت يتعرّض للحركة .

ولكن صدر المتألّهين ( الفيلسوف الإسلامي الشهير ) قدّم نظرية جديدة وقال بأنَّ الحركة في الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن أن توجد حركة في الاعراض ما لم تكن مستندة إلى حركة في الجوهر .

وبتعبير آخر انّ ( الحركات العرضية ) تنشأ من ( الحركة في الجوهر ) ، قال صدر المتألّهين ، لماذا نفترض هنا أمراً ثابتاً ؟ وما المانع من ان يكون ( الجوهر ) متحرّكاً في ذاته ؟ بمعنى انّه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً جديداً .

هذا الموضوع يبدو عجيباً لأوّل مرّة ــ طبعاً ــ لأنّه يستلزم أن يكون ( المتحرّك ) مع ( الحركة ) شيئاً واحداً ، وأن يكون الموجود نفسه سبباً لتحرّكه ، لكنّه يقول : لو دقّقنا قليلا لوجدنا انّ الأمر ليس عجيب فحسب بل هو أمر واجب وجميل أيضاً .

ويصُرّ صدر المتألّهين على انّ أصل الحركة الجوهرية موجود في أقوال ــ السلف ويترقّى ويستعين بآيات قرآنية كشواهد على هذا الموضوع ( كي لا



تكون حداثة هذه النظرية سبباً لنزاع المعارضين كما هو الحال في أيّة نظرية جديدة ) .

ولو افترضنا انّ هذه النظرية ليست جديدة ، غير انّ عرضها بهذه السعة أمر جديد .

* * *

١ ــ أدلّة وجود الحركة الجوهرية

يعتقد صدر المتألّهين بأنّ الوجود على صورتين :

١ ــ وجود مستقرّ وثابت وعديم الحركة مطلقاً في ذاته أو صفاته .

٢ ــ وجود سيّال ومتموّج في ذاته ، أي انّ السيلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار ، وقد يلاحظ هذا الإضطراب الذاتي بوضوح في إضطراب الاعراض ، وقد لا يلاحظ تغيّر في ظاهر الذات في حين تتجدّد في باطنها باستمرار .

وبتعبير آخر أنّ هذه الموجودات السيّالة لها وجود جديد في كلّ آن ، وهي أشياء جديدة ، ولكن هناك لون من الاتّصال بينها يجعلها تبدو كوجود واحد .

وقد ذكر المناصرون لــ ( الحركة الجوهرية ) أدلّة لإثبات مرادهم ، وان لم يسمح المجال لبيان هذه القضايا ، غير انّنا نشير إلى ثلاثة أدلّة رئيسية هي :

١ ــ من القاعدة القائلة ( كلّ ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات ) ، هناك أصل عام وهو انّ كلّ موجود استعار صفة من غيره وأنّها لابدّ أن تنتهي إلى مصدر تنشأ منه ، وبدون ذلك سنواجه مشكلة ( التسلسل ) ، أي أنّ الحرارة في الماء الحار مستعارة ولابدّ لها أن تنتهي إلى النار التي تولّد الحرارة من ذاتها .

بناءاً على هذا الأصل فانّ الحركة التي نلاحظها في أعراض الجسم ( نظير الكميّة والكيفية ) لابدّ لنا أن نعرف أنّ هذه الحركة ناشئة من إضطراب الذات

[٣٠]

والباطن ، فمثلا : لو كانت التفاحة ثابتة في ذاتها ومستقرّة فكيف إذن يتغيّر لون إعراضها ؟ هذه الحركة الظاهرية إذن تخبر عن حركة الداخل .

٢ ــ كلّ ( معلول متغيّر ) بحاجة إلى ( علّة متغيّرة ) ، فلو جلسنا في ظلك شجرة في بستان ولاحظنا التحرّك المستمرّ للظلّ فالواجب أن نعلم انّ علّته وهي أشعة الشمس في حالة تحرّك ، ومن هناك ندرك الحركة في ذات الجسم عن طريق الحركة في اعراضه .

٣ ــ الزمان دليل آخر على الحركة الجوهرية ، لأنّا نلاحظ جيّداً أنّ حوادث العالم لا تكون مجتمعة ، فحوادث اليوم تتحقّق بعد حوادث أمس وقبل حوادث غد ، وهذا أمر واقعي ، وهذا الإختلاف هو ما نطلق عليه عنوان تفاوت ( الزمان ) .

يبدو الزمان بالنظرة الأُولى والسطحية واقعاً مستقلا عن الموجودات ووعاء للحوادث ، ولكن لو إفترضنا ــ ولو للحظة واحدة ــ عدم وجود الموجودات المادية لوجدنا انّ الزمان لا مفهوم له ، وبتعبير أوضح ( الزمان ) وليد ( المادّة ) وبعبارة أُخرى ( الزمان ) هو ( مقدار الحركة ) .

ومن جهة أُخرى إذا اعتقدنا بأنّ الموضوعات التي تقع فيها الحركة تنحصر في الموضوعات الأربعة السابقة فانّه يعني انّ الموجود الفاقد لهذه الحركات ، أي مع عدم ملاحظة أيّة حركة في ظاهره ، فانّ هذا الموجود ينبغي أن لا يكون زمانياً ، في حين أنّ الوجدان فينا يحكم بأنّا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية ، وليس ذلك إلاّ لأنّ المادّة ذات حركة في ذاتها لكي تتقبّل أجزاء الزمان ( تأمّل جيّداً ) .

هذه هي أهمّ الأدلّة لدى أنصار الحركة الجوهرية وقد عرضناها باختصار شديدّ .

ولا يزال السؤال قائماً عند البعض : كيف يمكن أن نتصوّر عينية ( المتحرّك ) و ( الحركة ) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً ؟! وكيف يتمّ التصديق بشيء

[٣١]

يكون تصوّره في معرض لاسؤال ؟

والعجيب انّ القائل بالحركة الجوهرية بنفسه يبدو مضطرباً أمام هذه المعضلة العويصة ، وتتباين أقواله ممّا يدلّ على انّ حلّها غير يسير(١).

وباختصار انّ أبحاث الحركة الجوهرية بأجمعها تتفرّع عن قابلية تصوّر الحركة بدون موضوع ، ويقول البعض : أنّ هذا أمر غير معقول ، كما يعتقد البعض أنّ تصوّر هذا المعنى يقتضي إخلاء الذهن والإبتعاد عن المفاهيم التي يأنس الإنسان بها في مجال الحركة حتّى يتصوّر وجوداً هو عين الحركة والمتحرّك والحركة واحدة . كانت هذه خلاصة عن أبحاث الحركة .

* * *

٢ ــ إثبات وجود الله ببرهان الحركة

لا شكّ في انّ الحركة لا تنحصر في الحركة الجوهرية . ولذا لا يتحدّد برهان الحركة لإثبات ذات واجب الوجود ببحث الحركة الجوهرية ، على الرغم من انّ برهان الحركة ــ بعد الإيمان بالحركة الجوهرية ــ أكثر وضوحاً في معرفة الله ، لإيضاح ذلك نقول :

إنّ الحركة الجوهرية تقول بأنّ عالم المادّة بأسره عبارة عن حركة ، أي أنّه في حالة تجدّد متواصل ، وله في كلّ آن وجود جديد ، وهذا الحدوث المستمرّ يثبت الإرتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث ، أي يثبت واجب الوجود الأزلي الأبدي.

وبتعبير آخر : انّ العالم في حال ( صيرورة ) دائمة لا ( كينونة ) ، وليس ذلك في الاعراض فحسب بل هو متأصّل في أعماق ذاته ، ولذا يكون محتاجاً إلى

---

١ ــ للمزيد من المعرفة حول هذا الأمر راجع كتاب ( الأسفار ) في بحث الحركة أو دروس المرحوم الشهيد مطهّري حول بحث الحركة في الأسفار : ج١ ، ص٤٤٧ .



المبدأ باستمرار لكي يخلقه كلّ آن .

من خلال هذا البحث يمكن التوصّل إلى نتيجة جديدة وهي أنّ خلق العالم لم يحدث في البداية ثمّ وانتهى ، بل له خلق جديد في كلّ آن ، ولذا فانّ حاجــة العالم إلى علّة أزلية ، أبدية لم تكن في البداية فقط ، لأنّه في حالة حدوث وخلق مستمرّ وفي كلّ آن ، وهذا المعنى كامن في أعماق مفهوم الحركة .

وبهذا لا يثبت بالحركة الجوهرية إحتياج العالم إلى واجب الوجود عند نشوئه فحسب ، بل انّه محتاج إليه في البقاء أيضاً ، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية لا مفهوم للبقاء أصلا فانّه حدوث دائم غير انّه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتّصال مصطلح البقاء .

هنا يمكن أن نذكر تشبيهاً لكيفية إرتباط الأشياء بالمبدأ الأزلي للعالم وهو انّ الموجودات في العالم تشبه المصابيح التي يتواصل وجودها من خلال إرتباطها بالمصدر الكهربائي ، وبما انّ النور يتجدّد في كلّ آن فانّه بحاجة إلى العلّة في كلّ آن والتعرّف على كيفية إنبعاث النور في المصابيح يكفي لمعرفة حاجتها المستمرّة للمصدر المولّد للطاقة الكهربائية .

صحيح انّ ( برهان الحركة ) ينتهي بـــ ( برهان الإمكان والوجوب ) غير انّه يُبحث بصورة مستقلّة من أجل الحصول على صورة جديدة عنه ( تأمّل جيّداً ) .

* * *

٣ ــ العالم متغيّر وكلّ متغيّر حادث

استند الكثير من المتكلّمين ( علماء العقيدة ) على هذا الدليل ( دليل التغيّر ) لإثبات وجود الله دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لأنّ التغيّرات التي تشاهد في ظاهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لإثبات آرائهم .



وللإيضاح نقول : لا يبقى في عالم المادّة شيء على حالة واحدة ، فكلّ الأشياء ــ دون إستثناء ــ في حالة تغيّر .

ومن جهة اُخرى ، انّ التغيّر والحركة حادثان ، وبما انّ المادّة متعرّضة لهذه التغيّرات والتحوّلات دائماً فينبغي أن تكون حادثة أيضاً فمن غير الممكن أن تكون المادّة أزلية وتتعرّض للحوادث منذ الأزل لأنّ ذلك يستلزم إجتماع ( الحدوث ) و ( الأزلية ) وهما متضادّان كما نعلم ( تأمّل جيّداً ) .

إنَّ هذا الإستدلال وبملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادّة يقام بصورة أوضح فكلّ مادّة ــ وفق النظرية الفيزيائية الجديدة ــ تتركّب من ذرّات ، والذرّة عبارة عن جموعة من الحركات ، وكلّ حركة أمر حادث ، فالمادّة ــ إذن ــ والتي هي عبارة عن مجموعة حركات ( الالكترونات ) و (

البروتونات ) لا يمكن أن تكون أزلية ، وبعبارة أُخرى انّ كلّ حركة لها بداية ونهاية ، وكلّ ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً .

هذه المسألة جاءت بشكل جميل في حديث عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) في مواجهة مع ( ابن أبي العوجاء ) حيث قال له الإمام ( (عليه السلام) ) : اسأل ما شئت ، فقال ( ابن أبي العوجاء ) : ما الدليل على حدث الأجسام ؟ فقال الإمام ( (عليه السلام) ) : « انّي ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلاّ إذا ضمّ إليه مثله صار أكبر ، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأُولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأنّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كون في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدوث والقدم والعدم في شيء واحد»(١).

* * *

---

١ ــ بحار الأنوار : ج٣ ، ص٤٦ ، أُصول الكافي : ج١ ، ص٧٧ باب حدوث العالم .



٤ ــ حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

في البحوث العلمية الحديثة ] خاصّة بحوث ( الثرموديناميك ) والقانون الثاني المعروف بقانــون ( الانتروبي ) أو ( الكهولــة ) و ( الإضمحلال ) [ ثبت هذا الأمر : « وهو أنّ الحرارة تنتقل من الأجسام الحارّة إلى الباردة دائماً ولا يحدث العكس بنفسه أبداً و ( الانتروبي ) في الحقيقية هي نسبة الطاقة التي لا يمكن الانتفاع بها إلى الطاقة القابلة للإنتفاع ، ومن ناحية ثانية نحنُ نعلم انّ هذا الإنتقال والانتروبي في العالم في حالة تزايد ، فلو كــان العالم أزليّاً لكانت الحرارة فــي الأجسام كلّها متساوية منذ عصور قديمة ولم تبق طاقة نافعة وبالتالي لم يتحقّق في العالم أي فعل أو تفاعل كيميائي ، ولاستحالت الحياة على الأرض ، لكنّنا نلاحظ بأنّ التفاعلات الكيميائية مستمرّة والحياة على الأرض ممكنة ، ولذا فأنّ العلوم تثبت البداية للعالم ــ دونما قصد ــ وبهذا تثبت ضرورة وجود الله نظراً إلى انّ الحادث لا يحدث لوحده بل يحتاج إلى المحرّك الأوّل »(١).

والطريق الآخر الذي سلكوه لإثبات الحدوث للعالم هو التحقيق في الأجسام ( المشعّة ) ( هي أجسام لها ذرّات غير مستقرّة وفي حالة إضمحلال وزوال مستمرّ حتّى تتبدّل إلى ذرّات مستقرّة

، ولها عدد ذرّي أكبر من ( ٨٠ ) ! وتكون على شكل أجسام ثقيلة وغير مستقرّة ، وفي حالة إشعاع ذرّي ، وكأنّها تلقي بنفاياتها إلى الخارج حتّى تتحوّل إلى عناصر مستقرّة .

إنَّ وجود هذه العناصر في الطبيعة دليل على انّ العالم حادث وذو تاريخ ، وكما يقول المفكّر الشهير ( دونالد روبرت كار ) والمتخصّص في ( الكيمياء الحياتية ) كاتب كتاب ( الأرض ) وهو كتاب يعيّن عمر الأرض بحساب كاربون الإشعاع الطبيعي : ( لو كان العالم أزليّاً وأبديّاً لما وجدنا عنصراً مشعّاً وذلك

---

١ ــ كتاب ( إثبات وجود الله ) لادوارد لوثر كيسل : ص٥٥ ( باختصار طفيف ) .



لتبدلّه إلى عناصر مستقرّة )(١).

ونستنتج من ذلك أنّ العلوم الطبيعية تثبت حدوث العالم أيضاً بطرق مختلفة ، ومن هنا تتّضح ضرورة وجود خالق أزلي أبدي لتفسير ظهور عالم الوجود ( تأمّل جيّداً ) .

وبتعبير أوضح : انّ إضمحلال المادّة ( الانتروبي ) دليل على انّ للعالم تاريخاً ينبىء عن بداية حدوثه ، فلو كان عالم المادّة أزليّاً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود ، ولكانت الحرارة فيه متساوية وإنعدم النشاط فيه وتعرّض للفناء .

ويشبه هذا إذا وضعنا وعاءً مليئاً بالماء الحارّ في غرفة ، فما دامت الحرارة في الوعاء تختلف عن حرارة الجوّ فانّ الهواء حوله يكون متحرّكاً باستمرار ويزداد حرارة ويتصاعد إلى الأعلى ويحلّ محلّه الهواء المجاور له وهذا يحدث حركة مستمرّة في الفضاء المجاور ، وعندما تتساوى الحرارة في الغرفة فلن تكون أيّة حركة .

وهذا هو مصير العالم أخيراً ، والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه ، أي أنّ له تاريخ ظهور وحدوث .

وهو يشبه الأواني المستطرقة المتصلة فإذا سكبنا الماء في أحدها فانّه سوف يتحرّك في الأواني كلّها حتّى يستوي فيها وبذلك يحلّ السكون . ويقول العالم الفلكي ( استونتر ) : قام العلم باحتساب أعمار الكثير من الأشياء مثل : عمر الأرض ، والصخور الشهابية ، والقمر

والشمس ، والمجرّة وأخيراً عمر الدنيا ، والعمر اللازم ــ لتركيب العناصر المختلفة وتفكّكها ــ وظهر أنّ هذه الأعمار متقاربة وتقدّر بــ ( ٦٠٠٠ ) مليون سنة منذ بداية حدوث العالم(٢).

* * *

---

١ ــ كتاب ( إثبات وجود الله ) لادوارد لوتر كيسل : ص١٥٥ .

٢ ــ إثبات وجود الله : ص١٦٠ .

[٣٦]

وفي الختام نعود لنقول : انّ حديث إبراهيم ( (عليه السلام) ) في الآيات المذكورة يستهدف مسألة إثبات وجود الله عن طريق الحكم العقلي القائل بأنّ الشيء المتغيّر لا يمكن أن يكون خالداً وان كانت براهين اُخرى للحركة كامنة في طيّات إستدلال إبراهيم ( (عليه السلام) ) ( تأمّل جيّداً ) .

* * *

[٣٧]

[٣٨]

برهان الوجوب والإمكان

( الغنى والفقر )

[٣٩]

[٤٠]

تمهيد :

أقــام الفلاسفة والمتكلّمون ( علماء العقيدة ) أدلّة مختلفة لإثبات وجود الله سبحانه ، والبعض منها ذات اُصول مشتركة ، ومن هذه الأدلّة برهان ( الوجوب والإمكان ) وبرهان ( العلّة والمعلول ) ، وستأتي تفصيلاتهما تباعاً بإذن الله .

**وبما أنّ هذه الإستدلالات تكون ذات شروح مختلفة لذا فانّا نشير إليها بصورة مستقلّة مع الإشارة إلى اُصولها المشتركة .**

**إنّ الأساس في البرهان ( الوجوب والإمكان ) أو ( الغنى والفقر ) يبتني على ما نجد في أنفسنا وسائر الموجودات في العالم عند ملاحظتها من انّ الحاجة تملأ وجودنا ووجودها ، أو من البديهي القول بأنّ الكون عبارة عن مجموعة من الحاجة والفقر .**

**إنّ الفقر في العالم دليل على وجود مصدر عظيم للغنى نطلق عليه لفظ ( الله ) تعالى(١).**

**وبعبارة اُخرى انّنا نجد كلّ موجود في هذا العالم تابع ، ولا يمكن لهذه التبعية أن تكون إلى ما لا نهاية والعالم عبارة عن مجموعة من التبعيات ، ممّا يدلّ على وجود ذات مستقلّة قائمة بالذات في هذا العالم تتبعه هذه ( التبعيات ) وتستند إليه .**

بعد هذا التمهيد نراجع القرآن الكريم خاشعين الآيات التالية :

---

١ ــ التعبير بـــ ( انّ الله غني حميد ) وأمثاله جاء في عشر آيات قرآنية : سورة البقرة ٢٦٧ ، سورة إبراهيم ٨ ، سورة الحجّ ٦٤ ، سورة لقمان ١٢ ، سورة لقمان ٢٦ ، سورة الحديد ٢٤ ، سورة الممتحنة ٦ ، سورة التغابن ٦ ، سورة النساء ١٣١ والآية أعلاه ) كما انّ وصف الله بالغنى ورد في آيات أكثر عدداً ، وهذا التأكيد والتكرار القرآني في هذا الصدد يحكي أهميّة المضمون في هذا التعبير .



١ ــ ( يا اَيُّها النّاسُ أنُتم الفُقراءُ إلى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنيُّ الحَميدِ )(١).

٢ ــ ( واللهُ الغنيُ وأنتمُ الفُقَراء )(٢).

٣ ــ ( يَسئَلُه مَنْ في السَّمواتِ والأَرضِ كُلَّ يَوم هُوَ في شَأْن )(٣).

شرح المفردات :

( فقراء ) جمع ( فقير ) ، وأصله كما يقول ( الراغب ) في ( المفردات ) هو الذي كسرت فقرات ظهره ، وبما انّ البؤساء يشبهون حال من تعرّض لكسر الفقرات لذا اُطلق عليه هذا المصطلح .

كما أنّ ( مسكين ) مشتقّ من ( السكون ) ويعني العجز عن المشي ولذا اُطلق على الفقراء المحدقين ، ولذا تطلق كلمة ( فاقرة ) على الحادثة أو المصيبة العظيمة التي من شأنها أن تهشّم الفقرات .

وقد ورد في ( مجمع البحرين ) بأنّ ( فقير ) يُطلق على الذي هو أفضل حالا من ( المسكين ) ، ولذا قيل لرجل في الصحراء أفقير أنت ؟ قال : لا والله بل مسكين(٤).

وعلى أيّ حال فانّهم ذكروا الـــ ( الفقر ) أربعة معان هي :

١ ــ الحاجة الضرورية التي تعمّ جميع البشر بل كلّ الموجودات في العالم والآية ( يأيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله ) عندهم تشير إلى ذلك .

٢ ــ الإحتياج إلى الحدّ الأدنى من مستلزمات الحياة ويعتقدون انّ الآية ( انّما الصَدقاتِ للفُقَراء ... ) تشير إلى ذلك .

٣ ــ فقر النفس والذي يعني الطمع ، وعدَّهُ الحديث المعروف كفراً ( كاد الفقرُ

---

١ ــ سورة فاطر : الآية ١٥ .
٢ ــ سورة محمّد : الآية ٣٨ .
٣ ــ سورة الرحمن : الآية ٢٩ .
٤ ــ يذهب البعض إلى العكس في ذلك .



أن يكون كفراً ) ويقابله غنى النفس .

٤ ــ الحاجة إلى الله كما جاء في الحديث المعروف ( اللّهم أغنني بالإفتقار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك )(١).

وقد جاء في كتاب ( العين ) كلمة ( فقرة ) بمعنى الحفرة التي يوجدها الإنسان في الأرض للزرع ، ومن الممكن أن يكون الأصل في ( فقير ) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة في حياته ، ومن المحتمل أن يكون إستعمال هذا اللفظ في العمود الفقري هو لوجود التقعّرات فيه .

( غنّى ) من مادة ( غناء ) وتعني عدم الإحتياج ويقابله الفقر ، ولذا ذكروا له هذه الموارد الأربعة في إستعمالاته :

١ ــ الغنى بمعنى عدم الإحتياج إلى أي شيء وهذا مختصّ في الله سبحانه .

٢ ــ عدم النقص في مستلزمات الحياة .

٣ ــ الغنى وعدم إحتياج النفس أي القناعة .

٤ ــ الإستغناء عن الله وهذا المعنى محال ، ولكن قد تخطر هذه الفكرة لدى بعض الناس وتكون سبباً للطغيان ( كلاّ انَّ الإنسانَ ليطغى أنْ رآهُ استغنى )(٢).

ويقول ابن منظور في ( لسان العرب ) : الغَناء بالفتح : يعني المنفعة وغِناء بمعنى التطريب ورغينا ( بلا مدّ ) يعني الإستغناء وعدم الحاجة ، ومن الممكن أن يعتقد بوجود أصل مشترك

بين هذه المعاني كلّها ويقول بأنّ الغناء يطلق عندما يرفع الإنسان صوته ويملأ به الجوّ كالأغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات !.

* * *

---

١ ــ مفردات الراغب : مادّة فقر .

٢ ــ سورة العلق : الآية ٦ و٧.



## إحتياج الجميع إليه

الآية الاُولى تخاطب جميع الناس ( يأيُّها النّاسُ أنتُم الفُقَراءُ إلى اللهِ ) ، لــ ( الفقر ) هنا معان واسعة وتشمل كلّ إحتياج في الوجود بأسره ، فانّنا ومن أجل مواصلة الحياة الماديّة بحاجة إلى ضوء الشمس ، والماء ، والهواء ، وأنواع من الغذاء والملبس والمسكن .

ولبقاء الحياة في الجسم نحن بحاجة إلى الأجهزة الباطنية من قلب وعروق وجهاز للتنفّس ودماغ وأعصاب .

ونحتاج في الحياة المعنوية ــ من أجل أن نميّز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحقّ من الباطل ــ إلى قوّة عاقلة ، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية .

وبما انّ منشأ هذه الاُمور كلّها عند الله لذا فانّنا بحاجة إليــه في وجودنا كلّه .

إنّ الشهيق والزفير يحدثان بتعاضد الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان ، وكلّ هذه العوامل هي هبات إلهية ، في كلّ نفس ــ إذن ــ هناك آلاف النعم ، وينبغي الشكر على كلّ نعمة .

هذه الآية وان كانت تقصد كلام الذين يستغربون من إصرار النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) على عبادة الله تعالى كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين(١) ويقولون هل انّ الله بحاجة إلى عبادتنا ؟ فيجيبهم القرآن : أنتم الفقراء إلى الله وبعبادته تتكامل أرواحكم .

ولكن هذا الكلام لا يحدّد من سعة المفهوم من الآية في جهاتها المختلفة ، لأنّ قضيّة إستغناء الله وإحتياجنا هي الأساس في حلّ الكثير من المشكلات .

وعلى أي حال فانّ الفقر نافذ إلى أعماق ذوات البشر أجمعين بل وكلّ الموجودات ، ولا تقتصر الحاجة إليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط ، بل انّ

---

١ ــ تفسير الفخر الرازي ، وتفسير روح المعاني : في ذيل آية البحث .



وجودها يحتاج إلى فيضه في كلّ لحظة وآن ( ان تَوقَف لحظة تهدّمت الهياكل ) .

أجل ، إنّ الغني في عالم الوجود هو ذاته المقدّسة ، ولمّا كان البشر ــ وهم تحفة عالم الخلق ــ بحاجة إليه في كلّ وجودهم فانّ حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان ، ولذا فانّ الآية تضيف في ذيلها : ( واللهُ هُوَ الغَنيُّ الحَميدِ ) وبملاحظة انّ التعبير أعلاه يدلّ على الحصر ــ وفق القواعد الأدبية ــ فانّ مفهومه ليس إلاّ هذا ، وهــو إنّ الغني المطلق هو الــذات المقدّسة لله سبحانه ، ولــو قسّمنا البشر إلى ( فقير ) و ( غني ) فانّ هذا أمر نسبي غير حقيقي .

وبتعبير آخر ، انّ الموجودات كلّها عبارة عن الفقر والحاجة ، وانّ ذات الله المقدّسة عبارة عن الغنى والإستغناء ، وهذا هو أوّل الكلام وآخره .

هو لا يحتاج ــ إذن ــ إلى عبادتنا وطاعتنا أبداً ، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء ، بل انّ طاعتنا وعبادتنا لهُ ومدحنا وثناءنا عليه هي جزء من إحتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوي والروحي ، حيث انّنا كلّما إقترنا من منبع النور فانّا نزداد نوراً ، وكلزما إقترنا من المصدر الفيّاض ذاك فانّا نستفيد أكثر ، وبتمثيل ناقص انّنا كالنباتــات والأشجار التي تستقبل نــور الشمس دون أن تحتاج إليهــا الشمس .

انّ فهم هذه الحقيقة يقدّم للبشر درس التوحيد حتّى لا يخضعوا إلاّ إليه ولا يُطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدّوا يد الحاجة إليه لأنّهُ ( غني وكريم ورحيم وودود ) .

انّ الإنتباه إلى هذه الحقيقة له الأثر البالغ في تربية الإنسان ، فمن جهة يخرجه من حالة الغرور وعبادة النفس ، ومن جهة أُخرى يحرّره من جميع القيود ويجعله غنيّاً عن سواه ، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا يضيع في عالم الأسباب ، وسينظر إلى مسبّب الأسباب على الدوام .

وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أمرين :

[٤٥]

الأوّل : انّ الله هنا ( في الآية ) قد وُصف بـــ ( الحميد ) بعد وصفه بـــ ( الغني ) ، وكما أشرنا انّ هذا التعبير قد تكرّر في عشر آيات ممّا يدلّ على وجود نقطة مهمّة فيها ــ هي كما يحتمل ــ : انّ الكثير من الأغنياء يتّصفئون بصفات ذميمة نظير الكبر والغرور والحرص والبخل ، حتّى لو كان لدى أحد إخوانهم نعجة واحدة ولديهم ( ٩٩ ) نعجة فانّهم سيصرّون على ان يسلبوه نعجته ، إلى حدّ يتبادر من لفظ ( الغني ) لدى الكثير من الأذهان معنى الظلم والكبر والبخل ، في حين انّ الله رحيم في غناه وعفو وغفور ، ولذا هو أهل لكلّ مدح وثناء .

أجل ، انّ ( الغني ) الوحيد المُبرَّأ من كلّ عيب ونقص وذو الفضل واللطف والرحمة هي ذاته المقدّسة .

الثاني : هو أنَّ المخاطبين في الآية هم البشر فقط ( يأيُّها النّاسُ ) فلماذا لم تذكر الموجودات الأُخرى في حين انّها فقيرة إلى الله أيضاً ؟

قال الكثير من المفسّرين بأنَّ ذلك ناشي من الحجم الواسع لحاجة الإنسان ، فكلّما كان الموجود أكمل فانّه أكثر إحتياجاً في مسيرته ويزداد شعوراً بالحاجة كما هو الحال في الإحتياج المادّي ، فالطير يقنع بشيء من الماء والحبّ والعشّ البسيط في حين لا تشبع روح الإنسان بألوان الطعام واللباس والبيوت والقصور(١)!

* * *

والآية الثانية خلال بحثها عن ( الإنفاق في سبيل الله ) وبخل البعض في هذا

---

١ ــ انتبه بعض المفسّرين إلى هذه النقطة أيضاً وهي انّ ذكر ( الفقراء ) بصورة معرفة ( مع انّ الخبر يكون نكرة عادةً فلو كان معرفة لما إحتاج المخاطب إلى الخبر ) هو للتنبيه والتذكير ، أي انّ المخاطب نفسه يعلم بأنّه فقير إلى الله وهذا تذكير ليس إلاّ ، وقد جاء في علم البلاغة أيضاً انّ المخاطب العالم الذي لا يعمل بعلمه يعتبر جاهلا وينذر عن طريق الأخبار ( تأمّل جيّداً ) .

الطريق ورجوع بخل البخلاء على أنفسهم لأنّهم محرومون من فيض الله ورحمته اللامحدودة تقول : ( واللهُ الغَنيُّ وأنتُم الفُقَراءُ ) .

قد يكون هذا التعبير من أجل رفع التصوّر بأنَّ الله تعالى عندما يدعو الناس إلى الإنفاق في سبيل الله فانّه محتاج إلى إنفاقهم ، أو أنَّ هــذه الجملة تتنافى مع الجملة التي وردت في آيات سابقة حيث تقول : ( ولا يسئَلكُمُ أموالَكُم ) .

تنطق الآية بأنَّ الله غني على الإطلاق والجميع محتاجون إليه ، فعندما يأمرهم ــ إذن ــ بالإنفاق فليس ذلك لحاجته ، بل لأنّهم هم المحتاجون ، ويصلون إلى الكمال عن هذا الطرق ويتقرّبون إلى ذلك الوجود اللامحدود.

صحيح أنّ بداية الآية ترتبط بــ ( الفقر والغنى الماليين ) وتنظر إلى الإنفاق في سبيل الله ، غير انّ الإطلاق في ذيل الآية يعطي مفهوماً واسعاً ، ففي الوقت الذي تعرّف الله سبحانه بالغني المطلق فانّها تعتبر البشر محتاجين في كلّ وجودهم ، وقد نفذ الفقر إلى أعماق ذواتهم ولهذا يمكن إستخدامه للإستدلال في هذا البحث .

على أيّ حال فانّ من الملفت انّه هو الذي تفضّل بالهبات كلّها ووهبها للعباد ثمّ يطلب منهم أن ينفقوا في سبيل الله ، وهذه مقدّمة لهبات أكبر .

ولا ينحصر هذا في قضيّة الإنفاق فحسب ، بل يجري في كلّ التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم .

وقد جاء هذا المضمون في آيات عديدة منها ما تضمّنته الآية ( ٤٧ ) من سورة سبأ حيث نقرأ :

( قُلْ مَا سَأَلتُكُم منْ أجر فَهوَ لَكُم إنْ أجْريَ إلاّ عَلى اللهِ ) كما جاء في الآية (٦) من سورة العنكبوت : (وَمَنْ جَاهدَ فَإنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ، إنَّ الله لَغَنيٌّ عنْ العَالمينَ).

* * *

[٤٧]

والآية الثالثة والأخيرة من بحثنا تذكر هذا المضمون ( الفقر العامّ للموجودات وغنى الله المطلق ) في حُلّة جديدة وجميلة وتقول : ( يَسئَلُهُ مَنْ في السَّمواتِ والأرْضِ ) .

وكلّ يوم هو في شأن ومنح مواهب جديدة ( كُلَّ يَوم هُوَ في شَأْن ) .

وبملاحظة الفعل المضارع يسأل والذي يدلّ على الإستمرار ، وملاحظة ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السماء والأرض ( وبإحتمال قوي يشمل كلّ الموجودات العاقلة وغير العاقلة ، والتعبير بـــ ( من ) الذي يستعمل للعاقل هو للتغليب ) وملاحظة انّ الآية لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فيدلّ ذلك على شمولية الآية ، وسيكون مفهوم الآية هو أنَّ كلّ الموجودات في عالم الخليقة تستمدّ الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرّة ، فيض الوجود ومتعلّقاته ) .

وليس هذا الطلب من ذات ممكن الوجود في حالة الحدوث فحسب ، بل في البقاء أيضاً يكون محتاجاً إلى واجب الوجود في كلّ لحظة ويطلب منه الوجود .

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً في تفسير ( روح البيان ) و ( روح المعاني ) حيث جاء فيهما ( .. قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءاً وسائر أحوالهم سؤالا مستمرّاً بلسان المقال وبلسان الحال فانّهم كافّة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن إستحقاق الوجود وما يتفرّع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو إنقطع ما بينهم من العناية الإلهية من العلائق لم يشمّوا رائحة الوجود أصلا فهم في كلّ آن مستمرّون على الإستدعاء والسؤال )(١) من هنا يتّضح انّ إعتقاد البعض بأنَّ السؤال يرتبط بـــ ( الرزق ) أو ( الرحمة

---

١ ــ تفسير البيان : ٢٩٩/٩ و ( روح المعاني ) ٩٥/٢٧ .



الإلهيـــة ) أو ( متطلّبات الديـــن والدنيا ) أو ( العلم بعاقبـــة العمل وصلاح النفس وفسادها ) فقط لا دليل عليه وإنْ إندرجت في مفهوم الآية الواسع .

* * *

إيضاحات

١ ــ برهان الوجود والإمكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القابلة للفهم ، حيث يمكن بيانه بلسان عامّة الناس ، وكذلك بتعبيرات وإصطلاحات فلسفية خاصّة ، وبتعبير بسيط عندما نرجع إلى وجودنا نجد أنَّ وجودنا برمّته في

حالة إحتياج ولا يلبّي الإحتياج من الداخل ولذلك يجب رفع اليدين إلى خارج أنفسنا ، وكما يقول المثل ( من كان أغنى فهو أكثر إحتياجاً ) فكلّما تضاعفت قوّة الإنسان في الظاهر ( ماديّاً أو معنويّاً ) توسّعت دائرة إحتياجاته ، فالطير في الصحراء يكتفي بقليل من الماء والحبّ وعشّ مؤلّف من بعض الأوراق ، في حين تحتاج حياة سلطان مقتدر إلى الآلاف وهكذا في الحياة العلمية لمحقّق كبير بالنسبة لطالب مبتدىء .

وبملاحظة هذا الإحتياج وبإلهام باطني يدرك الإنسان انّ لهذا العالم مُبدئاً غنيّاً إليه يتّجه الجميع لقضاء حوائجهم وهو الذي نطلق عليه ( الله ) تبارك وتعالى .

امّا في العبارات الفلسفية وبحوث المتكلّمين فإنَّ الوجود يقسّم إلى قسمين : ( ممكن ) و ( واجب ) .

فواجب الوجود يكون وجوده من ذاته ، وذاته المقدّسة لا تحتاج إطلاقاً ، في



حين لا يملك الممكن في ذاته شيئاً فهو محتاج .

وبهذا يُعد إحتياج الممكن إلى العلّة من القضايا البديهية والأوّلية ولا تحتاج إلى إقامة البرهان ، ومن يتردّد في هذا الأمر فانّه يعود إلى عدم الفهم الجيّد لمفهوم الممكن .

ثمّ يُطرح هذا السؤال : ما العلّة في إحتياج الممكن إلى العلّة ؟ هل هي وجودها أو أنّها قضيّة الحدوث ؟ أي هل أنّ الأشياء تحتاج إلى العلّة بسبب كونها حادثة لا من كونها انّها موجودة ؟ أو أنَّ الملاك الأصل هو ( الإمكان ) وبناء على هذا الدليل فانّ الإحتياج إلى العلّة يجب أن لا يبحث في أصل وجود الشيء أو في حدوثه ، بل العلّة الأساسية هي الإمكان .

لا ريب أنّ الإجابة الصحيحة والدقيقة هي الإجابة الثالثة ، لأنّنا إذا ــ بحثنا عن معنى الإمكان وجدنا أنّ الإحتياج إلى العلّة متحقّق فيه ، لأنّ ــ ( الممكن ) وجود ( غير إقتضائي ) أي أنّ ذاه لا تقتضي الوجود ولا العدم .

وبملاحظة هذا الإستواء الذاتي يكون في وجوده وعدمه بحاجة إلى عامل .

ولذا فانّ الفلاسفة يقولون بأنَّ حاجة الممكن أوّلية .

يُستنتج من ذلك أنّ حاجة الممكن إلى واجب الوجود لا تقتصر على ابتداء الوجود فحسب ، بل هي ثابتة في مراحل البقاء كلّها لثبوت الإمكان في حقّ الممكن دائماً لذا فانّ الحاجة إلىالعلّة أمر باق وثابت .

وللمثال على ذلك فانّنا حينما نمسك القلم ونحرّكه على قرطاس نجد أنّ حركة القلم تحتاج إلى محرّك من الخارج ويتمثّل في أصابعنا ، فما دامت الحركة في اليد والأصابع فانّ القلم يتحرّك كذلك ، ويتوقّف بتوقّفها .

وأوضح من ذلك ما يوجد في أفعال أرواحنا ، فحينما نعزم على العمل ببرنامج ما نجد انّ الإرادة والعزم ــ وهما من فعل الروح ــ يرتبطان بها ويختفيان حال إنقطاع هذا الإرتباط .



انّنا مرتبطون بوجود الله كذلك وَهذا الوجود الإرتباطي لا يستقرّ لحظة واحدة بدون ذلك .

ويقول الشاعر :

لم أسلم النفس للأسقام تبلغها ***** إلاّ لعلمي بأنّ الوصل يحييها

نفس المحبّ على الآلام صابرةٌ ***** لعلّ مسقمها يوماً يداويها

قد يقال : انّنا نشاهد البناء باقياً بعد موت بانيه فكيف إذن تستغني الأفعال عن الفاعل في بقائها ؟

فنقول : انّ ذلك يحصل بسبب حلول علّة محلّ علّة اُخرى ، ففي البداية تقوم يد البنّاء الماهر بوضع لبنة على لبنة اُخرى ثمّ يبقى البناء مستقرّاً بفضل جاذبية الأرض وعوامل الإلتصاق من جصّ وأسمنت .

وبإختصار ، انّ وجود ( الممكن ) وجود إرتباطي ولا يستمرّ دون الإتّكال على وجود مستقلّ ، وعليه فانّ تعريف معنى الوجود الإرتباطي كاف في التعرّف على الوجود المستقلّ دون الحاجة إلى بحوث واسعة في « الدور والتسلسل » ( تأمّل جيّداً ) .

يُستبطين في مفهوم الوجود الإرتباطي والتبعي معنى الإستناد إلى واجب الوجود فهل للوجود الإرتباطي معنى دون الوجود المستقلّ ؟

* * *

٢ ــ برهان الغنى والفقر في الروايات الإسلامية

نقرأ في دعاء الإمام الحسين ( (عليه السلام) ) يوم عرفة ــ وهو من أعمق وأثرى الأدعية الواردة عن المعصومين ( (عليهم السلام) ) ــ خاصّة في بحث التوحيد إذ يقول ( (عليه السلام) ) :

( كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما



ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك ؟)(١).

ونقرأ في موضع آخر من الدعاء نفسه :

( إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري ؟!).

ونجد في حديث نبوي : ( الفقر فخري وبه أفتخر )(٢).

انّ أحد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتي تجاه الله سبحانه وهو الداعي إلى الفخر ، وليس الفقر هنا بمعنى ضنك المعيشة والإفتقار إلى المخلوق وهو ممّا تذمّه الروايات ، كالحديث الذي ينصّ :

( كاد الفقر أن يكون كفراً )(٣).

ولذا نقرأ عنه ( (عليه السلام) ) في حديث آخر : ( اللهمّ إغنني بالإفتقار إليك ولا تفقرني بالإستغناء عنك )(٤).

كانت لقلبي أهواءٌ مفرغة ***** فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ***** شغلا بذكرك يادِيني ودنيائي

---

١ ــ يستفاد من هذه الجملة في (برهان الصدّيقين) أيضاً فيشار إليها في بحثه ان شاء الله.

٢ ــ بحار الأنوار : ٥٥/٦٩ ، وتفسير روح البيان : ٣٣٤/٧ .

٣ ــ بحار الأنوار : ٣٠/٦٩ .
٤ ــ سفينة البحار : ٣٧٨/٢ ، وتفسير روح البيان : ٣٣٤/٧ .

[٥٢]

[٥٣]

برهان العلّة والمعلول

[٥٤]

[٥٥]

تمهيد :

لا شكّ انّ العالم الذي نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات ، والعلّية هي من أوضح القوانين في هذا العالم .

كما لا شكّ في انّنا والأرض التي نعيش عليها لم نكن موجودين بصورة دائمة بل انّنا معلولون لعلّة اُخرى ، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات أن تستمرّ بلا نهاية وتبقى في حالة التسلسل ؟ وبعبارة اُخرى أتكون كلّ علّة معلولة لعلّة اُخرى ولا تنتهي في موضع ما ؟

انّها قضيّة لا يتقبّلها أي وجدان ، فكيف تتبدّل اصفار نضعها إلى ما لا نهاية إلى رقم ما ؟ ( المقصود من الصفر هو الموجود الذي لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من علّته ) ، وكيف يمكن أن يصطف الفقراء ــ والمعوزون إلى ما لا نهاية ثمّ يحصل منهم وجود غني ؟!

يجب الإذعان ــ إذن ــ إلى انّ هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي بوجود ، وهذا الوجود هو علّة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته ، وبتعبير أدقّ هو عين الوجود اللامتناهي وواجب الوجود .

إنّه أوضح دليل على إثبات الوجود الأزلي والأبدي لله سبحانه .

والملاحظ أنّ الإستدلالات الاُخرى لإثبات وجود الله تنتهي كذلك ببرهان ( العلّة والمعلول ) وبدونه تكون ناقصة .

بعد هذا التمهيد نصغي خاشعين إلى الآيات القرآنية التالية :

١ ــ ( أمْ خُلِقوا مِنْ غَيرِ شيء أمْ هُمُ الخالِقونَ ) سورة الطور ــ ٣٥ .

٢ ــ ( أمْ خَلَقُوا السَّمواتِ والأرضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ ) سورة الطور ــ ٣٦ .

٣ ــ ( أمْ لَهُمْ إلهٌ غَيرُ اللهِ سُبحانَ اللهِ عَمّا يُشرِكُونَ ) سورة الطور ــ ٤٣ .



شرح المفردات :

( خلقوا ) من ( الخلق ) ويعني في الأصل : التقدير المباشر ، وبما انّ التقدير عند إيجاد شيء غير موجود في الماضي ، وبدون أصل ومادّة يكون تقديراً في جميع الجهات . أُطلقت هذه المفردة على الإبداع والإيجاد .

كما تستعمل هذه الكلمة في عملية إيجاد شيء من شيء آخر نظيره :

( خَلَقَ الإنسانَ مِنْ نُطفَة ) ــ سورة النحل : ٤ .

من البديهي انّ ( الخلق ) بمعنى ( الإبداع والإيجاد بعد العدم ) مختصّ بالله ، ولذا ينفى عن غيره حيث يقول تعالى :

( أَفَمنْ يَخلُقُ كَمنْ لا يَخلُقُ أَفلا تذكَّرونَ ) ــ سورة النحل : ١٧ .

في حين يصدق المعنى الثاني ( وهو إيجاد شيء من شيء آخر والتقدير له ) . فيما سوى الله تعالى . والآية ( فتبارَكَ اللهُ أَحسنُ الخالِقين ) ــ سورة ( المؤمنون ) : ١٤ ناظرة إلى هذا المعنى .

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً ، ولعلّ ذلك لما يوجده الإنسان حين الكذب من شيء غير موجود .

وقد ذكروا لــ ( الخلق ) أصلين في مقاييس اللغة أحدهما : التقدير وثانيهما : الليونة والنعومة ، ولذا يطلق على الصخرة الملساء ( الصخرة الخلقاء ) كما يطلق فعل ( خَلَقَ ) على الأشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الأزمنة عليها .

امّا ( الأخلاق ) والتي تعني الصفات والسجايا الإنسانية الثابتة فانّها مشتقّة من المعنى الأول وهو التقدير ( لأنّها تحدّد أبعاد الشخصية والروح
الإنسانية وقدرها ) .

جمع الآيات وتفسيرها :

استجواب عجيب !

[٥٧]

لقد جاءت الآيات المذكورة أعلاه ضمن تسع آيات في سورة ( الطور ) ، ووردت في نطاق ( ١١ ) سؤال على صورة الإستفهام الإستنكاري .

وهذه الآيات تضع الإنسان أمام مجموعة من الأسئلة المتسلسلة العجيبة ثمّ تسدّ طريق الفرار عليه كي يذعن للحقّ .

وتتابع هذه الأسئلة الأحد عشر ثلاثة أهداف مهمّة هي :

إثبات التوحيد ، المعاد ، ورسالة نبي الإسلام ، غير أنّ الأساس فيها يتمحور حول توحيد الخالق المعبود .

الآية الأُولى من الآيات الثلاث التي تقدّمت تقول : ( أَمْ خُلِقوا مِنْ غَير شَيء أَمْ هُمُ الخالقونَ ) .

وبعبارة أُخرى : إنّ كلّ إنسان لا شكّ في أنّه مخلوق وحادث ولا يخرج من ثلاث حالات : امّا مخلوق من دون علّة أو هو علّة وجوده أو أنّ علّته هو الوجود الأزلي والأبدي وهو الله سبحانه .

وبما أنّ الإحتمالين الأوّل والثاني لا يتوافقان مع العقل والوجدان فالإحتمال الثالث هو الثابت حتماً ، ولذا ذكر الإحتمالين الأوّل والثاني بصيغة « الإستفهام الإستنكاري » ، وحينما ينفيهما العقل والوجدان ، يثبت الإحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الإستدلال الشهير بـــ ( العلّة والمعلول ) حيث يعرض في جملتين قصيرتين ومركّزَتَيْنِ ذات معنى واسع .

وقد يبرز هنا إحتما رابع وهو أن يكون الإنسان معلولا لعلّة اُخرى وهذه العلّة معلولة لعلّة اُخرى وهكذا تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية .

وهذا الإحتمال يبرز لدى الفلاسفة عادةً وليس لعامّة الناس ، ولعلّ الآية لم تذكره لهذا السبب .

على أيّ حال فانّ هذا الإحتمال واضح البطلان أيضاً ، لإستحالة ( تسلسل العلل والمعلولات ) منطقياً ووجداناً ، وسيأتي إيضا ذلـــك بإذن



الله .

وقد ذكر الكثير من المفسّرين تفسيرات اُخرى للآية ، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفاسير متعدّدة ، حيث يقولون بأنّ المراد هو أنّ البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر ونهي وثواب وعقاب ، ويعتبرونها نظير الآية ( ١١٥ ) من سورة ( المؤمنون ) .

( أَفحسبتُم أنَّما خَلَقْناكُم عَبَثاً )(١).

ولكن بملاحظة ذيل الآية يضمحل هذا الإحتمال تماماً لأنّه تعالى يقول : (أمْ هُم الخالِقون ) ، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الجملة الاُولى ناظرة إلى سبب الخلقة وعلّة ظهور الإنسان لا الغاية من خلقه ، وبعبارة اُخرى انّ الآية تلاحظ العلّة الفاعلية لا الغائية .

* * *

الآية الثانية تتوجّه إلى خلق السماوات وتعيد إستدلال العلّة والمعلول هذا في مورد خلق السماوات والأرض وتقول :

( أمْ خَلَقُوا السَماواتِ والأرضَ ) .

ويعني هذا انّ السماوات والأرض حادثة دون شكّ لتعرّضها إلى الحوادث باستمرار وحدوث أنواع التغييرات عليها وكلّ شيء معرض للتغيّر لا يمكن أن يكون أزمياً .

في هذه الحالة يجري الحديث عن خالق السموات والأرض فهل هي خلقت نفسها ؟ أو لا خالق لها أبداً وقد وجدت صدفة ؟ أم أنّ خالقها هو البشر ؟ وبما أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفي ، يعلم أنّ لها خالقاً ليس مخلوقاً بل هو

---

١ ــ تفسير مجمع البيان ، تفسير الفخر الرازي ، تفسير القرطبي ، تفسير الميزان ، تفسير روح المعاني وتفسير روح البيان ، حيث ذكروا هذا المعنى كمعنى رئيس في الآية أو كاحتمال .



أزلي أبدي .

والملاحظ أنّ من بين هذه الإحتمالات يتوجّه الإستفهام الإنكاري إلى إحتمال خالقية الإنسان للسماوات والأرضين فقط الإحتمالات الاُخرى في الآيات السابقة ، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة والبلاغة .

من هنا فانّ الآيتين أعلاه أقامتا برهان العلّة والمعلول في الآفاق والأنفس ، وعليه فانّ الآية الثانية تشهد كذلك على انّ الحديث يدور حول العلّة الفاعلية لا الغائية .

في الختام تشير هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي انّ القضايا في هذا الصدد واضحة ، ولكن العيب هو أنّهم لا يستعدّون للإيمان واليقين ( بَل لا يوقِنُون ) .

أجل ،إنّ الحقّ بيّن ، بيد أنّهم معاندون وأعداءٌ للحقّ .

وفي الحقيقة فانّ هذه الجملة تشابه ما ورد في الآية ( ٤) من سورة الجاثية :

( وَفي خَلقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّة آياتٌ لِقَوم يُوقِنُونَ ) وتشابه ما ورد في الآية ( ٢٠ ) من سورة الذاريات .

( وَفي الأرضِ آيات لِلمُوقِنِينَ ) .

وواضح أنّ اُولئك لو كانوا موقنين لما احتاجوا إلى الآيات ، وعليه فانّ الحديث يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنّهم على إستعداد لقبوله .

وذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ المقصود هو انّ اُولئك لا يقين لهم بأنّهم خالقو السماوات والأرض ، بل يعتقدون بأنّ الله هو الخالق ، نظير ما جاء في الآية ( ٢٥ ) من سورة لقمان ( وَلَئِنْ سأَلتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ لَيقُولنَّ اللهُ )(١).

بيد أنّ هذا التفسير يبدو بعيداً .

---

١ ــ أقرّ الزمخشري هذا التفسير في الكشّاف وقد احتمله الفخر الرازي وجمع آخر من المفسّرين .



والأضعف من هذا الإحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون انّ معنى الآية هو : « انّهم لا يقين لهم بما يقولون وهو انّ الله خالق السموات والأرض » أي اليقين الذي يدعوهم إلى العبودية والإطاعة .

ويتّضح خطأ هذا التفسير من انّ الآيات هذه لم تطرح قضيّة خلق الله للسماوات والأرض ، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إليها ؟(١).

وأخيراً تقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للإستدلال :

( أَمْ لَهُم إلهٌ غَيرُ الله ، سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْركونَ ) .

انّه في الحقيقة إستدلال على توحيد المعبود ، أي عندما يكون هو الخالق للعالم فانّ العبادة يجب أن تقتصر عليه أيضاً لا على غيره ، كالأصنام والشمس والقمر والنجوم وغيرها .

وكما أسلفنا فانّ هناك سبعة أسئلة اُخرى إضافة إلى هذه الأسئلة الثلاثة الواردة على صورة الإستفهام الإنكاري في آيات ثلاث ترتبط بقضيّة النبوّة واُمور اُخرى لا حاجة لذكرها في هذا البحث التوحيدي(٢).

* * *

إيضاحات

برهان العلّة والمعلول في الفلسفة والكلام

يعدّ هذا البرهان من أقدم وأشهر الإستدلالات على إثبات وجود الله ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم ارسطو الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وحتّى يومنا حيث كانوا يستندون إليه ، وكما أشرنا من قبل فانّ أغلب الأدلّة على

---

١ ــ جاءت عبارة ( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَموات والأرمضَ ليقولنَّ اللهُ ) في سورة العنكبوت : ٦١ ، سورة الزمر : ٣٨ ، سورة الزخرف : ٩ و٨٧ ، سورة لقمان : ٢٥ .

٢ ــ للمزيد من الإيضاح راجع التفسير الأمثل ( تفسير نمونه ) : ٢٢ ــ ٤٥٢ .



التوحيد لا تتمّ حتّى تستند إلى برهان العليّة .

ولكي تتوضّح قواعد هذا الإستدلال ، ينبغي ملاحظة عدّة اُمور :

١ ــ تعريف أصل العلّية

( العلّية ) هي العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبعاً للآخر ، ومن يرى انّ علاقة العلّية عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فانّ هذا التعريف يكون ناقصاً ، فصحيح انّ المعلول يحدث بعد علّته ولكن ذلك لا يكفي لتوضيح مفهوم العلّية ، بل لابدّ أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثاني إلى الوجود الأوّل .

٢ ــ شمولية قانون العلّية وسعة تطبيقاتها

طبقاً لما يقوله بعض المحقّقين ، كان قانون العلّة والمعلول أوّل قضيّة شغلت الفكر البشري من بين القضايا الفلسفية سبقاً وقدماً ودفعت البشر للتفكير من أجل إكتشاف ألغاز الوجود ، وأهمّ دافع للتفكير لدى الإنسان الذي يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون ( العلّة والمعلول العامّ ) الذي يثبت نأّ لكلّ حادثة علّة وهو السبب في تبادر مفهوم ( لماذا ) في الذهن البشري ، ولو لم يتعرّف الذهن البشري على مفهوم العلّة والمعلول العامّ ولم يذعن لقانون العلّية لم يكن ليخطر في ذهنه مفهوم ( لماذا ) ؟(١).

هذه الــ ( لماذا ) هي الأساس لكلّ العلوم والأفكار البشرية والتي دفعت الإنسان للبحث عن الجذور والنتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة .

وبعبارة أُخرى ، انّ جميع العلوم البشرية إنعكاس لقانون العلّية ، ولو سُلب هذا القانون من البشر فانّ هذه العلوم سوف تفقد محتوياتها كلّها .

---

١ ــ أُصول الفلسفة : ٣ ــ ١٧٥ ( اقتباس واختصار ) .



وكذلك لو فقدنا قانون ( العلّية ) فانّ ( الفلسفة ) أيضاً سوف تتزعزع بكلّ فروعها ، وعليه فانّ العلوم والأفكار والفلسفة مبنيّة على هذا القانون .

٣ ــ جذور معرفة قانون العلّية

كيف توصّل الإنسان إلى قانون العلّية ؟

للإجابة عن هذا السؤال لابدّ أن نرجع إلى الوراء لنستقريءَ حياتنا في الصغر ، عندما ينضج لدينا العقل وتكتمل قابلية التمييز فينا ، فالطفل يمدّ يده إلى النار فيحسّ بألم الإحتراق ، وعندما يعيد هذا العمل ويحدث فيه الإحساس نفسه يتيقّن شيئاً فشيئاً بوجود علاقة بين أمرين ( مسّ النار والشعور بألم الإحتراق ) .

وهكذا حينما يعطش ويشرب الماء فانّه يشعر بالراحة وزوال العطش ويتكرّر هذا العمل حتّى يتيقّن بوجود علاقة بينهما ، وعندما تتكرّر هذه التجارب في مجالات كثيرة وموضوعات مختلفة يتيقّن بأنّ لكلّ حادثة علّة وبهذا يكتشف قانون العلّية بشكله الساذج البسيط ، وبإمتداد عمره وبالتجارب التي يمرّ بها سواء على صعيد الحياة الإعتيادية أو على صعيد العلوم والأفكار ــ سيدرك سعة هذا القانون وقوّته أكثر فأكثر ( كما يصل إلى هذا المبدأ وهو أنّ لكلّ حادثة علّة عن طريق الفلسفة ) .

نحن لا نقول بأنّ تعاقب حادثين يعني العلّية بل نقول انّ القضيّة لابدّ من تكرارها حتّى يتّضح وجود علاقة بينهما ، وأنّ الثاني تابع للأوّل .

والظاهر أنّ القائلين أنّ قانون العلّية تجريبي لا يقولون غير هذا ، وهو أنّ الإنسان يتوصّل إلى الجذور والأُصول عن طريق التجربة والحسّ ومن ثمّ يكتشف علاقة العلّية من خلال ( التحليل العقلي ) ، وهو في الحقيقة يرتّب مقدّمة من ( الحسّ ) وأُخرى من ( العقل ) وذلك لأنّ القوانين

الكلّية توجد في العقل بصورة بديهية ، ودور الحسّ هو إدراك الموضوعات المتناثرة ثمّ يقوم العقل بجمعها فيتوصّل إلى النتائج .

[٦٣]

ويتصوّر البعض أنّ مبدأ العلّية ــ وهو علم حصولي ــ يستحصل من العلم الحضوري ( النفس ) بالنسبة إلى ( أفعال النفس ) .

وفي إيضاح ذلك يقولون أنّ الروح الإنسانية تحسّ بأُمور في أعماقها تابعة لها وقائمة بها كالتصوّر والأفكار والإرادات والقرارات .. هذه كلّها أفعال الروح الإنسانية ومعلولة لها ، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن نكتشف قانون العلّية ، ثمّ يستندون في ذلك إلى قول لإبن سينا حيث يقول : « فانّا ما لم نثبت وجود الأسباب لمسبّبات من الاُمور بإثبات انّ لوجودها تعلّقاً بما يتقدّمها في الوجود ، لم يلزم عند العقل وجود السبب المطلق ، وأنّ ههنا سبباً ما ، وأمّا الحسّ فلا يؤدّي إلاّ إلى الموافاة وليس إذا توافى شيئان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر ...(١).

ولا شكّ في أنّ هذا خطأ كبير ومن المستبعد أن يقصد ابن سينا هذا المعنى لأنّ هذه التحليلات بشأن الروح وأفعالها هي من إختصاص الفلاسفة لا عموم الناس ، في حين أنّ عامّة الناس يعرفون قانون العلّية حتّى الأطفال منهم ، ولا شكّ في أنّ ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسّية كما أسلفنا ، غير انّ العقل ما لم يحلّل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عامّاً ، فنحن لا ندرك ( قانون العلّية ) ، وعليه فانّ الأساس في معرفة هذا القانون هو التجربة إضافة إلى العقل ، ولعلّ ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره ، بيد انّا لا ننكر انّ الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلّية من خلال الأفعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحسّ .

كما انّ ثمّة طريق إستدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر ، وهو أنّنا لو أنكرنا قانون العلّية وجب أن لا يكون شيء شرطاً لشيء ، وسوف ينشأ كلّ شيء من أي شيء ، بل يجب رفض مناهج الإستدلالات العقلية أيضاً . وللوصول إلى

---

١ ــ الشفاء : الفصل الأوّل ، مقالة الإلهيات الأُولى : ص٨ .

[٦٤]

نتيجة منطقية ــ مثلا ــ يجب أن لا نستفيد من أدلّة خاصّة ، بل انّنا نصل من كلّ مقدّمة إلى أيّة نتيجة نتوخّاها ، وهذا ما لا يتقبّله أي عاقل قطعاً .

ينبغي إذن أن نذعن بعلاقة العلّية في الخارج وفي الاُمور العقلية .

٤ ــ أقسام العلّة

العلّة لها مفهوم واسع وأقاسم عديدة :

العلّة التامّة وتعني انّ الشيء إذا وجد فانّ معلوله سوف يوجد مباشرة .

والعلّة الناقصة وتعني انّ الشيء يحتاج ــ في وصوله إلى المعلول ــ إنضمام اُمور اُخرى ، كما تقسّم العلّة إلى ( العلّة الفاعلية ) و ( الغائية ) و ( المادّية ) و ( الصورية ) وهذه تقسيمات مشهورة يمكن إيضاحها بمثال بسيط :

لو لاحظنا ملابسنا التي نرتديها لوجدناها لكي توجد يجب توفّر المادّة ( كالقطن والصوف ) ثمّ تحويلها إلى قماش مناسب ثمّ تباشرها يد الخيّاط لخياطته ، ومن الأكيد انّ الخيّاط يصنع اللباس لهدف خاصّ وهو الإنتفاع منه .

تعتبر المادّة الأصلية هي ( العلّة المادّية ) والصورة التي اُعطيت لها هي ( العلّة الصورية ) والذي جعلها على صورة اللباس هو ( العلّة الفاعلية ) والدافع لهذا الشيء هو ( العلّة الغائية ) .

ومن المعلوم انّنا إستندنا في برهان ( العلّة والمعلول ) الذي نتابعه على العلّة الفاعلية وخاصّة العلّة التامّة .

* * *

إيضاح برهان العلّية

بعد اتّضاح هذه المقدّمات نرجع إلى أصل برهان العلّية .

انّ برهان العلّة والمعلول في الحقيقة مبني على أساسين هما :

١ ــ انّ العالم الذي نعيش فيه ( حادث ) و ( ممكن الوجود ) .

٢ ــ كلّ موجود حادث وممكن الوجود يجب أن ينتهي إلى واجب الوجود ، وبعبارة اُخرى يجب أن تنتهي الوجودات الإرتباطية إلى الوجود المستقل .

وقد أسلفنا بما فيه الكفاية عن المقدّمة الاُولى وهي حدوث العالم ، يبقى أن نثبت الآن المقدّمة الثانية :

إنّها قضيّة واضحة وحتّى المادّيون والمنكرون لوجود الله يقرّون بها ، بيد أنّهم يقولون : انّ ( المادّة ) لها وجود أزلي وأبدي ومستقلّ بالذات ، لكن هذا الكلام باطل إستناداً إلى الأدلّة التي تثبت إستحالة أزلية المادّة وأبديتها وقد أشرنا إلى ذلك .

ولتوضيح هذه المقدّمة من الأفضل أن نقول : مع الإقرار بأنّ العالم حادث فانّ خمسة طرق نواجهها ولا سادس لها :

فأمّا أن يوجد العالم بدون علّة ، أو أن يكون هو علّة لوجوده ، أو أن يكون معلوله علّة له ، أو أن يكون العالم معلولا لعلّة وهي معلولة لعلّة اُخرى وهكذا إلى ما لا نهاية .

أو أن نقرّ بأنّ كلّ هذه الموجودات الحادثة مستندة إلى موجود أزلي أبدي فوق المادّة ، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهي أخيراً بـــ ( واجب الوجود ) .

الفرضية الاُولى وهي حدوث العالم بدون علّة وتسمّى بفرضية (الصدفة) باطلة ، لأنّ الحادث إن لم يحتجّ إلى علّة فانّ كلّ موجود يجب أن يوجد في كلّ زمان وأي ظرف . في حين نرى بوضوح أنّ الأمر ليس كذلك ، حيث يحتاج كلّ حادث لحدوثه إلى توفّر الشرائط والظروف الخاصّة .

وهكذا بطلان الفرضية الثانية ( أن يكون الشيء نفسه علّة لوجوده ) هو أمر بديهي لأنّ العلّة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان الشيء علّة لنفسه فلابدّ أن يكون موجوداً قبل وجوده ممّا يستلزم إجتماع ( الوجود ) و ( العدم ) وهو ما



يطلق عليه بالمصطلح العلمي ( الدور ) .

وهكذا بطلان الفرضية الثالثة حيث يكون معلول الشيء علّة لوجوده ، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح .

وأمّا بطلان الفرضية الرابعة التي تعني إستمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية فانّه بحاجة إلى إيضاح :

( التسلسل ) يعني إستمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية وهذا باطل عقلا لأنّ كلّ معلول يحتاج إلى علّة ، ولو إستمرّت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية ولم تنته بواجب الوجود فانّه يعني انّ مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة ، في حين أنّ ما لا نهاية من الفقراء والمحتاجين محتاجون حتماً .

فلو تراكمت ما لا نهاية من الظلمات لا تتحوّل إلى ( نور ) ، وما لا نهاية من ( الجهل ) لا يكون ( علماً ) ، وما لا نهاية من ( الأصفار ) لا يكون ( رقماً ) .

لابدّ إذن من إنتهاء سلسلة العلل والمعلولات إلى موجود يحتاج شيئاً آخر .. وجود مستقلّ وغني ، وجوده من ذاته ، وبعبارة أصحّ أن يكون عين الوجود والوجود المطلق .

وممّا ذكر نستنتج انّ وجود الممكنات والحوادث في العالم لابدّ أن ينتهي بوجود واجب أزلي نسمّيه ( الله ) سبحانه وتعالى .





برهان الصدّيقين





تمهيد :

برهان الصدّيقين من أدلّة إثبات وجود الله بإستلهام من القرآن الكريم والروايات ، والذي اهتمّ به العلماء والفلاسفة الإسلاميون ، وكما يبدو من إسمه أنّه ليس هو دليلا عامّاً بل يختصّ

بالذين يحظون بمعلومات وفهم أوسع في العقيدة والفلسفة ، ولهم قسط وافر من الذوق ودقّة الملاحظة .

دليل يتّصف بالتعقيد قليلا بيد انّه لطيف وجميل ومربٍّ للروح .

ومحور هذا الدليل إنّنا بدلا من دراسة المخلوقات من أجل معرفة الله ، نتوجّه للتدبّر في ذاته المقدّسة للوصول إلى ذاته ، وكما يقتضيه الدعاء ( يامن دلّ على ذاته بذاته ) نتّخذ منه تعالى طريقاً للوصول إليه ، وكلّ ما في هذا البرهان من تعقيد وظرافة ناشي عن كيفية إمكان اتّحاد الدليل والإدّعاء .

القضية هي أنّ في هذا العالم وجوداً فنبادر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق نصل إلى أنّ أصل الوجود يجب أن يكون واجباً .

هذه إشارة سريعة ونقرّ بعدم كفايتها ونوكل التفصيل بشأنها إلى المستقبل ونعود الآن إلى القرآن ونصغي خاشعين إلى الآيات التالية :

١ ــ ( أَو لَمْ يَكف بِربِّكَ انَّهُ عَلى كُلِّ شَيء شَهيدٌ ) سورة فصّلت ــ ٥٣ .

٢ ــ ( شَهِدَ اللهُ انَّهُ لا إِلهَ إلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقسْطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ) سورة آل عمران ــ ١٨ .

٣ ــ ( واللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحيْطٌ ) سورة البروج ــ ٢٠ .

٥ ــ ( هُوَ الأوّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطنُ وَهُوَ بكُلّ شَيء عَليمٌ ) سورة الحديد ــ ٣ .



٦ ــ ( اللهُ نُورُ السَّمواتِ والأَرْضِ )(١) سورة النور ــ ٣٥ .

شرح المفردات :

( شهيد ) مشتق من ( شهود ) وهو في الأصل ــ كما يقول الراغب في المفردات ــ بمعنى ( الحضور المقرون بالمشاهدة ) سواء كان ذلك بالعين الباصرة أو بعين القلب ، وقد يعني ( الحضور ) مجرّداً عن مفهوم المشاهدة بيد أنّ استعمال ( شهود ) بمعنى الحضور ، و ( الشهادة ) بمعنى الحضور المقرون بالمشاهدة أولى .

وقد وردت في ( مقاييس اللغة ) ثلاثة أُصول في معنى ( الشهادة ) هي : الحضور والعلم والإعلام للآخرين ، وإطلاق ( شهيد ) على من يقتل في طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه ، أو بسبب حضوره في ساحة الجهاد ، أو بسبب مشاهدة النعم العظيمة التي أعدّها الله له ، أو بسبب حضوره بين يدي الله .

وقد جاء في كتاب العين أنّ ( الشّهْد ) يعني ( العسل ) قبل إستخراجه من الشمع وهو المعنى الذي اتّخذه صاحب الكتاب الأصل الأوّل لهذه المادّة ، فهل يرى ذلك هو الأصل اللغوي ؟ وفي هذه الحالة ما هو وجه العلاقة بما نحن فيه ؟ انّه لم يذكر توضيحاً لذلك(٢).

( محيط ) ومصدرها ( الإحاطة ) وتعني الضمّ ويستفاد من بعض الكتب اللغوية بأنّ الإحاطة على نوعين :

إحداهما تكون في الأجسام ولذا يطلق على البناء المحيط بمكان (حائط)

---

١ ــ هناك آيات قرآنية أُخرى تحمل نفس هذا المضمون من جملتها سورة الحجّ : الآية ١٧ وسورة سبأ : الآية ٤٧ وسورة المجادلة : الآية ٦ وسورة البروج : الآية ٩ وسورة النساء : الآية ٣٣ وسورة الأحزاب : الآية ٥٥ .

٢ ــ المفردات ، لسان العرب ، مقاييس اللغة ، كتاب العين .



وثانيهما ( الإحاطة المعنوية ) وتعني الحفظ والحراسة أو العلم والإطّلاع على شيء ما .

وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الإمتناع من شيء ، وكأنّ الإنسان محاط من كلّ جهة لئلاّ يصل إلى ذلك الشيء ، وكلمة ( الإحتياط ) تستعمل في المجالات التي يحاول الإنسان فيها أن يعمل عملا يصونه من الخطأ والإشتباه والمعصية والمخالفة .

وقد ورد في ( مقاييس اللغة ) انّ الأصل في هذه المفردة هو من مادّة ( حوْط ) ويعني دوران شيء حول شيء آخر .

كما انّ كلمة ( محيط ) يمكن أن تكون بمعنى الإحاطة الوجودية أو إحاطة القدرة والعلم(١).

( نور ) يعني الأشعّة المنتشرة التي تعين العين على النظر وهو على نوعين :

مادّي وهو النور الذي تبصره العيون المجرّدة ، ومعنوي وهو النور الذي تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن ، وقد جاء إطلاق ( نائرة ) على الفتنة وذلك لإنتشارها واتّساعها .

والأقرب أنّ هذه المفردة تعني في أصلها الضياء المحسوس ، ثمّ إستعملت في الاُمور المعنوية كالإيمان والعلم والعقل والقرآن حتّى ذات الله المقدّسة .

( نار ) هي من هذا الأصل أيضاً ويقترنان في كثير من الموارد .

وكلمة ( منارة ) تعني الموضع المتّخذ لإشعال الشموع ، أو لأجل نشر نور المعنويات الذي يبثّه ( الأذان ) إلى مختلف الجهات .

( نَوْر ) ويطلق على براعم الأشجار وخاصّة البيض منها لما فيها من نور خاصّ منذ ظهورها .

---

١ ــ التحقيق في كلمات القرآن ، المفردات ، مقاييس اللغة ، ولسان العرب .



جمع الآيات وتفسيرها :

القرآن وبرهان الصدّيقين(١).

تقول آية البحث الاُولى بعد الإشارة إلى الآيات التي تري الناس آيات الله في الآفاق وفي الأنفُس والتي هي آيات دالّة على حقّانية وجود الله :

( أَوَ لمْ يَكفِ بِرَبِّكَ انَّهُ عليى كُلِّ شَيء شَهيدٌ ) .

يمكن أن تكون كلمة ( شهيد ) هنا بمعنى الشاهد أوالحاضر والمراقب ، أو تعني كلا المعنيين وذلك لصدقهما في الله سبحانه ، والآية المذكورة أعلاه مطلقة من هذه الجهة .

وإستناداً إلى هذا التفسير يكفي لإثبات ذاته المقدّسة أن يكون شاهداً وحاضراً في كلّ مكان ، فكلّ موجود ممكن نجد إلى جانبه ذات واجب الوجود ، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً ، وكلّ ما وقع عليه نظرنا وجدنا وجهه فيه ، ونحسّ بخضوع العظماء لعظمته ، وهو مصداق حديث أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) : ( ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه )(٢).

وفي تفسير الميزان أنّ ( شهيد ) تعني ( مشهود ) وبذلك يكون معنى الآية :

« أو لم يكف في تبيّن الحقّ كون ربّك مشهوداً على كلّ شيء إذ ما من شيء إلاّ وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلّق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكلّ شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء »(٣).

ونتيجة هذا التفسير هو إثبات وجود الله من الآية أعلاه أيضاً ، ولكن عن طريق برهان الغنى والفقر .

---

١ ــ قال البعض : إنّ تسمية هذا البرهان بــ ( برهان الصدّيقين ) لأنّ صدّيق هو صيغة مبالغة ويعني كثير الصدق . صحيح انّ الأدلّة الأُخرى التي أوردناها لإثبات وجود الله صادقة بيد انّ هذا البرهان أشدّ صدقاً نظراً إلى أنّا نصل في البرهان من ذات الله سبحانه وتعالى إلى الله ولا نسمح لغيره في هذا الطريق .

٢ ــ يعتقد الكثير من المفسّرين بأنّ الباء في ( بربّك ) زائدة وتفيد التأكيد ، وقد حلّت ( ربّك ) محلّ الفاعل ، وجملة ( على كلّ شيء شهيد ) هي بدل منه والجملة تعني ( أو لم يكفهم انّ ربّك على كلّ شيء شهيد ) .

٣ ــ تفسير الميزان : ج١٧ ، ص٤٠٥ .



يقول الفخر الرازي : « أو لم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقرّرها ، الدالّة على التوحيد والتنزيه ... »(١) ( وعلى هذا فالآية ناظرة إلى إثبات وجود الله عن طريق برهان النظم ) .

ويرى بعض المفسّرين انّ الآية ناظرة إلى قضيّة إثبات المعاد حيث يقولون :

« أو لم يكف بربّك أنّه شاهد على كلّ شيء . ممّا يفعله العبد وفي هذا كفاية لمحكمة يوم الجزاء »(٢).

ويعتقد البعض الآخر انّ الآية ناظرة إلى حقّانية القرآن الكريم ، نبوّة الرسل ويقولون : « أو لم يكف ربّك شاهداً انّ القرآن من عند الله »(٣).

ويبدو أنّ التفاسير الثلاثة الأُوى من بين التفاسير الخمسة هذه والتي ترى انّ الآية ناظرة إلى قضيّة التوحيد وإثبات وجود الله هي أكثر صحّة ، ويبدو التفسير الأوّل منها أكثر إنسجاماً مع معاني الألفاظ الواردة في الآية ، وبذلك يكون شاهداً على ( برهان الصدّيقين ) .

وننهي هذا الكلام بحديث معتبر للإمام الصادق ( (عليه السلام) ) .

عن منصور بن حازم قال : قلت لأبي عبدالله ( (عليه السلام) ) : إنّي ناظرت قوماً فقلت لهم : إنّ الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يُعرفون بالله ، فقال : رحمك الله(٤).

ومن الطبيعي انّ هذا الكلام لا يتنافى أبداً مع إستخدام برهان النظم وأدلّة التوحيد وعظمة الله في موجودات العالم ، في الحقيقة فانّ برهان النظم في مستوى وهذا البرهان ( برهان الصدّيقين ) هو في مستوى أعلى
وأرفع .

---

١ ــ تفسير الفخر الرازي : ج٢٧ ، ص١٤٠ .
٢ ــ تفسر القرطبي : ج٨ ، ص٥٨١٩ .
٣ ــ راجع مجمع البيان : ج٩ ، ص٢٠ .
٤ ــ اُصول الكافي : ج١ ، ص٨٦ ( باب انّه لا يعرف إلاّ به ) الحديث ٣ .



بزوغ الشمس دليل عليها :

في الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة الله سبحانه على وحدانيته ثمّ شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول : ( شهد الله انّه لا إله إلاّ هو والملاكة واُولوا العلم ) وتضيف : انّ ذلك يكون مع قيام الله سبحانه بالعدل وإدارة العالم على محور العدل ( قائماً بالقسط ) .

وبما أنّ القيام بالقسط والعدل يحتاج إلى أصلين هما : القدرة والعلم لكي تتحدّد موازين العدل بالعلم أوّلا وتطبّق بالقدرة ثانياً ، أضافت الآية في ذيلها ( لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ).

والمراد من شهادة الملائكة واُولو العلم واضح ، ولكن ما هو المراد من شهادة الله ؟ هناك خلاف بين المفسّرين ، حيث إعتقد البعض انّ المراد هو الشهادة ( الفعلية ) و ( القولية ) أي أنّه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته في عالم الوجود وفي الآفاق وفي الأنفس من جهة ، وبإنزال آيات التوحيد في الكتب السماوية من جهة اُخرى .

في حين ذكر البعض الآخر الشهادة القولية وحدها ، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية ، بيد انّ مفهوم الآية يتضمّن ــ بالتأكيد ــ شهادة أعلى وأرفع من هذه ، بل هي أهمّ مصداق للشهادة

وهي انّ ذاته شاهدة على ذاته كمصداق لما ورد : ( يامن دلّ على ذاته بذاته ) انّه سبحانه أفضل دليل على وجوده وهو الهدف الذي يقصده برهان الصدّيقين .

ولا مانع من إجتماع المعاني الثلاثة ( الشهادة الذاتية والفعلية والقولية ) في مفهوم الآية .

وقد استنتج البعض من عبارة ( قائماً بالقسط ) بأنّ آيات العدل والنظم والتقدير في عالم المخلوقات هي مصداق بيّن لشهادته سبحانه وتعالى على وحدانيته ، وهو إستدلال جيّد ( ولا ضير في إنفصال الملائكة عن ( أُولو العلم )



كما يشير إليه تفسير الميزان بهذا المعنى ) ، كما لا يمنع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلنا .

وكما أُشير من قبل فانّ القائم بالعدل يحتاج إلى العلم والقدرة ، وهاتان الصفتان موجودتان في ذاته المقدّسة واتّصاف الباري بـــ ( العزيز الحكيم ) في ذيل الآية إشارة إلى هذا المعنى الدقيق .

* * *

إحاطة الوجود الإلهي :

الآية الثالثة ــ بعد الإشارة إلى الجيوش الجرّارة التي واجهت أنبياء الله وحاربتهم وذكر نموذجين متميّزين أحدهما في العصور القديمة وهم ( قوم ثمود ) وثانيهما في العصور المتأخّرة وهم ( قوم فرعون ) : ( بل الذين كفروا في تكذيب ) .

التعبير بـــ ( في ) ــ ويستعمل عادةً لبيان الظرف والمظروف ــ تعبير جميل وفيه إشارة إلى انّ الكفّار غارقون في تكذيب الحقائق . والمراد من الكفّار هم الكفّار المعاندون في عصر النبي الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) الذين كانوا ينكرون وحدانية الله سبحانه ونبوّة رسول الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) والمعاد كذلك ، ولا يستبعد أن تشمل الآية هؤلاء جميعاً ، لأنّ قوم فرعون وثمود الذين ذُكروا من قبل كانوا كذلك ، كما أنّ إستعمال ( تكذيب ) على صورة نكرة والذي يدلّ في مثل هذه الحوادث على الأهميّة والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى .

ثمّ تقول الآية ( والله من ورائهم محيط ) .

التعبير بـــ ( ورائهم ) إشارة إلى أنّهم محاطون من كلّ جهة ، والله محيط من كلّ جهة وجانب ، وقد وقع كلام بين المفسّرين بشأن المراد من ( الإحاطة الإلهية ) حيث إحتمل البعض انّها إحاطة الله العلمية على أعمالهم ، وإعتقد البعض الآخر



انّها إحاطة القدرة حيث الجميع في قبضته ، وليس لهم القدرة على الفرار من عقابه ، وذهب البعض الآخر إلى انّها الإحاطة العلمية ، وإحاطة القدرة معاً .

بيد أنّ مفهوم الآية أوسع ممّا ذكر حيث يشمل إحاطته الوجودية أيضاً ، نعم ، لله تعالى إحاطة وجودية لجميع الممكنات والكائنات ، وليست هذه الإحاطة ــ طبعاً ــ من قبيل إحاطة الظرف بالمظروف ( كإحاطة الحائط للبيت ) وليست من قبيل إحاطة الكلّ بالجزء ، بل هي ( الإحاطة القيومية ) ، أي أنّه سبحانه وجود مستقلّ وقائم بالذات والموجودات الاُخرى قائمة به وتابعة له .

وهذا المعنى يفتح الطريق أمام برهان الصدّيقين في مسألة إثبات وجود الله ، وسنقدّم شرحاً لذلك في المستقبل .

أنت الأوّل والآخر

تقول الآية الرابعة ــ وهي من الآيات الاُولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات الله سبحانه بشكل عميق وواسع ــ : ( هَو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهُوَ بكلِّ شَيء عَليمٌ ) .

انّ هذه الصفات الخمس التي إجتمعت في الآية بيان جلي لذاته المقدّسة اللامتناهية .

هو ( الأوّل ) أي هو الأزلي دون أن تكون له بداية ، وهو ( الآخر ) أي الأبدي الذي لا نهاية له ، وهو ( الظاهر ) أي البيّن دون أن يكون خافياً على أحد ، وهو ( الباطن ) أي أنّ ذاته ليست ظاهرة لأحد ( لعدم قدرة الموجودات المحدودة كالإنسان على إدراك الحقيقة اللامتناهية ) دون أن يكون محجوباً عن عباده .

ولذا فانّه سبحانه عالم بكلّ شيء لأنّه موجود في البداية ، وسوف يبقى حتّى النهاية وحاضر في ظاهر العالم وباطنه .

وهناك تفسيرات متعدّدة ذكرها المفسّرون في تفسير الصفات الأربع :

[٧٨]

( الأوّل ) و ( الآخر ) و ( الظاهر ) و ( الباطن ) إلاّ أنّها غير متنافية ويمكن جمعها في مفهوم الآية .

فتارةً قالوا : انّه الأوّل قبل وجود أي شيء وهو الآخر بعد هلاك كلّ شيء ، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته .

وتارةً قالوا : هو الأوّل ببرِّه حيث هدانا ، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبة ، والظاهر بإحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن في ستر عيوب العباد عند المعصية ( الأوّل ببرّه إذ هداك والآخر بعفوه إذْ قبل توبتك ، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته ، والباطن بستره إذا عصيته )(١) وقد ورد أنّ النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) كان يقول في دعائه : ( اللهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء )(٢).

على أيِّ حال فانّ الآية أعلاه إضافةً إلى إثباتها ــ خلافاً لما تعتقده الصوفية ــ إستقلالية الخالق عن المخلوق ، والمخلوق عن الخال تبيّن هذه الحقيقة وهي أنّ ذاته المقدّسة غير متناهية ومطلقة ، أي هو وجود بلا عدم ، ولو أنّا تدبّرنا حقيقة الوجود جيّداً ونزّهناه من العدم فسوف نصل إلى ذاته المقدّسة ، وهذا جوهر برهان الصدّيقين وروحه .

ومن البديهي أنّ الموجود المحدود يكون موضعه إمّا في البداية أو النهاية ، وإمّا في ظاهر الأشياء أو باطنها ، واتّصاف الله سبحانه بأنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه .

هو نور العالم

في الآية الخامسة والأخيرة نقرأ في جملة قصيرة وغزيرة المعنى :

( الله نورُ السموات والأرض ) .

---

١ ــ مجمع البيان ، تفسير الميزان ، تفسير الفخر الرازي ، روح البيان .

٢ ــ تفسير القرطبي : ٩/٦٤٠٦ .

[٧٩]

ويعقّب هذه العبارة تشبيه جميل وجذّاب لهذا النور الإلهي يشكّل ميداناً واسعاً لبحوث المفسّرين الأعلام للقرآن ، وبما أنّ الشاهد في هذا البحث هو العبارة الأُولى ، فانّا نشرع بتبيانها وشرحها :

من الطرق الهامّة في تفهيم الحقائق المعقّدة هو إستعمال التشبيهات البليغة بغية تقريب الحقائق العلمية إلى الذهن بضرب الأمثلة الحسّية ، وهنا قد استفيد من هذه الطريقة ( وأن كانت الأمثلة بشأن الله تعالى ناقصة لعدم وجود مثيل لذاته ) ولإدراك حقيقة هذا المثال لابدّ من التدبّر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته ، ولا ريب في أنّ النور من أجمل الموجودات المادية وألطفها وأكثرها بركة ، وتنتشر منه البركات والجمال في عالم المادّة .

فنور الشمس منبع الحياة والسرّ في بقاء الموجودات الحيّة والعنصر الفاعل في نمو النبات والزهور وجميع الأحياء .

النور هو المصدر الأساس للطاقات ، نظير حركة الرياح ، وهطول الأمطار، والعنصر الأساس في وجود المحروقات ( البترول والفحم الحجري ) ولو تبدّل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقّف كلّ حركة في العالم .

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها ، هذا وانّ حركة الأمواج والذرّات الضوئية هي أسرع الحركات المتصوّرة في عالم المادّة ، حيث تبلغ سرعتها ( ٣٠٠ ألف كم ) في الثانية ، وهذا يعني أنّ النور يدور حول الأرض سبع مرّات كلمح البصر .

وأخيراً فانّ نور الشمس أفضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارّة وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية ، وبملاحظة هذه الخصائص التي يتّصف بها النور المحسوس يتّضح عمق تشبيه ذات الله المقدّسة بالنور .

نعم ، إنّ وجوده تعالى هو النور الذي يظهر الوجودات ويحفظها ، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية ، يصدر كلّ جمال في العالم ، وكلّ حركة نحو الكمال

[٨٠]

تنبع من وجوده المقدّس ، وكلّ هداية تتحقّق برعايته .

هو الذي يرفع الموانع عن طريق عباده . وهو القائد للإنسان في طريق الكمال والقرب لذاته ، وبكلمة واحدة كلّ ما في العالم قائم بذاته المقدّسة .

والآن يطرح هذا السؤال نفسه : هل النور الذي يُظهر الأشياء يحتاج إلى مظهر ؟ وهل الموجودات التي يُظهرها النور تكون أكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفة له ؟

وبكلمة واحدة : ما هي الوسيلة التي يمكن مشاهدة النور بها غير النور نفسه ؟ وهذا هو الأساس في برهان الصدّيقين .

وقد ذكر المفسّرون عدّة إحتمالات في تفسير هذه الآية لا تتنافى فيما بينها نظير الموارد الكثيرة الأُخرى ويمكن الجمع بينها ، أي انّ كلّ مفسّر منهم لاحظ ــ في الحقيقة ــ الآية من زاوية معيّنة .

وقد قال الكثير بأنّ جملة ( اللهُ نورُ السموات والأرض ) تعني ( المنوّر للسموات والأرض ) .

وقد فسّرها البعض الآخر بـــ ( الهادي لمن في السموات والأرض ) تبعاً للرواية التي وردت عن الإمام الرضا ( (عليه السلام) ) في هذا الشأن حيث قال :

( هاد لأهل الأرض ) أو ( هاد لأهل السموات وهاد لأهل الأرض )(١).

وفسّرها البعض الآخر بمعنى الطاهر المنزَّه من كلّ عيب في جميع السماوات والأرض .

وفُسّرت البعض بمعنى التدبير لشؤون السماوات والأرض .

وفُسّرت بمعنى الإضاءة بواسطة الشمس والقمر والنجوم ، وبواسطة الأنبياء والملائكة والعلماء والمفكّرين .

وفُسّرت بمعنى المنظّم للعالم العلوي والسفلي .

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٣ ص١٣٣ ، الحديث ١ و٢ ، ونور الثقلين : ج٣ ، ص٦٠٣ .



وفُسّرت البعض بمعنى المفيض بالجمال على الكونين .

وفُسّرت بمعنى خالق السموات والأرض .

وكما أسلفنا فأنّ هذه المعاني موجودة في آية ( اللهُ نورُ السموات والأرض ) ، بل انّ الآية تنطق بما هو أعلى وأوسع ، حيث أنّ النور نيّر ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا يحتاج إلى مظهر آخر ، لأنّ الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء :

« كفى بك جهلا بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث في الوديان بنور الشمع ، واعلم بأنّ الكون طرّاً من شعاع الحقّ » .

* * *

إيضاحات

١ ــ برهان الصدّيقين في الروايات الإسلامية والأدعية :

هناك طريق آخر لمعرفة ذات الله المقدّسة أقصر وأدقّ من البحث في موجودات العالم ، وهو معرفة الذات المقدّسة بذاتها ، أي الوصول منه إليه ، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع في الروايات الإسلامية وأدعية المعصومين ويشكّل هذا المضمون جوهر برهان الصدّيقين .

ولا ندّعي انّ التعرّف على ذاته عن طريق الموجودات في العالم غير ممكن ، كما لا ندّعي بأنّ الآيات التي ( في الآفاق والأنفس ) ليست علائم على علمه وقدرته وعظمته فانّ هذا المعنى جلي في القرآن كلّه ، ولكن نقول انّ ثمّة طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث في أصل الوجود والوصول إليه عن طريق ذاته المقدّسة ، وهذا الطريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين غالباً ، فمثلا :

١ ــ نقرأ في دعاء الصباح الشهير ( يامن دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته ) .



٢ ــ ونقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي المعروف ( بك عرفتك وأنت دللتني عليك ) .

٣ ــ وقد ورد في دعاء عرفة أيضاً ( كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك ) ؟!.

٤ ــ وورد في الدعاء نفسه ( متى غبت ــ حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ، ومتى بعدت ــ حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً).

٥ ــ وقد ورد في حديث انّ أحد أصحاب الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) وإسمه منصور بن حازم قال له : انّي دخلت في مناظرة ــ مع جماعة وقلت لهم : ( انّ الله أجل وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله ) ، فقال له الإمام الصادق ((عليه السلام)) مصدّقاً إيّاه : ( رحمك الله )(١).

٦ ــ وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين قوله ( اعرفوا الله بالله ، والرسول بالرسالة ، وأُولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان )(٢).

٧ ــ وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) حينما سأله أحدهم : بم عرفت ربّك ؟ فأجاب ( بما عرّفني نفسه )(٣).

أجل ، انّه معرّف ذاته ( شروق الشمس دليل على الشمس ) وذاته المقدّسة دليل ذاته دون الحاجة إلى معرّف ، وخفاؤه على البعض بسبب شدّة ظهوره ، كالنور الذي لا يقدر الإنسان على النظر إليه لو تجاوز حدّه . وكما قيل :

نور وجهك الحاجب عن ظهورك .

* * *

---

١ ــ أُصول الكافي : ج١ ، ص٨٦ باب ( انّه لا يعرف إلاّ به ) الحديث ١ .
٢ ــ أُصول الكافي : ج١ ، ص٨٥ ، باب ( انّه لا يعرف إلاّ به ) الحديث ٢ .
٣ ــ المصدر نفسه : الحديث ٢ .



٢ ــ إيضاح برهان الصدّيقين

من المناسب أن نفصّل هذا البرهان كما يراه الفلاسفة الإسلاميون ، وبالرغم من تعقيد البحث فانّا سوف نبيّنه قدر الإمكان بتعبيرات واضحة دون إستعمال الإصطلاحات الفلسفية .

يجب قبل كلّ شيء أن يُنتبه إلى انّ مزايا برهان الصدّيقين تتمثّل في عدم التطرّق إلى الدور والتسلسل أو معرفة المؤثّر من خلال الأثر ، ومن المخلوق إلى الخالق ، ومن الممكن إلى الواجب في إثبات وجود الله ، بل هو تحليل للوجود نفسه وحقيقة الوجود ، وبذلك نصل إليه من ذاته ، وهذا هو المهمّ ( وان لوحظ وجود خلط في عبارات البعض بين هذا الإستدلال وإستدلال الوجوب والإمكان وبرهان العلّة والمعلول ــ كما بيّناه في السابق ــ ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر )(١).

وقد ذكرت تعاريف مختلفة لبرهان الصدّيقين ( أوّلا ترير صدر المتألّهين في الأسفار ، ثمّ المحقّق السبزواري في حاشية الأسفار ، ثمّ المرحوم العلاّمة الطباطبائي في نهاية الحكمة ثمّ الآخرون في كتب اُخرى ) والبيان الأوضح والأنسب دون لارجوع إلى إستعمال برهان الوجوب والإمكان ، والعلّة والمعلول ولا يستند إلى مسألة الدور والتسلسل أن يقال :

أنّ حقيقة الوجود هي ( العينية ) في الخارج ، وبتعبير آخر هي ( الواقعية ) وعدم قبول العدم ، لأنّ كلّ شيء لا يتقبّل ضدّه ، وبما انّ ( العدم ) ضدّ ( الوجود ) فحقيقة الوجود ــ إذن ــ ترفض العدم .

من هنا نستنتج انّ ( الوجود ) ذاتاً هو ( واجب الوجود ) أي أزلي أبدي ، وبتعبير أخر انّ التدبّر في حقيقة ( الوجود ) يرشدنا إلى انّ ( العدم ) لا ينفذ إليه أبداً ، وكلّ ما لا يطاله العدم فانّه واجب الوجود ( تأمّل جيّداً ) .

---

١ ــ راجع نهاية الحكمة : ص٢٦٨ وشرح مختصر المنظومة : ص٨ و٩ للشهيد المطهّري .



وامّا عبارة صدر المتألّهين ــ وهو من السابقين إلى هذا الإستدلال ــ فيقول : ( وأعلم انّ الطرق إلى الله كثيرة لأنّه ذو فضائل وجهات كثيرة ، « ولكلّ وجهة هو موليها » لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض ، وأشدّ البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة ، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل ( الصدّيقين ) الذين يستشهدون به ( تعالى ) عليه ، ثمّ يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله ، واحداً بعد واحد . وغير هؤلاء ( كالمتكلّمين ، والطبيعين وغيرهم ) يتوسّلون إلى معرفته ( تعالى ) وصفاته باسطة إعتبار أمر آخر غيره ( كالإمكان للمهيّة ، والحدوث للخلق ، والحركة

للجسم ، أو غير ذلك ) وهي أيضاً دلائل على ذاته ، وشواهد على صفاته ، لكن هذا المنهج أحكم وأشرف .

وقد أُشير في الكتاب الإلهي إلى تلك الطرق بقوله ( تعالى ) : ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ ) وإلى هذه الطريقة بقوله ( تعالى ) : ( أو لَم يكفِ بربّك انّه على كلِّ شيء شهيد ) .

ثمّ يضيف : وذلك لأنّ الربّانيين ينظرون إلى الوجود ، ويحقّقونه ويعلمون أنّه أصل كلّ شيء ، ثمّ يصلون بالنظر إليه إلى أنّه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود ، وأمّا الإمكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فإنّما تلحقه لا لأجل حقيقته بما هي حقيقته ، بل لأجل نقائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته(١).

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقي نجد أنّه لا يجتمع مع العدم أبداً، ولا يسمح للعدم أن يتطرّق إليه وذلك لأنّ الوجود والعدم متقابلان ، وهكذا إذا لاحظنا العدم فانّا نجده يطرد الوجود عن ذاته ، وعليه فانّ حقيقة الوجود واجبة الوجود والعدم ممتنع الوجود .

والإشكال المهمّ الذي يتبادر إلى الذهن والذي بادر صدر المتألّهين للإجابة

---

١ ــ الأسفار : ج٨ ص١٣ و١٤ ( بتلخيص يسير ) ، كما ورد نظير هذا المعنى في حاشية الأسفار للمحقّق السبزواري : ج٨ ص١٤ ( ط بيروت ) .



عنه في الأسفار هو أنّ كلّ موجود ــ وفق هذا الإستدلال ــ يجب أن يكون واجب الوجود ، لأنّ هذا الإستدلال يجري في كلّ مورد في حين نرى انّ الممكنات حادثة وليست أزلية ولا أبدية ولا واجبة الوجود .

الإجابة ، لابدّ من الإلتفات إلى هذه النقطة وهي انّ الوجودات الممكنة ليست وجودات أصيلة ، بل هي وجودات محدودة ومصحوبة بالعدم وهذا العدم ناشيء من محدوديتها ، وما يقال : انّ الوجودات الممكنة تتركّب من شيئين فانّه يعني انّ الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها ، وعليه فانّ الوجود الممكن ليس وجوداً أصيلا وحقيقيّاً ، لأنّ حقيقية الوجود هي عين الواقعية ولا سبيل لأي قيد أو شرط ونقصان إليها ، ولهذا يكون الوجود الأصيل واجب الوجود حتماً .

ونقرّ ــ طبعاً ــ بأنّ الوصول إلى حقيقة هذا الإستدلال ــ بالرغم من هذه الإيضاحات ــ يحتاج إلى رياضة فكرية ودقّة وتعمّق كبير ( تأمّل جيّداً ) .

* * *

[٨٦]

[٨٧]

الطريق الباطني لمعرفة الله

« الفطرة »

[٨٨]

[٨٩]

تمهيد :

( الإدراكات العقلية ) ــ كما نعلم ــ تشكّل جزءً من المضمون الروحي لدى الإنسان ، أي أنّ الإنسان لا يصل إلى كلّ شيء عن طريق الدليل العقلي ، بل إنّ المتطلّبات والمكتسبات الفطرية الغريزية تشكّل جزءً مهمّاً من المحتوى الروحي فيه ، حتّى انّ الأساس في الكثير من الأدلّة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية ، في حين تنشأ المتطلّبات والمكتسبات في الحيوانات عن طريق الغريزة فقط .

وعليه فانّ الذين قاموا بتحديد الإنسان بالبعد العقلي لم يعرفوا تمام الأبعاد الوجودية للإنسان في الحقيقة .

ومن المتّفق عليه أنّ طريق الباطن طريق مهمّ في مسألة ( معرفة الله ) التي لها طرق لا تحصى ، والإنسان هنا يسلك أقصر الطرق ، فبدلا من ( المعرفة ) يصل إلى ( الوجدان ) ، ومن ( التفكير ) إلى ( الرؤية ) ، بدلا من إعداد ( المقدّمات ) يصل إلى ذيّها .

انّه طريق عظيم ، مثير ومريح .

وقد إعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعابير جميلة .

بعد هذا التمهيد نصغي خاشعين إلى الآيات الآتية :

١ ــ ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكنَّ أكْثرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ ) سورة الروم ــ ٣٠ .

٢ ــ ( وَإذا مَسَّ النّاسَ ضرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إلَيه ثُمَّ إذا أَذاقَهُمْ منْهُ رَحْمَةً إذا فَريقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ) سورة الروم ــ ٣٣ .

٣ ــ ( فَإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعَوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إلى البَرِّ إذا هُمْ



يُشْرِكُونَ ) سورة العنكبوت ــ ٦٥ .

٤ ــ ( هُوَ الّذي يُسَيّرِكُمْ في البَرّ والبَحْرِ حَتّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريح طَيِّبَة وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمْ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مكان وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحيطَ بِهِمْ دَعَوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ لَئنْ أنجيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ * فَلمّا أَنْجاهُمْ إذا هُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقّ ) سورة يونس ــ ٢٢ و٢٣ .

٥ ــ ( وَلَئنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العَليمُ ) سورة الزخرف ــ ٩ .

٦ ــ ( وَلَئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيقُولُنَّ اللهُ فَأَنّى يُؤفَكُونَ ) سورة الزخرف : ــ ٨٧ .

٧ ــ ( وَلَئنْ سأَلْتَهمُ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمرَ لَيقُولُنَّ اللهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ ) سورة العنكبوت ــ ٦١ .

٨ ــ ( قُلْ مَنْ يرزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأرْضِ أَمَّن يَمْلُك السَّمعَ والأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ

الأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ) سورة يونس ــ ٣١ .

٩ ــ ( قُلْ لِمَنْ الأَرضُ وَمَنْ فيها إنْ كُنْتُم تَعلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ *
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمواتِ السَّبْعِ وَرَبّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ
للهِ قُلْ أَفَلا
تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيء وَهُوَ يُجيرُ وَلا يُجارُ
عَلَيْهِ إن
كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّهِ قُلْ فَأَنّى
تُسْحَرُونَ ) سورة المؤمنون ــ ٨٤ ــ ٨٩ .

١٠ ــ ( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَومَ القِيَامةِ إِنّا كُنّا عَنْ
هذا
غافِلِينَ ) سورة الأعراف ــ ١٧٢ .

شرح المفردات :

[٩١]

( فطرة ) من ( فَطْر ) وتعني ــ كما أسلفنا ــ الشقّ طولا ثمّ أطلق على كلّ شيء ، والشقّ ربّما يكون للهدم وربّما للإصلاح ولذا يستعمل للمعنيين .

وبما أنّ ( الخلق ) بمثابة شقّ ستار العدم المظلم ، يكون أحد المعاني المهمّة لهذه المفردة هو الإيجاد والخلق ولنفس السبب يعطي معنى الإبداع والإختراع أيضاً .

كما يطلق لفظ ( الأفطار ) على هدم الصيام لهذا الأمر حيث ينشقّ الصيام ( وهو فعل متصل ومستمرّ ) بالأكل ونظائره .

كما يستعمل هذا اللفظ في نمو النباتات أيضاً وذلك لإنشقاق الأرض وخروج النباتات منها ، كما يطلق على عملية إستخراج اللبن من الضرع باصبعين ، فكأنّه ينشقّ ويخرج منه اللبن .

نقل عن ابن عبّاس قوله : لم أعرف معنى ( فاطر السموات والأرض ) جيّداً حتّى جاء إليّ رجلان عربيان يتنازعان على بئر ، فقال أحدهما لإثبات ملكيته :

أنا فطرتها بمعنى ( أنا حفرتها ) ، هنا أدركت أنّ ( فطرة ) تعني الإيجاد والإبتداء في الشيء .

ويطلق على الحبوب التي تظهر في وجوه البنين والبنات اسم ( تقاطير ) أو ( نفاطير )(١).

واعتبار بعض اللغويين مفردة ( فطرة ) بمعنى الدين والشرع إنّما هو لوجودها في خلقة الإنسان كما سيأتي .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها

---

١ ــ لسان العرب ، مفردات الراغب ، نهاية ابن الأثير ، ومجمع البحرين .

[٩٢]

الخلق الثابت والراسخ

الآية الأُولى التي تصرّح بأنّ ( الدين ) أمر فطري وتخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً )(١).

ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا الأمر تقول الآية بعد ذلك : ( فِطْرَتَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها )(٢).

وبما أنّ من المسلّمات وجود الإنسجام بين ( التشريع ) و ( التكوين ) حيث لا يمكن وجود أمر متأصّل في خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه يمكن أن يكون هذا التعبير دليلا على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفي كلّ شرك .

وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك : ( لا تَبْديلَ لِخَلْق اللهِ ) .

وهذا يعني انّ ما يتجذّر في أعماق الوجود الإنساني يستمرّ كأصل ثابت وراسخ ــ وكما سيتوضّح لنا في الإيضاحات ــ فانّ هذه الجملة لها معنى غزير واعجازي حيث تشير الدراسات الحديثة التي يجريها المفكّرون إلى انّ العلاقات الدينية في التاريخ هي من أشدّ العلاقات الإنسانية تجذّراً وستبقى راسخة .

بيد أنّ فئة جاهلة وغافلة تقوم بإفساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك ، ولذا يؤكّد القرآن على المحافظة عليها بذكر كلمة ( حنيفاً )(٣).

وللمزيد من التأكيد تضيف الآية ( ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ) .

كلمة ( قيّم ) من ( قيام ) وإستقامة بمعنى الثابت والراسخ والمستقيم كما

---

١ ــ ( حنيف ) من ( حنف ) ويعني كلّ ميل أو إنحراف وجاء بمعنى الميل من الضلال إلى الصدق ، ومن الباطل إلى الحقّ والتعبير بـــ ( وجه ) هنا كناية عن الذات ، لأنّ الوجه أهمّ عضو في الجسم وتقع فيه الحواس الهامّه كحاسّة البصر والسمع والذوق والشمّ .

٢ ــ توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب في ( فطرة الله ) ومنها انّها بتقدير ( اتّبع ) و ( الزم ) .

٣ ــ يقول بعض المفسّرين بأنّ ( لا ) في ( لا تبديل لخلق الله ) نافية وتعطي معنى النهي ( مجمع البيان والميزان وتفسير أبي الفتوح الرازي ) ولكن كما قلنا فانّ النفي أنسب وأجمل ( فتأمّل جيّداً ) .



جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش في الإنسان(١).

وبما أنّ الكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة ويبتلون بأنواع من عبادة الأصنام ، تقول الآية في ذيلها ( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) الجدير بالذكر على انّ الفطرة التي جاءت في الآية لا تشمل التوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع أُصوله وفروعه وسنتطرّق إليها في التوضيحات ان شاء الله تعالى .

عند مواجهة الأزمات :

في الآيات الثانية والثالثة والرابعة التي يدور البحث حولها ( وبتعابير مختلفة ) إشارة إلى قضيّة عامّة وهي أنّ الإنسان حينما يواجه الصعاب والبلاء الشديد ويعجز عن إستخدام الوسائل الطبيعية يلجأ إلى فطرته الأصيلة فيشرق في أعماق قلبه نور المعرفة الإلهية بعد إختفائه ، ويتذكّر مبدأ العلم والقدرة الذي لا نظير له والذي يسهل عليه حلّ المشكلات كلّها .

تقول الآية في موضع : ( واذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوا ربَّهم مُنيبين إلَيه ) .

ولكن بعد سكون الأعاصير وهبوب رياح الرحمة ، فانّ مجموعة منهم يشركون ( ثُمَّ إذا اذاقَهُم مِنه رَحمةً اذا فَريقٌ مِنهُم بِربِّهم يُشرِكون ) .

وفي موضع آخر يذكر هذا المعنى مقروناً بذكر مصداق واضح عن الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية : ( فاذا ركبوا في الفُلك « وأحاطت بهم الأمواج العظيمة والأعاصير المخيفة وامتلأت قلوبهم رعباً وهلعاً » دَعوا اللهَ مُخلِصِين لَه الدّينَ فَلَمّا نَجّاهُم إلى البرِّ إذا هُم يُشركون ) .

وقد أشارت آية أُخرى إلى أخطار البحر هذه ، بصورة جميلة أُخرى حيث تقول بأنّ الله هو الذي يُسيّركم في الصحاري والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرّككم الرياح الطيّبة الهادئة إلى أهدافكم والجميع يغمرهم الفرح والسرور ، وفجأة تهبّ الأعاصير ويهيج البحر وتأتي الأمواج من كلّ جهة نحو الراكبين في

---

١ ــ مفردات الراغب وكتب لغوية أُخرى .



السفينة حتّى يروا الموت بأعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذكّرون الله فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على أن يكونوا شاكرين له إذا نجّاهم من الهلاك ( شكراً مصحوباً بالمعرفة ) :

( هو الذي يسيركم في البر والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا انّهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ) .

ولكن هؤلاء عندما ينجّيهم الله من الأخطار الموحشة ويوصلهم إلى ساحل الأمان ينسون عهدهم مع الله فيشرعون مرّة أُخرى بالظلم بدون حقّ فيسلكون طريق الشرك وهو من أعظم الظلم ويظلمون الذين تحت أيديهم مغرورين بالنعمة التي هم فيها : ( فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ ) .

كما يلاحظ هذا المعنى في أيتين أُخريين ، ففي موضع تقول الآية :

( فَإذا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمةً مِنّا قَالَ إنَّما أُوتيتُهُ عَلى عِلْم )(١)وفي موضع آخر تقول الآية : ( وَإذا مَسَّ الإنْسانَ الضُرُّ دَعَانَا لَجَنبِهِ أو قاعِداً أو قائماً فَلمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ )(٢).

هذه الآيات الخمس مع انّها تقصد حقيقة واحدة ، بيد أنّ كلّ آية تتمتّع بخصوصية ولطافة ولحن خاصّ ، ففي آية ذكر لأنواع الأضرار والمشكلات والأذى وهذه تشمل أنواع الأمراض والبلاء والقحط والآفات والمشكلات .

وفي آية أُخرى إشارة إلى أخطار البحر فقط ( من قبيل الأعاصير
والأمواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة فيه والضلال عن الطريق وأمثالها ) .

وفي آية أُخرى تركيز على أخطار الأعاصير والأمواج .

وفي آية أُخرى حديث عن سير ، الإنسان في طريق الشرك بعد ذلك .

وفي آية أُخرى ذكر لطريق البغي والظلم الذي له مفهوم أوسع من

---

١ ــ سورة الزمر : الآية ٤٩ .
٢ ــ سورة يونس : الآية ١٢ .



الشرك .

وفي آية أُخرى إشارة إلى انّهم يعتبرون المشكلات ناشئة من الله امّا النعم فانّها منهم ، ونقرأ في آية انّهم يشركون بأجمعهم وتذكر آية أُخرى فئة منهم وذلك لإختلاف المجتمعات البشرية فبعضها من الفئة الأُولى وبعضها من الفئة الثانية .

وتقول آية أُخرى انّهم يعاهدون الله عند البلاء عهداً ينسونه عند
إستقرار الأوضاع ، وفي آية أُخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من الله تعالى .

وتقول آية أُخرى : انّهم إذا أصابهم شيء من الضرر ( التعبير بـــ « مسّ » فيه إشارة إلى هذا المعنى ) ، ولكن في آية أُخرى انّهم عندما ينتابهم اليأس من الحياة يقبلون على الله ، ولعلّ هذا الإختلاف إشارة إلى مختلف أفراد البشر حيث يكون البعض من القسم الأوّل والبعض الآخر من القسم الثاني .

وقد ذكرت كلمة ( الإخلاص ) في الكثير من الآيات ، حيث تشير إلى رفض كلّ معبود سوى الله الواحد وتدلّ على انّهم حين الدعة والراحة يعبدون الله أيضاً ، ولكنّهم يعبدون معه أنداداً له وهي التي ينسونها وتختفي عند ظهور الأموار العاتية أو الأعاصير الموحشة ، ويغمر نور التوحيد والوحدانية قلوبهم ويضيء وجودهم .

وجاء في تفسير ( روح البيان ) انّ عبدة الأوثان في الرحلات البحرية ( التي كانت مفعمة بالأخطار دائماً وكانت أشدّ في العصور القديمة لعدم تيسّر الأدوات اللازمة ) كانوا يحملون الأصنام معهم وعند حدوث الأعاصير العاتية يلقون بها في البحر ويصرخون ياربّ ياربّ!!(١).

والأعجب انّهم كانوا يسمعون من النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) جميع الأدلّة المنطقية ،

---

١ ــ روح البيان : ٦/٤٩٣ .



الناصعة ، لكنّهم لم يؤمنوا ، في حين كانوا يقبلون على الله بكلّ وجودهم عندما تهاجمهم الأحداث العاصفة ، وهذا ممّا يشير إلى انّ طريق الفطرة أوضح وأيسر للكثير من الناس من الطرق الأُخرى .

وجدير ذكره انّ القرآن الكريم يحذّر الذين يستجيبون لنداء الفطرة عند المشكلات وينسونه عند إرتفاعها ، ويلفت أنظارهم ببيان جميل بقوله ( أَفَأَمِنْتُم أَنْ يَخسِفَ بِكُمْ جانِبَ البَرِّ أو يُرسِلَ عَلَيكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لكُمْ وَكيلا )(١).

هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر للبرّ ؟! أم انّ الله مقتدر في البحر ولا قدرة له في البرّ ؟! انّه قادر بأمر واحد للأرض أن تفتح فاها بزلزالها لتبلع مُدنكم ولا يبقى من خرائبها شيئاً(٢).

وقد حدث مراراً أن تهب الأعاصير وتحمل الحصى والرمال إلى السماء وتلقيها في نقاط اُخرى ، وقد تطمر تحتها قافلة بأكملها .

الله الذي يأمر الأمواج في البحار ــ إذن ــ قادر على أن يتّخذ من الأعاصير والزلازل في الصحاري جنوداً يهلك بهم الفاسدين .

ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول :

( أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرى فَيُرسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَينا بِهِ تَبيعاً )(٣).

أي أنّكم تظنّون أنّ هذه هي رحلتكم البحرية الأخيرية ؟ انّه خطأ كبير .

إقرار المشركين :

---

١ ــ سورة الإسراء : الآية ٦٨ .

٢ ــ قبل عدّة سنوات وقع زلزال في شمال افريقيا وفيه ابتلعت الأرض قرية كاملة ولم يعثروا حتّى على خرائبها !

٣ ــ سورة الإسراء : الآية ٦٩ .



وتتضمّن الآية الخامسة حتّى التاسعة من آيات البحث حديثاً عن هذا المضمون :

( ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم ) .

وأيضاً : ( ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنّ الله ) .

وأيضاً : ( ق مَن يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميّت ويخرج الميّت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله ) .

ولو انّهم ــ عبدة الأوثان ــ سألوا عن خلق كلّ فرد من المخلوقات وتدبير اُمورها فانّهم يقرّون بأنّ الله وحده هو الخالق والمدبّر !!

انّ هذه الآيات القرآنية وأمثالها(١) من التعابير الحيّة عن التوحيد الفطري ، ومن الممكن أن تكون هذه الإجابة المتناسقة نتيجة للإستدلال العقلي أيضاً وذلك عن طريق برهان النظم ، ولكن بملاحظة انّ المشركين العرب اُناسٌ اُمّيون وبعيدون عن العلم والفكر والإستدلال ، فانّ هذا التناسق في الإجابة يدلّ على انّها كانت تنبع من فطرتهم وهم في ذلك سواء وبدون استثناء ، وإلاّ فانّ الإستدلالات العقلية مهما كانت واضحة فانّها لا يمكن أن تكون شاملة وعامّة إلى هذه الدرجة وخاصّة بين جماعة بعيدة عن العلم والفكر .

من هنا فانّا نعتقد انّ الآيات الخمس أو أمثالها تشكّل أدلّة على التوحيد الفطري .

ولذا يقول صاحب تفسير ( روح البيان ) في ذيل الآية ٩ من سورة الزخرف :

« وفي الآية إشارة إلى انّ في جبلة الإنسان معرفة لله مركوزة »(٢).

وفي تفسير ( الفخر الرازي ) في ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف عرض لهذا المضمون على صورة سؤال وجواب فيقول ( ظنّ قوم أنّ هذه الآية وأمثالها في القرآن تدلّ على أنّ القوم مضطرون إلى الإعتراف بوجود الإله للعالم ، وقوم

---

١ ــ الآية ٦٣ من سورة العنكبوت ، والآية ٢٥ سورة لقمان ، والآية ٣٨ سورة الزمر .
٢ ــ روح البيان : ج٨ ، ص٣٥٣ ، وفي ذيل الآية ٨٧ من سورة الزخرف أيضاً إشارة إلى هذا المعنى أيضاً .



إبراهيم قالوا : ( وانّا لفي شكّ ممّا تدعوننا إليه ) فيقال لهم : لا نسلّم انّ قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله ، والدليل على قولنا ، قوله تعالى : ( وجحدوا بها استيقنتها أنفسهم ظلماً ) وقال موسى لفرعون : ( لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلاّ ربّ السموات والأرض بصائر ) فالقراءة بفتح التاء في علمت تدلّ على انّ فرعون كان عارفاً بالله ، وأمّا قوم

إبراهيم حيث قالوا : ( وإنّا لفي شكّ ممّا تدعوننا إليه ) فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوّة )(١).

وفي التعبير بـــ ( لقد علمت .... ) إشارة واضحة إلى هذا المعنى .

والطريف أنَّ آيتين من هذه الآيات تذكران في النهاية بعد أخذ الإقرار من الكفّار والمشركين بأنَّ الله هو الخالق للإنسان والأرض والسماوات ( فأنّى تؤفَكون )(٢).

وبناء الجملة للمجهول إشارةٌ إلى أنَّ ذواتهم تسير في طريق الفطرة ، غير أنَّ أسباباً خارجية وهي ( شياطين الجنّ والإنس ) ، وأسباباً داخلية وهي ( أهواء النفس والعصبية الجاهلية ) تحرّفهم عن الحقّ رغم تجذّره في أعماق فطرتهم .

في حين جاء التعبير في موضع آخر بـــ ( فأنّى تُسحَرُون ) بصيغة المبني للمجهول ، وهي عبارة تطلق على من يتّبع أمراً دون إرادة .

ويوجد إحتمال آخر في تفسير هذه الآيات وهو أنَّهم كانوا يقولون بأنَّ رسول الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) يريد أنْ يحرفنا عن طريق الحقّ أو أنّه ساحر قد سحرنا. فردّ عليهم القرآن : مع أنّكم تُقرّون بأنَّ الله هو خالق السماء والأرض والشمس والقمر والبشر ، وهو المدبّر لهذا الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم إلى عبادته ونبذ عبادة غيره ؟ أي عقل يحكم بهذا ؟!

إنّ الكثير من المفسّرين ومنهم ( الطبرسي في مجمع البيان والعلاّمة

---

١ ــ التفسير الكبير : ج٨ ، ص٣٩٩ وج٢٧ ، ص٢٣٣ .

٢ ــ تؤفكون مشتق من ( الإفك ) ويعني الإرجاع والحرف ولذا يطلق ( الإفك ) على الكذب أيضاً كما تطلق ( المؤتفكات ) على الرياح المعارضة .



الطباطبائي في الميزان والفخر الرازي في التفسير الكبير والآلوسي في روح المعاني والقرطبي في تفسيره ) اختاروا التفسير الأوّل وإن لم يبعد التفسير الثاني عن مفهوم الآية .

* * *

عهد عالم الذرّ

الآية العاشرة والأخيرة في هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد الفطري ولا نظير لها في الآيات القرآنية الاُخرى ، وبسبب المحتوى المعقّد لهذه الآية دارت أحاديث مطوّلة بين العلماء والمفسّرين والمتكلّمين وأرباب الحديث ، نورد ــ بصورة إجمالية ــ آراءهم المختلفة ثمّ رأينا المختار بعد الفراغ من تفسيرها .

تقول الآية الكريمة : ( وإذْ أَخَذَ ربُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيتُهم وَأَشْهَدهُم عَلى أنفُسِهِمْ ألستُ بِربِّكُمْ ) فقالوا جميعاً : ( بَلى شَهدنا ) وتُضيفُ الآية بأنَّ الله تعالى فعل ذلك لئلاّ يقولوا يوم القيامة إنّا غفلنا عن هذا الأمر ( وهو التوحيد ومعرفة الله ) ( أنَ تَقُولوا يَومَ القيامةِ إنّا كنّا عن هذا غافِلين ) أو يتشبّثوا بحجّة ( التقليد ) بدلا عن حجّة ( الغفلة ) وتقولوا : ( إنّما أشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبلُ وكنّا ذُرّيةً منْ بَعْدِهِمْ أفتُهلِكُنا بِما فَعَل المُبطلُون ) هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة إجمالية ، منها :

١ــ أنّ الله تعالى أظهرجميع ذرّية آدم إلى يوم القيامة في مرحلة من الخلق.

٢ ــ أنّ الله سبحانه أشهدهم على أنفسهم وأخذ الإقرار منهم بربوبيته .

٣ ــ استهدف أخذ الإقرار والإعتراف والشهادة أمرين :

أوّلا : عدم السماح للمشركين لإدّعاء الغفلة والجهل عن حقيقة التوحيد ووحدانية الله يوم القيامة .



وثانياً : منعهم من اتّخا التقليد لآبائهم ذريعة لإرتكاب المعاصي .

وأهمّ سؤال يُطرح هو : متى وقع هذا ( الظهور ) ؟ وبأيّة صورة تمّ ذلك ؟ وما المراد من ( عالم الذرّ ) ؟ وكيف تحقّق هذا الأمر ؟ هناك ستّة أقوال على الأقل للإجابة عن هذا السؤال ، وقد أيّد كلَّ واحد منها جماعة من المفكّرين الإسلاميين :

١ ــ طريق المحدّثين وأهل الظاهر حيث يقولون : أنّ المراد هو ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ ذريّة آدم بأجمعهم قد خرجوا من ظهره على شكل ذرّات دقيقة وملؤا الفضاء وكانت تتمتّع بالعقل والإحساس والقدرة على النطق ، فخاطبهم الله عزّوجلّ وسألهم : ( ألست بربّكم ؟ )

فقالوا جميعاً : ( بَلى ) ؛ وبذلك أخذ العهد الأوّل على التوحيد . وكان بنو الإنسان بأنفسهم شاهدين على ذلك(١).

٢ ــ المراد من عالم الذرّ وتفسير الآية أعلاه هو الذرّات الأُولى لوجود الإنسان أي النطفة التي انتقلت من ظهور الآباء إلى أرحام الأُمّهات وتبدّلت في المراحل الجنينية إلى صورة إنسان كامل تدريجياً وقد أعطاها الله عزّوجلّ في ذلك الحال القوى والقابليات المختلفة كي تدرك حقيقة التوحيد ومنهاج الحقّ ، وقد جعل هذه الفطرة التوحيدية ملتحمة بوجوده .

يذهب إلى هذا التفسير جمع من المفسّرين كصاحب تفسير ( المنار ) و ( في ظلال القرآن ) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسّرين(٢).

بهذا يكون ( عالم الذرّ ) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القال ؛ ولهذا الأمر شواهد ونظائر كثيرة وردت في كلمات العرب

---

١ ــ يقول العلاّمة المجلسي في شرح أُصول الكافي ( مرآة العقول ) عن هذه الحقيقة : ( طريقة المحدّثين والمتورّعين فانّهم يقولون نؤمن بظاهرها ولا نخوض فيها ، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل ) الجزء ٧ ، ص٣٨ والفخر الرازي ينسب ذلك إلى المفسّرين والمحدّثين ( الجزء ١٥ ، ص٤٦ ) .
٢ ــ تفسير المنار : ج٩ ، ص٣٨٧ ( تعبيره ينسجم مع القول الخامس ) ، في ظلال القرآن ج٣ ، ص٦٧١ .



وغيرهم ؛ كما ينقل السيّد المرتضى في كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول : « سَل الأرض من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فإنْ لم تُجبك حواراً أجابتك اعتبارك » .

هذا القول يشابه ما ذكره جمع من المفسّرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعمّان موجودات العالم حتّى الجمادات أيضاً .

٣ ــ امراد من ( عالم الذرّ ) هو ( عالم الأرواح ) ويعني ذلك أنّ الله عزّوجلّ خلق في البداية أرواح البشر قبل أجسادهم ، وخاطبها وأخذ الإقرار منها على وحدانيته .

وقد إستخلص هذا التفسير من بعض الروايات كما سنشير إليه .

والجدير ذكره أنَّ كمة ( ذرّية ) في آية البحث مشتقّةٌ من ( ذرّ ) وهي تعني ذرّات الغبار الدقيقة ، أو النمل الدقيق أو أجزاء النطفة أو من ( ذرْو ) ويعني التفريق أو من ( ذرْء ) ويعني الخلق .

بناءً على ذلك لا نسلّم بأنّ الأصل في ( ذرّية ) هو ( ذرّ ) بمعنى الأجزاء الدقيقة ( فتأمّل جيّداً ) .

٤ ــ إنَّ هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين الله عزّوجلّ بواسطة الأنبياء وبلسان القال حيث إستمع جمع من البشر إلى أدلّة التوحيد ــ بعد ولادتهم وإكتمال عقولهم ــ من الأنبياء وإستجابوا لها وقالوا ( بلى ) .

فإنْ قيل إنّ ذريّة مشتقّة من ( ذرّ ) هذا القول : بأنَّ أحد المعاني المعروفة لــ ( ذريّة ) هو الأبناء ــ صغاراً وكباراً ــ وأنّ إطلاق ( ذريّة ) على العقلاء والبالغين في القرآن الكريم ليس بالقليل .

وقد ذكر السيّد المرتضى ( (رحمه الله) ) هذا التفسير ــ في بعض كلماته ــ على شكل إحتمال في إيضاح الآية المذكورة ، كما أنّ أبا الفتوح الرازي قد أورد هذا التفسير كإحتمال في تفسيره إضافةً إلى وجود إشارة إلى ذك في تفسير الفخر الرازي في



ذيل الآية(١).

٥ ــ انّ هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل ، فكلّ إنسان يقرّ بعد إكتمال عقله ومشاهدته لآيات الله في الآفاق والأنفس بوحدانية الله بلسان حاله ، وكأنّ الله عزّوجلّ يسألهم بإرائة هذه الآيات ( ألست بربّكم ) ؟ فيجيبون بلسان الحال : ( بلى ) وأمّا الحديث بلسان القال فإنّ له شواهد ونظائر كثيرة .

وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسي ( (رحمه الله) ) في التبيان عن البلخي والرمّاني(٢).

٦ ــ وهو التفسير الذي إختاره العلاّمة الطباطبائي ( (رحمه الله) ) في ( الميزان ) : بعد أن ذهب إلى إستحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابقاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد خأذ الله منهم العهد على وحدانيته ثمّ أعادهم إلى حالتهم السابقة كي يجتازوا مسيرتهم الطبيعية ، وبذلك يأتون إلى الدنيا مرّتين فقال :

وأثبت بقوله: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء»(٣)، وقوله «وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر»(٤). انّ هذا الوجود التدريجي للأشياء ومنها الإنسان هو أمر من الله يفيضه على الشيء ويلقيه إليه بكلمة (كن) إفاضة دفعية والقاء غير تدريجي، فلوجود هذه الأشياء وجهان، وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالخروج من القوّة إلى الفعل تدريجاً، ومن العدم إلى الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثمّ لا يزال يتكامل حتّى يفنى ويرجع إلى ربّه، ووجه إلى الله سبحانه وهو بحسب هذا الوجه اُمور تدريجية وكلّ ما لها فهو لها في أوّل وجودها من غير أن تحتمل قوّة تسوقها إلى الفعل ... وبعبارة اُخرى : انّ الموجودات لها نوعان من الوجود، الأوّل : الوجود الجمعي عند الله تعالى والذي يعبّر عنه القرآن الكريم

---

١ ــ تفسير أبي الفتوح الرازي : ج٥ ، ص٣٢٦ .

٢ ــ تفسير التبيان : ج٥ ، ص٢٧ ( وفي تفسير المنار تعبير يقرب من هذا المعنى ج٩ ، ص٣٨٦ ) .

٣ ــ سورة يس : الآية ٨٣ .

٤ ــ سورة القمر : الآية ٥٠ .



بالملكوت، والآخر: الوجودات المتناثرة التي تظهر تدريجياً بمرور الزمان.

وبهذا تكون حياة الإنسان في الدنيا مسبوقة بحياة إنسانية اُخرى لا يكون فيها أحد محجوباً عن الله تعالى ، وقد شاهده هناك كلُّ موجود بالشهود الباطني وأقرّ بربوبيته .

ثمّ يضيف ( (رحمه الله) ) : لو دقّقنا في الآيات الآنفة الذكر لرأينا أنّها تشير إلى هذا المعنى .

بعد اتّضاح التفاسير الستّة بصورة إجمالية نشرع بنقدها ودراستها :

القول الأوّل هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحقّقين ، ووجّهوا إليه أغلب الإشكالات ، حيث أشكل عليه الطبرسي في ( مجمع البيان ) والسيّد المرتضى ــ كما نقله العلاّمة المجلسي في مرآة العقول ــ كما انّ الفخر الرازي أورد ( ١٢ ) إشكالا على هذا القول ! غير أنّ بعضها ليس جديراً بالإهتمام وبعضها مكرّر أو قابل للإندماج مع غيره ، وبصورة عامّة تتوجّه خمسة إشكالات إلى هذا القول :

**أ ــ إنَّ هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة ( بني آدم ) أبداً ، وكذلك مع ضمائر الجمع في الآية ، وكلّها تتحدّث عن بني آدم لا آدم نفسه . كما لا يتطابق مع لفظه « ظهور » جمع « ظهر » ، والخلاصة هي أنّ الآية تقول : انّ « الذرّية » ظهرت من ظهور « بني آدم » لا من ظهر « آدم » ، في حين أنّ الروايات تدور حول نفس آدم .**

ب ــ لو صحّ أخذ مثل هذا العهد الصريح في عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم ؟! وهذا النسيان العام دليل على إستبعاد هذا التفسير ، لأنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ ابشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً ، فهل الفاصل الزمني بين عالم الذرّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة ؟

ج ــ لو سلّمنا ــ فرضاً ــ بأنّ هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الذرّ ،



ولكن النتيجة هي علّية هذا العهد ، لأنّه يكون مؤثّراً حينما يتذكّره الناس ، أمّا ما ينساه كافّة البشر فانّه يفقد تأثيره التربوي ولا ينفع في إلقاء الحجّة وسدّ باب الأعذار .

د ــ يستفاد من الآية ١١ من سورة المؤمن ( رَبّنا أَمَتَّنا اثنَتَينِ وأَحْيَيتَنا اثْنَتَيْن )أنّ للبشر موتتين وحياتين ( حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثمّ يموتون ثمّ يحيون يوم القيامة ) في حين يكون لهم ــ وفق هذا التفسير ــ أكثر من موتتين وحياتين : ( موت وحياة في عالم الذرّ وموتان وحياتان آخران ) .

هـ ــ يستلزم هذا التفسير ( التناسخ ) ، لأنّا نعلم بأنّ التناسخ ليس إلاّ حلول روح واحدة في جسمين أو أكثر ، وطبقاً لهذا التفسير فانّ الروح الاُولى تعلّقت أوّلا بالذرّات الدقيقة جدّاً والتي خرجت من ظهر آدم ثمّ خرجت لتتعلّق بالأجسام الحاضرة ، وهذا هو عين التناسخ .

وبطلان التناسخ هو من المسلّمات في الدين ، ولذا فانّ الشيخ المفيد في كتابه ( جواب المسائل السروية ) عندما يذكر التفسير أعلاه مقروناً ببعض الروايات يضيف : هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحقّ والباطل(١).

وقد ورد هذا الكلام بنفسه في كلام شيخ المفسّرين الطبرسي ( (رحمه الله) )(٢).

وسنلاحظ بإذن الله لدى مطالعة أخبار عالم الذرّ أنّ الأخبار الدالّة على هذا التفسير معارضة بأخبار اُخرى .

* * *

وأمّا القول الثاني الذي يتحدّث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصّة

١ ــ مرآة العقول : الجزء ٧ ، ص٤١ .

٢ ــ مجمع البيان : ج٤ ، ص٤٩٧ .



لمعرفة الله في عالم الرحم فأنّه أقلّ الأقوال إشكالا ، والإشكال الوحيد الذي أورده عليه هو أنّ ظاهر الآية المبحوث عنها هو أنّ السؤال والجواب جاء بلسان القال لا الحال ، وهو ضرب من التشبيه والمجاز ، مضافاً إلى انّ جملة ( أخذ ) دليل على أنّ هذا الأمر قد أخذ في الماضي ، في حين أنّ فطرة التوحيد للأجنّة هي أمر مستمرّ ويتحقّق في كلّ زمان ، والإشكالان يمكن الإجابة عليهما وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع القرينة ، وقد كثر ذلك في اللغة العربية نثراً وشعراً و... ، والإشكالات المهمّة التي ترد على التفسير الأوّل قرينة واضحة على هذا التفسير ، والفعل الماضي قد يستعمل في الإستمرار أيضاً ، وهذا ــ طبعاً ــ يحتاج إلى قرينة أيضاً ، وهذه القرينة موجودة في موضوع البحث(١).

امّا التفسير الثالث القائل بأنّ المراد هو : سؤال الأرواح فانّه لا ينسجم مع آية البحث أبداً ، لأنّ الآية تتحدّث عن أخذ الذرّية من ظهور بني آدم ولا يرتبط هذا بقضيّة الأرواح .

وامّا التفسير الرابع القائل بأنّ السؤال والجواب كان بهذا اللسان الطبيعي ويرتبط بمجموعة من البشر قد سئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الأنبياء عن مسألة التوحيد وأجابوا بالإيجاب عليه ، فإنّ عليه إشكالات رئيسية منها :

إنّ الآية تتحدّث عن جميع البشر لا مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أوّلا ثمّ كفروا ، مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية هو كون السؤال من قِبَلِ الله لا من قبل الأنبياء .

ولا يصحّ ما يظنّه بعض من انّ جملة ( إنّما أشرَكَ آباؤُنا من قَبْل ) دليل على أنّ الآية تقصد المجموعة التي أشرك آباؤها ، لأنّ الآية تذكر عذرين غير موجّهين

---

١ ــ شوهدت هذه العبارة كثيراً في الآيات القرآنية : « انّه كان عليماً قديراً » ( فاطر : ٤٤ ) ، « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً » ( الشورى : ٥١ ) ، « بل كان الله بما تعملون خبيراً » ( الفتح : ١١ ) « وكان الله عزيزاً حكيماً » ( الفتح : ١٩ ) .

للكفّار ، الأوّل هو الغفلة والثاني التقليد للآباء المشركين .

ويمكن أن يكون كلّ عذر لمجموعة خاصّة وأنّهما معطوفان بكلمة ( أو ) .

وأمّا التفسير الخامس فإنّه يشابه التفسير الثاني من جهات مع وجود فارق وهو : أنّ التفسير الثاني يتحدّث عن الفطرة القلبية ، بينما يتحدّث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإنّ هذا التفسير قد مال إليه كثير من المفسّرين الأعلام .

وأمّا التفسير السادس الذي ورد في ( الميزان ) فإنّه يواجه إشكالَيْن كبيرين ، الأوّل : هو إثبات عالمين ( عالم جمعي وعالم تفصيلي ) ولا دليل واضح لهما حسب ما ورد من البيان والثاني : انّ تطبيق الآية على هذا العالم ( بافتراض ثبوته ) يبدو بعيداً جدّاً ولا يسلم أصل القضيّة وفرعها من الإيراد .

* * *

حصيلة البحث عن عالم الذرّ

نصل ممّا ذُكر إلى هذه النتيجة وهي : أنّ التفسير الثاني والخامس ــ بعد الدراسة الدقيقة ــ هما أقلّ التفاسير إشكالا ، وامّا الإشكال الوارد في أنّه يخالف الظاهر في بعض الجهات فإنّه يمكن التغاضي عنه مع توفّر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك في اللغة العربية وغيرها ، ولذا فإنّ الكثير من المفسّرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد إختاروهما ، كما تتضمّن الروايات إشارات واضحة إلى هذا المضمون وسيأتي ذلك في البحث المقبل بإذن الله .

وبإختصار : إنّ أغلب المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا السؤال والجواب الإلهي قد تمّ مع جميع البشر وبلسان الحال لا القال ، أو عن طريق الإستعداد الفطري المودع في الجنين أو عن طريق الإستعداد العقلي الذي أوجده فيهم بعد البلوغ والكمال العقلي ، أحدهما يتحدّث عن الفطرة القلبية ( دون الحاجة إلى إستدلال



) والثاني يتحدّث عن الفطرة العقلية التي تعتبر معرفة الله من البديهيات العقلية ، حيث أنّ دلائله من الوضوح ما يجعل كافّة البشر يدركون ذلك . صحيح أنّ مجموعة من البشر ينكرون ذلك بلسان القال ويؤيّدون الماديّة ، ولكنّا حينما نحلّل كلامهم نراهم يجعلون للمادّة والطبيعة

نوعاً من العقل والإحساس ، وبعبارة اُخرى انّهم أطلقوا كلمة ( الطبيعة ) على ( الله ) ، ونعتقد أنّ الإشارة إلى الفطرة القلبية هي الأنسب ( فتأمّل جيّداً ) .

* * *

[١٠٨]

إيضاحات

١ ــ ( عالم الذرّ ) في الروايات الإسلامية :

إنَّ المصادر الإسلامية ( السنيّة والشيعية ) تتضمّن روايات جمّة عن ( عالم الذرّ ) تبدو وكأنّها روايات متواترة ، فمثلا يتضمّن تفسير نور الثقلين (٣٠) رواية ، وتفسير البرهان ( ٣٧ ) رواية ولعلّها تتجاوز الأربعين في مجموعها (مع حذف المكرّرات)، كما يتضمّن تفسير (الدرّ المنثور) روايات عديدة، ممّا يشير إلى أنّ مضامين الروايات لا تنحصر في مذهب إسلامي خاصّ.

غير أنّ كثيراً منها منقولة عن راو واحد ولذا يشملها حكم الخبر الواحد ( يلاحظ أنّ كثيراً منها مروي عن زرارة ، وعدداً منها عن أبي بصير ، وبعضاً منها عن جابر ، كما تلاحظ روايات عن عبدالله بن سنان وصالح بن سهل ) وبهذا ينخفض كثيراً العدد الواقعي للروايات .

هذا وإنّ مضامين هذه الروايات متباينة تماماً فبعضها يتّفق مع التفسير الثاني القائل بأنّ هذا العهد عهد فطري ويرجع إلى إيداع المعرفة الفطرية في الإنسان نظير الرواية التي ينقلها عبدالله بن سنان عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) : « قال : سألته عن قول الله عزّوجلّ ( فطرة الله التي فطر الناس عليها ) ما تلك الفطرة ؟، قال : هي الإسلام ، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد ، قال ( ألست بربّكم ) وفيه المؤمن والكافر »(١).

وكما تلاحظ فإنّ الحديث يتضمّن بياناً عن الإرتباط الوثيق بين آية ( الفطرة ) وآية ( عالم الذرّ ) ، وقد روى زرارة هذا المعنى بعبارة اُخرى عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) ، فإنّه عندما سأل الإمام ( (عليه السلام) ) عن تفسير الآية ( وإذ أخذ ربّك ... ) أجابه ( (عليه السلام) ) : « ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف ، ويذكرونه يوماً ، ولولا ذلك لم يدر

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٢ ص٤٧ الحديث ٧ ، ونور الثقلين ج٢ ، ص٩٥ الحديث ٣٤٥ .

أحد من خالقه ومن رازقه ؟ »(١).

في حين انّ بعضاً آخر من الروايات يتّفق مع التفسير الأوّل حيث تذكر أنّ ذرّيّة آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرّات ، وقد أخذ الله هذا العهد منهم بلسان القال ، كالروايات التي وردت في تفسير البرهان المرقّمة بـــ : ٣ ، ٤ ، ٨ ، ١١ ، ٢٩ ( وقد روى زرارة هذه الروايات عن الإمام الباقر ( (عليه السلام) ) وهي ــ في الحقيقة ــ رواية واحدة ) .

وقد ورد هذا المعنى في تفسير الدرّ المنثور عن ابن عبّاس بطرق متعدّدة ولكن يطول ذكرها وهي ذات مضمون واحد في الحقيقة وتتلخّص في حديث واحد عن ابن عبّاس وليس عن الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ، وفي كتب أُخرى نقل هذا المعنى بطرق أُخرى .

والإشكال المهمّ الذي يرد على هذه الأحاديث هو أنّها مخالفة لظاهر وصريح كتاب الله لأنّها تقول بأجمعها : أنّ ذرّيّة آدم خرجت من ظهر آدم على صورة ذرّات ، في حين يقول القرآن الكريم بأنّ الذرّات هذه خرجت من ظهور بني آدم ( مِنْ بَني آدمَ من ظهورِهِم ذُريَّتَهم ) .

وإضافة إلى ذلك فإنّ ثمّة إشكالات عديدة أُخرى ترد على مضامين هذه الأحاديث تمت الإشارة إليها وتجعلها في المجموع في عداد الأحاديث الضعيفة .

والمجموعة الثالثة من الأحاديث مبهمة وتلائم التفاسير المختلفة ، مثل الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) حيث سأله : كيف أجابوا وهم ذرّ ؟! فقال ( (عليه السلام) ) : « جعل الله فيهم ما إذا سألهم أجابوه ، يعني في الميثاق »(٢).

وهناك مجموعة رابعة من الأحاديث تقول بأنّ هذا السؤال والجواب قد

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٢ ، ص٤٨ الحديث ١٥ .

٢ ــ تفسير البرهان : ج٢ ، ص٤٩ ، الحديث ٢٢ .

جريا مع أرواح البشر ، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط ، كرواية المفضّل بن عمر عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) حيث قال : « قال الله عزّوجلّ لجمع أرواح ( بني آدم ) ألست بربّكم ؟ قالوا : بلى »(١).

كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أنّ الله سبحانه أوقف الأرواح البشرية في ذلك اليوم على نفس الهيئة التي تخلق عليها وأخذ منها العهد(٢).

بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السند في كثير منها ، لا يمكن الإعتماد عليها كمستمسك معتبر أبداً ، والأفضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك في مثل هذه الموارد الحكم بشأنها وندع العلم بها إلى أهلها(٣).

نبقى والآية أعلاه وما يستفاد منها بمعونة القرائن المختلفة . وكما أشرنا فإنّ التفسير الثاني ــ كما يبدو ــ هو الأنسب من بين التفاسير الستّة المذكورة للآية ، وهو التفسير الذي يعتبر عالم الذرّ منسجماً مع فطرة المعرفة الإلهية والإسلام ، وعليه فإنّ ذرّات النطفة منذ خروجها من ظهور الآباء وإستقرارها في أرحام الأُمّهات تكون قد إستقرّ فيها نور المعرفة والتوحيد والقانون الإلهي على صورة قابلية ذاتية .

٢ ــ فطرة العقل أم القلب ؟

الحصيلة من كلمات العلماء في بحث فطرية المعرفة الإلهية هي أنّهم سلكوا طريقين ، فبعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الإستدلال العقلي الواضح ، وهو أنّ كلّ إنسان بعد إكتما عقله وملاحظته لنظام عالم الوجود وبعض

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٢ ص٤٩ ، الحديث ٢٠ .

٢ ــ تفسير الدرّ المنثور : ج٣ ص١٤٢ .

٣ ــ للمزيد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الذرّ يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية : بحار الأنوار : ٢٧٧/٣ ، مرآة العقول : ٣٦/٧ ، تفسير البرهان : ٤٦/٢ ، تفسير نور الثقلين : ٩٣/٢ ، وتفسير الدرّ المنثور : ١٤١/٣ ، وما بعدها .

الأسرار في الخلق ينتقل إلى هذه الحقيقة فوراً وهي إستحالة نشوء هذا النظام البديع ذي الأسرار العجيبة من مبدأ فاقد للعقل والإحساس ، وعليه فإنّ الفطرة تعني : ( العقل الفطري ) الذي يكفيه إستدلال واضح للوصول إلى الحقيقة ولا يحتاج إلى أُستاذ أو معلّم ، كما يحكم الإنسان بأنّ ( الكلّ أكبر من الجزء ) حيث أدركه بإستدلال عقلي واضح وهكذا عندما يقول بأنّ ( المساويين لشيء متساويان ) .

من هنا نلاحظ انّ علماء المنطق يقسّمون بديهيات المنطق إلى ستّة أقسام :

الأوّليات ، المشاهدات ، التجريبيات ، المتواترات ، الحدسيات ، الفطريات ، وقالوا في تعريف ( الفطريات ) : بأنّها القضايا التي لا يصدق بها العقل بمجرد تصوّرها بل يحتاج إلى حدّ أوسط وهو حاضر لدى الذهن دائماً . وللفطرة معنى آخر وهو أصحّ وأفضل في البحوث المعنية وهو : إدراك
الحقائق من دون الحاجة إلى أي إستدلال ( معقّد أو بسيط ) ويتفهّمها بوضوح ويتقبّلها ، فهو حينما يشاهد ــ مثلا ــ باقة من الورد الجميل ذات عطر زكيّ يقرّ بجمالها ، دونما حاجة إلى إقامة الدليل أبداً ، ويقول بأنّها جميلة حقّاً ولا تحتاج إلى دليل .

والفهم الفطري في مجال المعرفة الإلهية من هذا القبيل ، فالإنسان حينما يتدبّر من أعماق روحه يبصر نور الحقّ ويسمع نداءه بقلبه ، يدعوه إلى مبدأ العلم والقدرة التي لا مثيل لها في عالم الوجود ، مبدأ هو الكمال المطلق ومطلق الكمال ، وهو في هذا الفهم الوجداني ــ كما في جمال الورد ــ لا يشعر بحاجة إلى إقامة الدليل .

* * *

٣ ــ شواهد حيّة على فطرية الإيمان بالله



ربّما يقال بأنّ هذه كلّها ادّعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة في المعرفة الإلهية ، فمن الممكن أن أدّعي بأنّي أشعر بهذا الإحساس في قلبي أي من أعماق روحي ، ولكن كيف أقنع شخصاً يرفض هذا الكلام ؟ لدينا شواهد كثيرة بإمكانها إثبات فطرية المعرفة الإلهية بشكل واضح جدّاً ، بنحو يفحم المنكرين ، ويمكن تلخيصها في أقسام خمسة :

أ ــ القضايا التاريخية :

إنّ القضايا التاريخية التي تمّت دراستها من قِبَل أقدم المؤرّخين في العالم تدلّ على عدم وجود دين لدى الأقوام السابقة ، بل كان كلّ قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة في عالم الوجود ويعبدونه ، ولو أقررنا بحالات الإستثناء النادرة في هذا الأمر ، فإنّ هذه القضية لا تضرّ بالأصل العام الذي يحكم بأنّ المجتمعات البشرية كلّها كانت دائماً على طريق عبادة الله ( كل قاعدة كليّة لها إستثناءات نادرة ) .

المؤرّخ الغربي الشهير ( ويل دورانت ) في كتابه ( تاريخ الحضارة ) يُقرّ بهذه الحقيقة بعد الإشارة إلى بعض الموارد في الإلحاد الديني ويقول : « إلى جانب هذه القضايا التي ذكرناها فانّ الإلحاط الديني من الحالات النادرة ، وهذا الإعتقاد القديم بأنّ التديّن حالة بشرية عامّة يتطابق مع الحقيقة ... » .

« تعتبر هذه القضيّة من القضايا التاريخية والنفسية الأساسية لدى الفيلسوف ، فهو لا يذعن بأنّ الأديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الدين كان مع التاريخ منذ أقدم العصور »(١).

ويقول في تعبير آخر بهذا الشأن : « أين تكمن التقوى التي لا تفارق قلب الإنسان أبداً ؟ »(٢).

---

١ ــ تاريخ الحضارة ــ ويل دورانت : ج١ ، ص٨٧ .

٢ ــ تاريخ الحضارة ــ ويل دورانت : ج١ ص٨٩ .



كما يقول في كتابه ( دروس التاريخ ) وبتعبير ساخط ومتألّم : « للدين مائة روح ، كلّما تقتله فإنّه يسترجع الحياة مرّة اُخرى ! »(١).

ولو كان الإيمان بالله والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملا بهذا الحجم ولما استمرّ طيلة التاريخ . وهذا أفضل دليل على أنّه أمر فطري .

ب ــ الآثار التاريخية :

إنَّ الآثار المتبقّية من العصور التي سبقت التاريخ ( أي ما قبل اختراع الخطّ وكتابة أحوال الإنسان ) تدلّ على أنّ البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون بالله والمعاد

والحياة بعد الموت ، بدليل أنّهم كانوا يدفنون الأشياء التي يحبّونها معهم كي يستفيدوا منها بعد الموت ! كما أنّ تحنيط أجساد الأموات حفظاً لها من الإندثار ، وبناء المقابر نظير ( أهرام مصر ) لتبقى أزماناً متمادية دليل على إيمان الأسلاف بالمبدأ والمعاد .

صحيح أنّ هذه الأعمال تدلّ على اقتران إيمانهم الديني بخرافات كثيرة إلاّ أنّها دليل على أنّ الإيمان الديني في المراحل التي سبقت التاريخ لا يمكن إنكاره .

جـــ ــ الدراسات النفسية ومكتشفات علماء النفس :

إنّ الأبعاد الروحية للإنسان وميوله الأساسية هي أيضاً دليل واضح على فطرية العقائد الدينية . وهي أربعة ميول سامية وأصيلة عبّر عنها بعض علماء النفس بأنّها الأبعاد الأربعة لروح الإنسان وتشمل : ( ١ ــ حبّ العلم ، ٢ ــ حبّ الجمال ، ٣ ــ حبّ الخير ، ٤ ــ حبّ الدين ) وتمثّل شاهداً حيّاً على هذا الأمر(٢).

---

١ ــ الفطرة للشهيد المطهّري : ص١٥٣ .

٢ ــ راجع مقالة ( كوونتايم ) في كتاب ( الحسّ الديني أو البعد الرابع لروح الإنسان ) .



وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة أبعاد هي ( ١ ــ مقولة البحث عن الحقيقة ، ٢ ــ مقولة الخير الأخلاقية ، ٣ ــ مقولة الجمال ، ٤ ــ مقولة الإبداع ، ٥ ــ مقولة العشق والعبادة )(١).

ويبدو أنّ مقولة الإبداع لا تنفكّ عن مقولة البحث عن الحقيقة .

على أي حال فانّ حبّ العلم يوجد في الإنسان ميلا شديداً نحو العلم وفهم أسرار عالم الوجود ، وهذا الإحساس يشمل الاُمور المؤثّرة وغيرها في حياته .

ونريد أن نعلّم كيف كانت الدنيا قبل مليار عام وكيف ستكون بعد مليار عام ؟ دون أن تكون لهذه الاُمور في فهمها على الحياة الفردية والإجتماعية تأثيرات عملية ، فهذا الحسّ هو السبب في ظهور العلوم والمعارف .

إنَّ الجمال الذي يشعر به كلّ إنسان في أعماقه هو الذي يدفعه إلى الإبداع وهو المصدر الأساس لكلّ الفنون .

وإنَّ حبّ الخير هو السبب في ظهور الأخلاق والإلتزام في الإنسان تجاه المبادي من قبيل العدل ، الحرية ، الصد ، وأمثالها ، ومن الممكن أن لا يلتزم كثير بهذه المبادي عمليّاً غير أنّه لا ريب في إرتياح قلوبهم لها .

البعد الرابع لروح الإنسان والمعبّر عنه أحياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدّس والإلهي هو الذي يدفع الإنسان نحو الدين ، وهو يؤمن بوجود ذلك المُبديء العظيم بدون حاجة إلى دليل خاصّ ، ويمكن أن يقترن هذا الإيمان الديني بألوان من الخرافات وينتهي بعبارة الأصنام والشمس والقمر ، غير أنّ بحثنا يدور حول الأساس فيه .

د ــ فشل الدعاية ضدّ الدّين :

نحن نعلم بأنّ الدعايات أشدّ شُنّت ضدّ الدين في القرون الأخيرة وخاصّة

---

١ ــ كتاب الفطرة للشهيد المطهّري : ص٦٤ .



في الغرب ولا نظير لها سعة وإستخداماً للأجهزة المختلفة .

وكانت بداياتها في مرحلة النهضة العلمية في اوربا ( رنسانس ) وفيها تحرّرت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطغى التيار المعارض للدين ( كان الدين المسيحي هو السائد وقتئذ في اوربا ) إلى درجة تُطرح فيها الأفكار الملحدة في كلّ مكان واستغلّوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاصّ لرفض الاُسس الدينية كلّها حتّى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة ، وإنعزل رجال الدين في اوربا وأصبح الإيمان بوجود الله والمعجزات والمعاد والكتب السماوية في عداد الخرافات .

وغدا من المسلّمات لدى كثير منهم أنَّ البشرية مرّت بمراحل أربع هي ( مرحلة الأساطير ، مرحلة الدين ، مرحلة الفلسفة ، ومرحلة العلم ) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد إنقرض في مرحلة سابقة !

والعجيب أنّ كتب علم الإجتماع الحديثة التي تمثّل الصورة المتكاملة لعلم الإجتماع السائد آنذاك تفترض هذه القضيّة من المسلّمات ، وهي أنّ للدين عاملا طبيعيّاً يتردّد بين الجهل والخوف والمتطلّبات الإجتماعية والاُمور الإقتصادية ، فهناك إختلاف بصددها !

صحيح أنّ السلطة الدينية الحاكمة ( أي الكنيسة ) في القرون الوسطى هي التي يجب أن تدفع الغرامة بسبب تعنتِها وظلمها وتعاملها السيّ مع الناس بصورة عامّة وعلماء الطبيعة بصورة خاصّة ، إضافةً إلى إهتمام الكنيسة بالشكليات وبالاُمور التي لا تستحقّ الإهتمام ونسيان طبقات المجتمع ، لكن العيب في هذا الأمر هو أنّ الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب في العالم كلّها .

وقد دخل ( الشيوعيون ) كغيرهم الميدان ليقضوا على الدين بكلّ ما يمتلكون من قوّة ، وسخّروا جميع الأجهزة الإعلامية وأفكار فلاسفتهم من أجل ذلك وسَعَوْا سعيهم لإظهار الدين وكأنّه افيون الشعوب !

[١١٦]

بيد أنّا نشهد انّ هذه التيارات العاتية ضدّ الدين لم توفّق لإجتثاث

الجذور الدينية المغروسة في القلوب والقضاء على النشاط الديني ، وها نحن اليوم بأُمّ أعيننا تفتّح الأحاسيس الدينية من جديد حتّى أنّها انتشرت بصورة واسعة في البلدان الشيوعية ، والأخبار التي تتناقلها وسائل الإعلام تحكي عن الرعب المتزايد الذي يعيشه الحكّام في هذه المناطق إزاء الميول الدينية وخاصّة الإسلامية ، كما نلاحظ في الأقطار الشيوعية ــ التي تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء على الدين ــ ظهور حركات تطالب بانتشار الدين .

هذه الحقائق تدلّ بصورة واضحة على تجذّر الدين في أعماق ( الفطرة ) البشرية ، وبذلك إستطاع أن يواجه التيارات الإعلامية المعارضة العاتية ولولاها لإنقرض تماماً .

هــ ــ التجارب الشخصية في الأزمات :

إنَّ أغلب الناس جرّبوا هذه الحقيقة وهي : أنّ الإنسان حينما يواجه مشكلات قاتلة ، وشدائد الحياة الصعبة ، ويُبتلى بدوّامات البلاء وحينما توصد بوجهه الأبواب ويبلغ السيل الزبى ، ففي هذه اللحظات المضطربة يورق أمل في أعماق روحه ، يتوجّه إلى المبدأ القادر على حلّ المشكلات كلّها فيتعلّق به ويستمدّ العون منه .

ولا يستثنى من ذلك حتّى الأشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية في الظروف الإعتيادية ، حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرّضهم للأمراض الخطرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التي تتحدّث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الإلهية .

نعم ، في زوايا قلب الإنسان وأعماق روحه نداء لطيف مليء بالرحمة وقوي وبيّن يدعوه إلى الحقيقة الكبرى ، وهي ( الله ) القادر والمتعالي والعالم ، وبحثنا



يدور حول الإيمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها .

و ــ شهادة العلماء على فطرية الدين :

ليست قضيّة فطرة ( معرفة الله ) قضيّة مطروحة في القرآن الكريم والروايات الإسلامية فحسب ، بل إنّ كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها :

فمثلا ، يقول اينشتاين في حديث طويل : « إنّ العقيدة والدين موجودان في الجميع دون استثناء ... إنّي اُسمّيه ( الشعور الديني للخلق ) .. في هذا الدين يشعر الإنسان الصغير بآمال وأهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر ، إنّه يرى وجوده كسجن ، وكأنّه يريد التحرّر من سجن الجسم ليدرك الوجود كلّه كحقيقة واحدة »(١).

ويقول العالم الشهير باسكال :

« للقلب أدلّة لا يدركها العقل »(٢).

ويقول ويليم جيمز :

« إنّي أقرّ تماماً بأنّ القلب هو المصدر للحياة الدينية ، كما أُقرّ بأنّ القواعد الفلسفية تشابه موضوعاً مترجماً كُتب نصّه بلغة أُخرى »(٣).

ويقول ماكس مولر :

« لقد خضع أسلافنا لله في عصور لم يكونوا قادرين فيها حتّى على إطلاق اسم على الله »(٤).

وهو القائل في موضع آخر : « خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأنّ الدين ظهر

---

١ ــ العالم الذي أراه : ( بتلخيص ) ص٥٣ .

٢ ــ مسيرة الحكمة في اوربا : ١٤/٢ .

٣ ــ المصدر السابق : ص٣٢١ .

٤ ــ ( مقدّمة الدعاء ) : ص٣١ .



أوّلا بعبادة الطبيعة والأشياء والأصنام ثمّ وصل إلى عبادة الله الواحد . فلقد أثبت علم الآثار بأنّ عبادة الله الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيّام »(١).

ويقول المؤرّخ الشهير ( بلوتارك ) :

« لو لاحظتم العالم فإنّكم ستجدون أماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة ودولة ، ولكنّكم لا تجدون موضعاً ليس فيه الله »(٢).

ويقول صموئيل كينغ سكتاب ( علم الإجتماع ) : « كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحالة والمبشّرون ( المسيحيون ) الأوائل بذكر أسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب ، ولكن أقوالهم ــ كما عُلّم فيما بعد ــ لم يكن لها أساس من الصحّة فأحكامهم ناشئة فقط من ظنّهم بأنّ أديان أُولئك يجب أن تشابه ديننا »(٣).

ونختم هذا البحث بكلام لـــ ( ويل دورانت ) المؤرّخ المعاصر الشهير حيث قال : « إن لم نتصوّر للأديان جذوراً في عصر ما قبل التاريخ ، فإنّنا لا يمكن أن نتعرّف على حقيقتها في التاريخ »(٤).

* * *

٤ ــ الفطرة في الروايات الإسلامية :

إنّ قضيّة فطرية التوحيد في العبادة بشكل خاصّ ، أو الدين والمذهب بصورة عامّة ، أمر فطري ذو إنعكاس كبير في الروايات الإسلامية بالرغم من إختلاف التعبير فيها ، ففي بعضها عرض لقضيّة التوحيد وتوحيد العبادة كأمر

---

١ ــ الفطرة للشهيد المطهّري : ص١٤٨ .

٢ ــ ( مقدّمة الدعاء ) : ص٣١ .

٣ ــ علم الإجتماع لصموئيل كينغ : ص١٩١ .

٤ ــ تاريخ الحضارة : ٨٨/١ .



فطري كما في الحديث الآتي ، حيث سأل أحد أصحاب الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) ــ وهو علاء بن فضيل ــ عن الآية الكريمة ( فطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيها )فأجاب ( (عليه السلام) ) : « التوحيد »(١).

كما ورد هذا المضمون في أحاديث عديدة أُخرى(٢).

وفي القسم الآخر من هذه الأحاديث اعتبرت ( معرفة الله ) أمراً فطرياً ، كالحديث الذي يرويه زرارة عن الإمام الباقر ( (عليه السلام) ) حينما سأله عن تفسير الآية ( حُنَفاءَ لله غيرَ مُشركِين ) : أهي الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ؟ قال ( (عليه السلام) ) : فطرهم الله على المعرفة » ... وقال : قال رسول الله ( (عليه السلام) ) : كلّ مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأنّ الله عزّوجلّ خالقه(٣).

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في أحاديث أُخرى(٤).

وبعض الروايات تعرّف ( الأُصول الإسلامية ) كلّها أمراً فطرياً ، كما نقرأ في الحديث النبوي الشريف « كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه »(٥).

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنّية هذا الحديث بكثرة وهو من الأحاديث الشهيرة جدّاً .

ويلاحظ نظير هذا المضمون في روايات أُخرى وفيها تأكيد على قضيّة التوحيد ونبوّة الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وولاية علي ( (عليه السلام) )(٦).

وختاماً فإنّ بعض الروايات تؤكّد على قضيّة الولاية ، كما نقرأ الحديث الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الباقر ( (عليه السلام) ) في آية البحث حيث عبّر عن المقصود

---

١ ــ بحار الأنوار : ٢٧٧/٣ الحديث ٤.

٢ ــ المصدر نفسه : الحديث ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ .

٣ ــ بحار الأنوار : ٢٧٩/٣ الحديث ١١.

٤ ــ بحار الأنوار : ٢٧٩/٣ ، الحديث ١٢ ، ١٣.

٥ ــ غوالي اللآلي : ( طبقاً لبحار الأنوار : ٢٨١/٣ ، الحديث ٢٢ ) .

٦ ــ بحار الأنوار : ٢٧٧/٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، الحديث ٣ ، ٩ ، ١٨ .



في الآية بأنّه « الولاية »(١).

وواضح أنّ هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها أبداً ، فالأُصول الدينية ــ في الحقيقة ــ توجد في الفطرة البشرية بصورة مركّزة ، غير انّ بعض الروايات تشير إليها كلّها وبعضها الآخر يشير إلى قسم منها .

وفي الحقيقة فإنّ فطرة التوحيد لا يمكن أن تنفصل عن أُصول العقيدة لأنّ الله الحكيم لم يخلق العباد عبثاً ، ومن البديهي أنّه وضع تكاليف ومناهج لتكامل العباد يجب إبلاغها عن طريق

الرسل ، ويحفظها أوصياؤهم وتنفذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومة الإسلامية وتظهر نتائجها في عالم الآخرة .

وبإختصار فإنّ في متناولنا روايات كثيرة حول فطرية التوحيد والإسلام وللمزيد يمكن مراجعة مصادر أُخرى .

مثل تفسير البرهان الجزء ٢ ، صفحة ٤٦ وما بعدها .

مرآة العقول الجزء ٧ ، صفحة ٥٤ وما بعدها .

تفسير نور الثقلين الجزء ٤ ، صفحة ١٨١ وما بعدها .

تفسير الدرّ المنثور الجزء ٣ ، صفحة ١٤٢ وما بعدها .

بحار الأنوار الجزء ٣ ، صفحة ٢٧٦ وما بعدها .

* * *

---

١ ــ المصدر السابق : الحديث ٢ .



وحدانية الذات المقدّسة

« أهمّ أصل في معرفة الله »





تمهيد :

توصّلنا فيما سبق من أبحاث إلى إثبات وجود الله سبحانه من طرق مختلفة ( خمسة أدلّة عقلية رئيسة ) إضافةً إلى طريق الفطرة الذاتية .

الآن وبعد الإيمان بأصل وجوده فإنّ البحث يدور حول معرفته ، والموضوع المهمّ فيه هو بحث التوحيد والوحدانية ، لأنّه من جهة يعتبر أصلا لبقية الصفات . ومن جهة أُخرى يشكّل الأساس في كلّ الأديان السماوية خصوصاً القرآن حتّى أنّ أغلب ما تتضمّنه هذه الكتب السماوية بصدد وجود الله تدور حول محور هذا البحث ، إلى الحدّ الذي ظنّ فيه بعض بأنّ القرآن لا يتحدّث عن ( أصل وجود الله ) بل إنّه يتحدّث عن توحيده والإستدلال على ذلك ، وهذا الكلام مبالغ فيه .

ومن جهة ثالثة تُستمدّ جميع العقائد الإسلامية والأحكام والقوانين والاُمور الإجتماعية والأخقية والعبادية من هذا الأصل ، لذلك أولى القرآن الكريم إهتمامه الخاصّ لقضيّة ( التوحيد والشرك ) وعكس القرآن برمّته النظرية الإسلامية بهذا الصدد ، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حَظِيَ بهذه الدرجة من الإهتمام في القرآن الكريم مثلما حظي بها ذلك الموضوع .

كما أنّ قضيّة التوحيد ومحاربة الشرك لم تكن محوراً أساسياً في حركة الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) فحسب ، بل وفي حركة سائر الأنبياء ( (عليهم السلام) ) .

بهذا التمهيد نطّلع أوّلا على عِظم معصية الشرك في القرآن المجيد ، ثمّ نذكر الأدلّة القرآنية المختلفة على إثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك .

في البدية نُصغي خاشعين الآيات الآتية :

١ ــ ( إنَّ الله لا يَغفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَد



افتَرى إثْماً عَظيماً ) سورة النساء ــ ٤٨ .

٢ ــ ( إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعيداً ) سورة النساء ــ ١١٦ .

٣ ــ ( وَلَقَد اُوحِيَ إلَيْكَ وَإلى الّذينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ) سورة الزمر ــ ٦٥ .

٤ ــ ( وَإذْ قالَ لُقْمانُ لِابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يابُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ ) سورة لقمان ــ ١٣ .

٥ ــ ( وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهوي بهِ الرّيحُ في مَكان سَحيق ) سورة الحجّ ــ ٣١ .

٦ ــ (قُلْ تَعالَوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً) سورة الأنعام ــ ١٥١.

٧ ــ ( إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمأويهُ النّارُ وَمَا لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصار ) سورة المائدة ــ ٧٢ .

٨ ــ ( يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا إِنَّما المشرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْربوا المَسْجِدَ الحرامِ بَعْدَ عامِهِمْ هذا .. ) سورة التوبة ــ ٢٨ .

٩ ــ ( وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى النّاسِ يَوْمَ الحجِّ الأَكْبر أَنَّ اللهَ بَريء مِنَ المُشرِكينَ وَرَسُولُه ... ) سورة التوبة ــ ٣ .

١٠ ــ ( الزّانِي لا يَنْكِحُ إلاّ زانِيةً أَوْ مُشْرِكةً والزّانيةُ لا ينكِحُها إلاّ زان أَوْ مُشْرِكٌ .. ) سورة النور ــ ٣ .

١١ ــ ( قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وإِلَيهِ مَآب ) سورة الرعد ــ ٣٦ .

١٢ ــ ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ إِنّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ * ألاّ تَعْبُدوا إلاّ اللهَ إِنّي أَخافُ عَلَيكُمْ عَذَابَ يَوْم أَليم )(١).

---

١ ــ هود ــ ٢٥ ، ٢٦ ، جاء هذا المضمون في آيات قرآنية أُخرى مثل هود : ٢ ، الإسراء : ٢٣ ، يس : ٦٠ ، فصّلت : ١٤ ، إضافة إلى آيات عديدة أُخرى عبارات مختلفة تتعلّق بأهميّة التوحيد وقبح الشرك بجميع صوره وأشكاله ، لو جمعت وفسّرت لتألّف منها كتاب كبير ، وما ورد أعلاه هي النماذج المهمّة منها .



١٣ ــ ( قُلْ إِنَّما يُوحى إِليَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسلِمون ) سورة الأنبياء ــ ١٠٨ .

١٤ ــ ( قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهِيمَ وَالّذينَ مَعَهُ إذْ قالُوا لِقَومِهِمْ إنّا بُرَءؤٌ مِنْكُم وَمِمّا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ العَداوَةُ وَالبَغْضَاء أَبداً حَتّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ .. ) سورة الممتحنة ــ ٤ .

شرح المفردات :

( شِرك ) : ذُكر لها في مقاييس اللغة معنيان : الأوّل : هو التعاون والمقارنة والشركة ويقابله الإنفراد .

والثاني : هو الشيء المستقيم والممتدّ .

والمعروف من مشتقّات هذه المفردة هو المعنى الأوّل ، وللمعنى الثاني مصطلحات خاصّة منها ( شِراك ) للحذاء ، و ( شَرَك ) الطرق الضيّقة المستقيمة التي تتفرّع من الطريق العام أو بمعنى القسم الأوسط من الطريق المستقيم ، كما يعني الفخّ الذي ينصبه الصيّاد .

ويُصرّ بعض اللغويين على إرجاع المعنيين إلى المعنى الأوّل ، إلاّ أنّه لا يخلو من تكلّف ، كما لا دليل يدعو للإصرار على ذلك(١).

وقد استُعمل ( الشرك ) في القرآن الكريم عادةً بمعنى الإعتقاد بوجود ندٍّ لله سبحانه والتوافق على وجود المثيل والشريك في الذات أو الصفات أو الخلق والتدبير أو المماثل له في العبودية .

---

١ ــ راجع كتاب ( التحقيق في كلمات القرآن الكريم ) ، صحيح أنّ أغلب الكلمات المشتركة ترجع إلى مصدر واحد ولكن لا يمكن القول أنّ ذلك يصدق في جميع الموارد ، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم إحداهم بالأُخرى .



يقول الراغب في المفردات : الشرك في الدين ضربان :

أحدهما : الشرك العظيم وهو إثبات شريك لله تعالى وذلك أعظم كفر .

والثاني : الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله في بعض الأُمور وهو الرياء والنفاق(١).

( واحد ) مشتقّ من ( وحدة ) ويعني في الأصل ــ كما يقول الراغب في المفردات ــ : الشيء الذي لا جزء له ، ثمّ اتّسع إستعماله حتّى أخذ يطلق على كلّ شيء يتّصف بالوحدانية . ويضيف :

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستّة أوجه : ١ ــ ما كان واحد في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد في الجنس وزيد وعمرو واحد في النوع ٢ ــ ما كان واحداً بالاتّصال إمّا من حيث الحلقة كقولك شخص واحد وإمّا من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة ٣ ــ ما كان واحداً لعدم نظيره ٤ ــ ما كان واحداً لإمتناع التجزّي ٥ ــ لمبدأ العدد كقولك واحد إثنان ٦ ــ لمبدأ الخطّ كقولك النقطة الواحدة وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لا يصحّ عليه التجزّي ولا التكثّر(٢).

« وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد ، غير أنّ الأحد إنّما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لا يقبل العدّ ، ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإنّ كلّ واحد له ثان وثالثٌ إمّا خارجاً أو ذهناً ] كـ [ قولك : ما جاءني من القوم أحد ، فإنّك تنفي به مجيء إثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت : ما جاءني واحد منهم فإنّك إنّما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجيء إثنين منهم أو أكثر ... »(٣).

---

١ ــ مفردات الراغب : ص٢٦١ مادّة شرك ، لسان العرب ، التحقيق ، مقاييس اللغة ، جمهرة اللغة وكتب أُخرى .

٢ ــ مفردات الراغب : ص٥٥١ مادّة واحد . لسان العرب ، التحقيق من مقاييس اللغة ، جمهرة اللغة وكتب أُخرى .

٣ ــ تفسير الميزان : ج٢٠ ص٣٨٧ .



واحتمل بعضٌ أنّ ( أحد ) يقابل المركب و ( واحد ) يقابل المتعدّد ، غير أنّ المستفاد من موارد الإستعمال في القرآن انّهما بمعنى واحد ، وسنفصّل ذلك في المستقبل بإذن الله .

جمع الآيات وتفسيرها :

الذنب الذي لا يُغتفر

تصرّح آية البحث الأُولى بأنّ الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغتفر حيث تقول : ( انَّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ ) .

ومفهوم هذه العبارة هو أنّ جميع الذنوب الكبيرة والمظالم والجرائم والقبائح لو وضعت في كفّة ميزان ووضعَ الشرك في الكفّة الأُخرى لرجّحت كفّة الشرك .

ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل : ( ومَنْ يُشرِك باللهِ فَقَد افترَى إثْماً عَظيماً ) .

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت في اليهود ( بقرينة الآيات اللاحقة ) حيث اتّحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقدّسون أصنامهم ويعتقدون ــ في الوقت ذاته ــ أنّهم من أهل النجاة !

ولو سلّمنا بشأن النزول هذا فإنّه لا يضيق دائرة مفهومها ، وقال بعض : إنّ الآية نزلت في جمع من المشركين ( كوحشي قاتل حمزة عمّ النبي ، وأمثاله ) وقد ندموا على فعلهم بعد مدّة وكتبوا إلى رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : « إنّا قد ندمنا على الذي صنعناه وليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ إذا سمعناك تقول وأنت بمكّة : (والّذين لا يَدعُون مع اللهِ اِلهاً آخر ولا يقتُلون النفسَ التي حرّم اللهُ إلاّ بالحق ولا يزنُون ... ) وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا فلولا هذه لأتّبعناك فنزلت الآية : ( إلاّ مَن تابَ وعَمِلَ عَملا صالِحاً ... ) ، فبعث بهما رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) إلى وحشي وأصحابه ، فلمّا قرؤوهما كتبوا إليه : إنّ هذا



شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: « إنّ الله لا يغفر ... فبعث بها إليهم فقرؤوها فبعثوا إليه : إنّا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت : ( ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله انّ الله يغفر الذنوب جميعاً ) ، فبعث بها إليهم فلمّا قرؤوها دخل هو وأصحابه في الإسلام ورجعوا إلى رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) فقبل منهم ... »(١).

على أي حال فإنّ الآية كما يقول كثير من المفسّرين ــ هي إحدى الآيات القرآنية التي تبعث روح الأمل حيث تقول : إنَّ الإنسان إذا خرج من الدنيا بإيمانه فإنّه سوف لا ييأس من رحمة الله ، ولكن إذا خرج بلا إيمان أي في حالة شرك فإنّه لا سبيل له إلى النجاة .

* * *

الآية الثانية تتحدّث عن مضمون الآية السابقة ذاته مع فارق هو أنّها تقول في ذيلها : ( وَمَنْ يُشرك بالله فَقَد ضَلَّ ضَلالا بعيداً ) والكلام في الآية السابقة دار حول الإثم العظيم وأمّا هنا فهو يدور حول الضلال البعيد ، وهذا أمران متلازمان إذ انّ الذنب كلّما كان أعظم فإنّه يبعّد الإنسان أكثر ويزيده ضلالا .

والآية السابقة لاحظت الجانب العلمي والعقائدي من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له ، ومن الأكيد أنّ هذه الآثار تنشأ من تلك الجذور .

* * *

الآية الثالثة تحمل أوضح التعابير وأقساها عن عاقبة الشرك والإنحراف

---

١ ــ تفسير مجمع البيان : ٥٦/٣ .



عن التوحيد حيث تخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : ( لقد أُوحيَ اِليكَ وإلى الّذين مِنْ قَبْلِكَ لَئِن اَشْرَكتَ لَيَحبطنَّ عَملُكَ ولتكُونَنَّ من الخاسِرينَ ) .

ومن الثابت أنّ رسول الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وكلّ نبي من الأنبياء ( (عليهم السلام) ) لم يسلكوا ــ لعصمتهم ــ طريق الشرك أبداً ، إلاّ أنّ الآية ومن أجل بيان أهميّة المسألة ولكي يحسب الآخرون حسابهم قامت ببيان أخطار الشرك بهذه الدرجة من الحزم .

وإستناداً إلى هذه الآية فلو أفنى الإنسان حياته في العبادة وعبودية الله ومارس الأعمال الصالحة ولكنّه أشرك في آخر عمره لحظةً واحدة ومات بتلك الحالة فإنّ أعماله سوف تُحبط ، فالشرك بمنزلة صاعقة محرقة تَلتَهم حصيلة عمره وتصيّره رماداً . وكما أشار القرآن الكريم في الآية ١٨ من سورة إبراهيم إلى أنّه رماد إشتدّت به ريح عاصف .

( ليحبطنّ ) من ( حبط ) وأصله ( حَبَط ) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلأ حتّى ينتفخ فيمرض ثمّ يموت ، ثمّ استعمل في الأعمال الكثيرة ذات المظهر الجميل ولكن باطنها فاسد وتؤول إلى الفناء(١).

وقد جاء نظير ذلك في ( لسان العرب ) و ( مصباح اللغة ) ، غير أنّ لسان العرب ذكر أنّ أحد معاني ( إحباط ) هو جفاف ماء البئر وعدم توقّفه .

وفي ( مقاييس اللغة ) أنّ الأصل في معناه هو ( البطلان ) أو ( الألم ) كما أنّ ( حبط ) يطلق كذلك على الجرح بعد شفائه .

على أي حال فإنّ هذه المفردة في آية البحث والكثير من الآيات والروايات تعني إبادة ثواب الأعمال الصالحة وزوال آثارها الإيجابية .

وهناك أبحاث حول حقيقة حبط الأعمال وكيفيته ولكن لا مجال لبيانها .

* * *

---

١ ــ مفردات الراغب : ( مادّة حبط ) .



## أعظم الظلم

نقرأ في الآية الرابعة تعبيراً مهولا حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يعِظ إبنه بقوله ( يابُنَيّ لا تُشرِكْ بالله اِنَّ الشرِكَ لظلمٌ عظيمٌ ) .

ولقمان وإن لم يكن نبيّاً ــ كما هو المشهور ــ إلاّ أنّه كان رجلا حكيماً ومفكّراً لله وقد أيّد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه في عرض كلام الله عزّوجلّ ، وبالتأكيد أنّ مثل هذا الرجل بعلمه وحكمته وإحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه إبنه فإنّه يقدّم له أخلص النصائح والمواعظ .

النصيحة الاُولى من النصائح العشر التي ينقلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لإبنه هي النصيحة بالإحتراز المطلق من الشرك ، ممّا يدلّل على أنّ الأساس في بناء الفرد والإصلاحات الفردية والإجتماعية والأخلاقية كلّها ، هو مقارعة الشرك بكلّ إشكاله وصوره ، وسيكون لنا كلام ــ بإذن الله ــ في بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا .

وقد إحتمل بعضٌ أنّ ابن لقمان كان مشركاً فنهاه أبوه ولكن ــ كما يقول بعض المفسّرين ــ : يمكن أن يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهميّة القضيّة نظير ما ورد في الآية السابقة من تحذير إلهيٍّ للأنبياء .

والتعبير بــ ( ظلم عظيم ) ذو مضمون كبير ، فالظلم في الأصل يعني كلّ إنحراف عن الحقّ ووضع الشيء في غير محلّه ، وأسوأ أنواع الظلم هو الظلم الذي يكون بحقّ الله ، عباده ونفسه ، وهكذا الشرك .

فأي ظلم وإنحراف أشدّ من جعلهم موجودات لا قيمة لها بمستوى خالق السماوات والأرض وجميع الموجودات ؟ وأي ظلم أشدّ على عباد الله من إنحرافهم عن جادّة التوحيد النورانية إلى ظلامات الشرك ؟ وأي ظلم أشدّ على النفس من أن يؤجّج الإنسان ناراً ليحرق فيها حصيلة أعماله الصالحة ويُحوّلها



إلى رماد ؟!

* * *

السقوط الموحش

تصرّح الآية الخامسة بعد أنْ أمَرت المسلمين بأن يكونوا موحّدين غير مشركين ومن خلال تشبيه ذي معنى كبير : ( وَمَنْ يُشرِك بالله فَكأنَّما خَرَّ من السماءِ فَتَخطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهوِي بهِ الرِّيحُ في مكان سَحيق )(١).

وقد شبّهت الآية ( الإيمان ) بــ ( السماء العالية ) و ( الشرك ) بــ ( السقوط من هذه السماء ) ] لاحظوا أنّ ( خرّ ) كما يقول اللغويون : يعني السقوط المقرون بضجّة وليس المجرّد منها ! . ]

وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكتنف بخطرين عظيمين هما :

أنّ الساقط إمّا يكون فريسة للطيور الكاسرة أو يتلاشى في مكان بعيد عن الماء والناس .

وهذه العبارات الموحشة توضّح أبعاد الشرك الواسعة .

وهذه الطيور في الحقيقة هي الصفات القبيحة الباطنية أو الفئات المنحرفة في الخارج والتي تنصب الكمين لمن ينحرف عن جادّة التوحيد ، و ( الريح ) هي تلك الشياطين الذين تعبّر عنهم الآية ( ٨٣ ) من سورة مريم : ( ألم تَرَ أَنّا اَرسَلْنا الشياطين على الكافِرينَ تَؤُزُهُم أزّاً ) حيث تذهب إلى المشركين وتضع حلقات في رقابهم وتسحبهم إلى كلّ جانب ، أو انّها الأعاصير الإجتماعية العاتية والفتن السياسية والفكرية والأخلاقية التي لا يصمد أمامها إلاّ من ثبتت قدماه في طريق التوحيد .

---

١ ــ تخطف من ( خطف ) وهو الاستلاب بسرعة و ( سحيق )من ( سحق ) وهو طحن الشيء وقد تعطي هذه المفردة معنى ( الملابس البالية ) أو ( المكان البعيد ) والأخير هو الأنسب في مورد الآية من غيره .



* * *

في الآية السادسة يُؤمر النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) بتبيان المحرّمات للناس وفي مقدّمتها الشرك حيث تقول : ( قُلْ تَعالَوا اَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُكمْ عَلَيكُمْ ... )(١).

ثمّ تذكر أوامر إلهية عشرة عرفت بــ ( أوامر النبي العشرة ) ؛ وأوّلها هو الدعوة إلى التوحيد حيث تقول : ( اَن لا تُشركوا به شيئاً ) راجع التفسير الأمثل للإطّلاع على الشروح والأوامر التسعة المتبقّية في ذيل هذه الآيات .

* * *

## الجنّة محرَّمة على المشركين

الآية السابعة تشير بتعبير جديد إلى خطر الشرك ، حيث تنقل عن السيّد المسيح ( (عليه السلام) ) خطابه إلى بني اسرائيل : ( إنَّه مَنْ يُشرِك باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الجَنّةَ ومأويهُ النَّارُ ) .

في الجملة الأُولى يلاحظ ذكر لفظ الجلالة كما يلاحظ تكرارها في الجملة الثانية ( فقد حرّم الله عليه الجنّة ) وهي تقتضي إستعمال الضمير ، وذلك للتأكيد على أهميّة المسألة .

وتضيف الآية في ذيلها : ( وما للظالِمينَ منْ أنصار ) .

وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجرأة في الدفاع عنهم

---

١ ــ تعالوا من ( علو ) ويعني أن يقف شخص على مرتفع ثمّ يدعو الآخرين إليه ( أي اصعدوا ) ثمّ توسّع إستعماله وشمل كلّ دعوة ( المنار ١٨٣/٨ ) ومن الممكن أن يكون لامراد في هذه الدعوات الإلهية هو المعنى الأصلي حيث يريد النبي أن يصعد بالناس إلى مستوى أرفع وأسمى .



يوم القيامة .

* * *

الله بريء من المشركين

نواجه في الآية الثامنة قضيّة جديدة بهذا الصدد حيث تخاطب المؤمنين : ( يا اَيُّها الّذِينَ آمَنوا اِنّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ ) ثمّ تقول : ( فَلا يَقرَبوا المَسجِدَ الحرامَ بَعدَ عامِهِم هذا ).

وتتضمّن الآية تأكيدات من عدّة جهات :

الأول : أنّها إستعملت ( إنّما ) والتي تدلّ على الحصر ، ومفهومها أنّ المشركين ليسوا إلاّ موجودات فاسدة ونجسة وفي ذلك أكبر تأكيد ومبالغة . والثاني : أنّ ( نَجَسٌ ) يتضمّن معنى المصدر ، أي أنّ المشركين هم عين النجاسة! كما يقال فلان عين العدل ، وهذا غاية في المبالغة(١).

والثالث أنّها لم تقل : « فلا يُدْخُلُوا المَسجِدَ الحَرامَ » بل ( فلا يقربوا )بمعنى أنّ المشركين من القذارة ما يخشى على هذا المكان المقدّس أن يتعرّض لها عند إقترابهم منه ! .

* * *

في الآية التاسعة نلاحظ إشارة إلى نقطة اُخرى حيث نزلت ــ مع مجموعة من الآيات في السنة التاسعة للهجرة ــ بصفتها إعلاناً عامّاً ، وقد اُمر أمير

---

١ ــ ( نَجسٌ ) مصدر و ( نجِس ) صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب في المفردات :

النجاسة : القذارة وذلك ضربان : ضرب يدرك بالحاسّة وضرب يدرك بالبصيرة ( المفردات مادّة نجس : ص٥٠٣ ) وفي مجمع البيان : كلّ مستقذر نجس يقال : رجل نجس وامرأة نجس ، المجمع : ج٥ ، ص٢٠ .



المؤمنين ( (عليه السلام) ) بتلاوتها على الناس في مواسم الحجّ ( وأَذانٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى النّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الاكبَرِ اِنَّ اللهَ بريءٌ من المُشرِكينَ ورسولُه )(١).

والتعبير بالبراءة من قبل الله ورسوله من المشركين بوصفه إعلاناً عامّاً في أكثر أيّام الحجّ حساسية دليل على النفور من المشركين وبيان لضخامة معصية الشرك بأجلى صوره .

* * *

ونلاحظ في الآية العاشرة تعبيراً جديداً ، حيث اعتبرت المشرك والمشركة في عرض الزاني وقال : ( الزّانِي لا يَنْكِحُ إلاّ زانِيةً أوْ مُشْرِكةً والزّانيةُ لا ينكِحُها إلاّ زان أوْ مُشْرِكٌ .. ) .

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعي وإلهي وهو حرمة الزواج من أهل الزنا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجي وهو أنّ القذر يتبع القذر
دائماً ، وكلّ نوع يطير مع نوعه فهو شاهد بليغ على قبح معصية الشرك ، لأنّها اعتبرت المشركين كالملوّثين بالزنا والفاقدين للقيم الخُلُقية والسجايا
الإنسانية .

والحديث الوارد عن النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : « لا يزني الزاني حِينَ يزني وهوَ مؤمنٌ ولا يَسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ فإنّه إذا فعلَ ذلك خُلِعَ عنهُ الإيمانُ كَخَلَع القَميص »(٢) وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين ، وسيأتي شرحُهُ بإذن

---

١ ــ فسّر الكثير من المفسّرين ( يوم الحجّ الأكبر ) بعيد الأضحى وهو أهمّ أيّام الحجّ ، والروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت ( (عليهم السلام) ) وأبناء العامّة تؤيّد هذا المعنى ، في حين فسّره منهم بيوم عرفة وبعضهم الآخر بمجموع أيّام الحجّ التي يطلق عليها ( الحجّ الأكبر ) وتقابل العمرة وهي ( الحجّ الأصغر ) ، وقد خصّصها بعض بسنة نزول الآية حيث شارك المسلمون والمشركون في مراسم الحجّ في تلك السنة ، وواضح أنّ التفسير الأوّل هو الأرجح من هذه الإحتمالات الأربعة .

٢ ــ تفسير نور الثقلين : ج٣ ، ص٥٧١ ، الحديث ٢٠ .



الله .

من الواضح أنّ زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام ، وأمّا الزواج بأهل الزنا فإنّ بعضاً يرى بأنّهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلا أيضاً .

والأحاديث العديدة التي نقلت عن النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) والإمام الباقر ( (عليه السلام) ) والإمام الصادق ( (عليه السلام) ) شاهد آخر على هذا المعنى .

وقد كتب بعض المفسّرين في شأن نزول هذه الآية ما يلي : أنّ رجلا من المسلمين استأذن النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) في أن يتزوّج ( أُمّ مهزول ) وهي إمرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها ، فنزلت الآية(١).

* * *

الآية الحادية عشرة بيّنت أهميّة التوحيد وقبح الشرك ولكن بتعبير آخر ، وتوجّه أمراً إلى النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ( قُل اِنّما اُمرتُ اَنْ اَعبُدَ اللهَ ولا اُشرِكَ بِهِ ) .

والتعبير بـــ ( انّما ) الدالّة على الحصر عادةً دليل على أنّ دعوة النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) تتلخّص في قضيّة التوحيد ورفض الشرك(٢)، وهو الحقّ ، لأنّ التوحيد قوام التعليمات السماوية كلّها ، كما أنّ الشرك هو أساس الوساوس الشيطانية كلّها .

وتؤكّد الآية في ذيلها تأكيداً مضاعفاً : ( إليهِ أدعُو وإليهِ مآب ) .

* * *

---

١ ــ تفسير مجمع البيان : ج٧ ، ص١٢٥ .

٢ ــ ولو افترضنا هذا الحصر حصراً إضافياً فإنّه يدلّ أيضاً على أنّ العبودية كلّها تتلخّص في العبودية لله ( فتأمّل جيّداً ) .



الآية الثانية عشرة تتحدّث عن النبي نوح ( (عليه السلام) ) وهو أوّل الأنبياء من اُولي العزم حيث جعل الأساس في دعوته هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك ، والملاحظ أنّ هذا التعبير ورد أيضاً عن الكثير من الأنبياء ( (عليهم السلام) ) قال تعالى : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ إنّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ ) وتضيف : ( ألاّ تَعْبُدوا إلاّ اللهَ إني أَخافُ عَلَيكُمْ عَذَابَ يَوْم أَليم ) .

وتكرار هذا الكلام من قبل الأنبياء من لدن نوح وحتّى رسول الإسلام الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) دليل على أنّ السنام الأعلى في دعوة الأنبياء ( (عليهم السلام) ) هو قضيّة التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية ، ولذا نقرأ في الآية ( ٦٤ ) من سورة أل عمران : ( قُل ياأهْلَ الكِتاب تَعالوا إلى كَلِمة سَواء بَيْنَنا وبَينَكُم أنْ لا نَعْبُدَ إلاّ اللهَ وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ) .

وهذا أصل ثابت لم يتغيّر بمرور الزمان ولم يكن أمراً وقتياً ، بل هو الجذر الأساس في الديانات السماوية كلّها ، وكلّ ما يتعرّض له أهل الديانات المختلفة من مآس ، ناشيء من الإنحراف عن هذا الأصل .

* * *

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير جديد عن هذا المعنى وتلخّص دعوة الأنبياء ( (عليهم السلام) ) باستخدام الأداة ( إنّما ) الدالّة على الحصر في قضيّة التوحيد حيث تقول : ( قُلْ اِنّما يُوحى اِليَّ اِنّما اِلهُكُم اِله واحد فَهَل اَنتُم مُسلِمُون ) .

* * *

تعلّموا مقارعة الشرك من النبي إبراهيم ( (عليه السلام) )

الآية الرابعة عشرة تذكر هذا المضمون في قالب جميل آخر حيث تعرّف

[١٣٧]

النبي إبراهيم ( (عليه السلام) ) المقدام والمكسِّر للأصنام بالقدوة في الدفاع عن قضيّة التوحيد ومحاربة الشرك محاربة لا هوادة فيها حيث قالت : ( قد كانَت لَكُم اُسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه ) ثمّ تقدّم توضيحاً عن الاُسوة الحسنة هذه بقوله تعالى : ( إذ قالوا لقومهم انّا برءاؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله ) وأضافت ــ للتأكيد المضاعف ــ ( كفرنا بكم ) .

إنّ الكفر بالأشخاص يعني إعلان البراءة منهم ، لأنّ هذه المفردة ( الكفر ) ذات معان خمس حسب الروايات الإسلامية ، أحدها كفر البراءة ، ولم تكتفِ بذلك بل أضافت : ( وَبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده ) .

وإنّ هذه التعابير ( البراءة أوّلا ثمّ إعلانها ثمّ الإعلان عن العداوة الدائمة ) لشاهد صريح على صلابة الموحّدين تجاه القذرين المتلوّثين بالشرك وعبادة الأوثان ، وحينما نلاحظ أنّ القرآن يذكر كلام النبي إبراهيم وأتباعه كقدوة للمسلمين فإنّ ذلك يعني أنّ الإسلام لا يعرف أيّة مهادنة بين التوحيد والشرك في أيّة مرحلة .

ومن التعمّق في تعبير الآية تنكشف الأهمّية البالغة لهذه القضيّة ، فالتعبير بـــ ( قومهم ) دليل على أنّ غالبية القوم هم من عبدة الأصنام وأنّ الموحّدين قليلون ، ويبدو انّ هذا الحوار جرى في ( بابل ) ، التي هي مركز عبدة
الأصنام في ظلّ سلطة الطاغية ( النمرود ) ، ولم تعمد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة إلى مسايرة الوضع السائد ، ولم تعمل بالتقيّة تجاه المشركين في مسألة التوحيد .

فمن جانب تقول : ( نحن بريؤون منكم ) .

ومن جانب آخر : ( كفرنا بكم ) .

ومن جانب ثالث : ( نتبرّأ من أصنامكم ) .

ومن جهة رابعة : ( انّا نعتبركم أعداءً لنا ) .



ومن جهة خامسة : ( انّا نُكِنُّ لكم العداء ) .

وفي كلّ جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداهنة هذه .

والفرق بين ( العداوة ) و ( البغضاء ) ــ كما هو المستفاد من كلمات اللغويين ــ هو أنّ ( العداوة ) لها جانب عملي في الغالب ، أمّا ( البغضاء ) فلها جانب قلبي ، وإن استعمل كلّ منهما مكان الآخر .

وبهذا أعلنوا أنّهم بريؤون من الشرك بكلّ وجودهم وصامدون أمامه مهما كانت الظروف ، وينبغي أن يكون ذلك اُسوة حسنة لكلّ المؤمنين في العصور كلّها .

و ( الاُسوة ) تعني في الأصل ــ كما ورد في ( مقاييس اللغة ) : العلاج والإصلاح ، ولذا يطلق على الطبيب ( آسي ) .

و ( أسى ) تعني الغمّ والحزن ، ومن المحتمل أن يكون بسبب إقتران علاج المريض والجريح ــ عادةً ــ بالغمّ والوجع ، ومن ثمّ إستعملت بمعنى الإتّباع والمتابعة نظراً لإستدعاء العلاج والإصلاح المتتابَعيْن .

إلاّ أنّ الراغب في مفرداته يعبّر عن المعنى الأصلي لــ ( اُسوة ) قائلا بالاتّباع في الصالحات أو السيّئات(١).

* * *

يتّضح من الآيات الأربعة عشرة هذه التي كثرت نظائرها في القرآن الكريم أنّ قضيّة التوحيد والشرك هي القضيّة المركزية والمهمّة في منظار القرآن بشكل لا تجوز معه أيّة مداهنة أو ميل

أو محاباة مع الشرك والمشركين ،
ولابدّ من إجتثاث جذور الشرك بجميع صوره ، فإنّ تحقّق ذلك عن طريق

---

١ ــ يعتقد البعض أنّ ( أسى ) يستعمل كفعل ناقص واوي ويائي ، فإن كان ناقصاً يائياً فإنّه يعني الحزن والغمّ ، ولذا تطلق المأساة على الفاجعة العظيمة ، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يعني المعالجة والإصلاح .



التعليم الثقافي والمنطق والإستدلال فهو وإلاّ فإنّ الواجب هو الحزم العملي تجاهه .

إنّ التوحيد رأس مال المؤمن والبضاعة المرموقة في سوق القيامة ، والشرك ذنب لا يغتفر ، والمشرك موجود قذر يجب التبرّء منه كلّياً حتّى يعدل عن إنحرافه ويعود إلى الإيمان .

* * *

إيضاحات

لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضيّة التوحيد والشرك ؟

نحن نعلم بصورة إجمالية إنّ للإسلام بل والديانات السماوية كلّها حسّاسية غير إعتيادية تجاه الشرك ، غير أنّ الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير ، ويمكن تقديم أربعة أدلّة أساسية على هذه الحساسية والإهتمام بقضيّة التوحيد والشرك المصيرية :

١ ــ التوحيد هو الأساس لمعرفة صفات الله ولا يمكن إدراكها دون ملاحظة أصل التوحيد ، لأنّ وحدانيته ــ كما سيأتي توضيحها ــ تنشأ من لا محدوديته ، والوجود جامع لكلّ الكمالات وخال من كلّ عيب ونقص ، والحقيقة أنّنا لو عرفناه بتوحيده الحقيقي فسوف نعرف صفاته كلّها ، بيد أنّ الإعتقاد بالشرك هو الذي يصدّنا عن ذلك .

٢ ــ فروع التوحيد تبلغ عالم الوجود ذات الله المقدّسة ، حيث أنّ عالم الوجود واحد وهو متّصل الأجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة إلى دراسة أجزائه مجتمعة ، ولو تصوّرنا موجودات العالم كوجودات متفرّقة فإنّا سوف نخطأ كثيراً

في معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا :

من أين تلقّينا هذا الدرس ، وهو أنّ عالم الوجود كتلة واحدة ؟

الجواب : من وحدانية الله ، لأنّ وحدة الله دليل على وحدة العالم ، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى : ( ما تَرى في خَلق الرَّحمن من تَفاوت فارجع البَصَر هَلْ تَرى مِنْ فُطُور )(١).

٣ ــ إنّ أهمّ العناصر التي تبعث على تطوّر العالم الإنساني وتكامله هو وحدة المجتمع البشري ، فالإختلاف والتفرّق ــ كان وسيبقى ــ هو العامل على الدمار والضعف والتخلّف ، في حين يشكل الإتّحاد والوحدة الحجر الأساس للقوّة والإقتدار والعمران والبناء .

إنّ الإيمان بالله بمثابة حلقة الوصل التي تؤلّف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية .

إنّ سبب الإنحراف عن أصل التوحيد والإيمان جَعَل كلّ قبيلة عربية في زمن الجاهلية تعبد صنماً يختلف عن أصنام القبائل الأُخرى وهم في غاية الضعف والمأساة ، فجاء الإسلام وحطّم الأصنام وربط القلوب بحبل التوحيد في فترة قصيرة وصنع منها مجتمعاً قويّاً ومتطوراً ذا حكومة إمتدّت لتشمل العالم فضلا عن الجزيرة العربية .

٤ ــ التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية تتوفّر في ظلّ التوحيد أيضاً لأنّ الأساس في الأخلاق الفاضلة هو الإخلاص وتنزيه القلب من الشرك ، والأساس هو جعل الدوافع العملية دوافع إلهية فقط ، أي التحرّك من أجله فقط والجهاد في سبيله والسير نحوه والإحتراز من أي دافع آخر .

فالتوحيد هو الذي يعلم الإنسان درس الإخلاص في النيّة ، درس مقارعة كلّ رياء وشرك ، ومحاربة هوى النفس والجاه والدنيا والشيطان .

---

١ ــ سورة الملك : ٣ .



وبهذا ترى كلا من التوحيد والشرك يترك تأثيره العميق على العقائد والأعمال والنيّات والأخلاق في الفرد والمجتمع .

ولذا وجّه الإسلام إهتماماته تجاه هذه القضيّة ، وهنا نختم البحث بحديثين :

في حديث عن الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) أنّه قال لعبدالله بن مسعود : « يابن مسعود : إيّاك أن تشرك بالله طرفة عين ، وإن نشرت بالمنشار أو قطّعت ، أو سلِبت أو أُحرِقت بالنار »(١).

وفي هذا الحديث الشريف تبرز الأهميّة القصوى للتوحيد .

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) : « انّ بني اُميّة أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي إذا حملوهم عليه لم يعرفوه »(٢).

وهذا الحديث شاهد واضح على أنّ الشرك يمكن أن يكون وسيلة هدّامة سياسياً وإجتماعياً بيد فئة ظالمة ، وفي المقابل يمكن أنْ يقوم الإيمان بالتوحيد وفروعه بإجتثاث جذور هؤلاء الظالمين .

* * *

دلائل التوحيد

نتطرّق في بحث التوحيد لمهمّتين :

الاُولى : أنّ ذات الله لا تتركّب من أجزاء ( خارجية أو عقلية ) . والثانية : هي أنّ ذاته لا شبيه لها ولا مثيل ، لذا فهو واحد من كلّ جهة .

ونجد في القرآن أدلّة في هذا المجال منها :

---

١ ــ بحار الأنوار : الجزء ٧٤ ص١٠٧ ( طبعة بيروت ) .

٢ ــ اُصول الكافي : ج٢ ، ص٤١٥ الحديث ١ .



١ ــ شهادة الفطرة على وحدانية الله ( عزّوجلّ )

تمهيد :

ذكرنا في مستهلّ هذا الجزء وفي بحث « استخدام برهان الفطرة في مسألة معرفة الله » أنّ هذا البرهان يمكن أن يكون نافعاً ومرشداً في البحث عن صفات الله ، بل وفي مسألة النبوّة والمعاد ، ولهذا لنا عهد عملي مع هذا البرهان حيث نراجعه في أغلب المباحث .

في بحث وحدانية ذات الله وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً ، أي انّنا وفي أعماق الروح والقلب لا نسمع نداء وجوده فحسب بل لا يوجد في أعماق الروح نداء آخر .

فعندما تبلغ المشكلات والإبتلاءات ذروتها وحينما توصد أبواب عالم الأسباب أمامنا يقرع أسماعنا هدير التوحيد في أعماق وجودنا ويدعونا إلى ( المبدأ الواحد ) ذي القدرة التي تفوق المشكلات وتتجاوز عالم الأسباب كلّه .

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى هذا المضمون ، وبما انّنا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصّلة في بحث ( إثبات وجود الله ) فسنشير إليها هنا بإختصار ونستمع خاشعين إلى عدد من الآيات :

١ ــ ( فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دَعَوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البرّ إذا هُمْ يُشْرِكون ) سورة العنكبوت ــ ٦٥ .

٢ ــ ( وَإذا مَسَّ النّاسَ ضَرٌّ دَعَوا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إلَيْهِ ثُمَّ إذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَريقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ) سورة الروم ــ ٣٣ .

٣ ــ ( قُلْ أَرأيتكُم إنْ اَتاكُمْ عَذابُ اللهِ واَتتْكُمْ السّاعَةُ أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ * بَل إيّاهُ تَدْعُونَ فَيكْشِفُ ما تَدْعُونَ إلَيهِ إن شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ ) سورة الأنعام ــ ٤٠ ، ٤١ .



٤ ــ ( وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمة فَمِن اللهِ ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُرُّ فَاليْهِ تَجئرونَ * ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُرَّ عَنْكُمْ اذا فَريقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ ) النحل ــ ٥٣ ، ٥٤ .

٥ ــ ( قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البرِّ والبَحرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفيةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكِرِينَ * قُلْ اللهُ يُنجّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْب ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ) الأنعام ــ ٦٣ ، ٦٤ .

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**حينما يشرق نور التوحيد**

**بما أنّ تفسير الآية الاُولى والثانية قد مرَّ في مفتتح الكتاب خلال بحث الإستدلال على معرفة الله عن طريق الفطرة فإنّا نذكرهما بإختصار .**

**الآية الاُولى تتحدّث عن أشخاص يدعون الله سبحانه باخلاص عند ركوب السفينة ، والآية الثانية تطرح القضيّة بصورة عامّة وتتحدّث عن أشخاص يدعون الله عند مواجهة ضَنَك الحياة وتحيط بهم أمواج المشكلات فيتركون الأصنام التي نحتوها ويَلجؤون إلى ضلال لطفه ، ولكن بعد إذاقتهم حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرّة اُخرى ، ومن الملاحظ أنّ في الآيتين تركيزاً على الإخلاص والإنابة حيث يتمسّك بهما أغلب الناس عند هبوب أعاصير الأحداث إضافةً إلى التركيز على حالة الرجوع إلى الشرك لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه الأعاصير .**

**وبهذا يشير القرآن الكريم إلى أنّ معرفة الله من مكنونات الفطرة الإنسانية وهكذا التوحيد في العبادة ، ويعتبر الشرك ظاهرة تنشأ من الحياة المترفة والملاحظة السطحية والعابرة لعالم الأسباب ، وعند تغيّر الظروف الإعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الأسباب يقوم الإنسان بقطع أمله منها وتبرز فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشة والغفلة .**

**إنّ هذه الآيات تبلّغ بنداء الفطرة إلى الغافلين من بني الإنسان عن طريق**



**واضح وتوصل الإنسان إلى حيث لا يوجد صخب عالم الأسباب ولا تغرقه لذّات الحياة .**

**نعم في مثل هذه البيئة الطبيعية والهادئة يسمع فيها نداء الوجدان الذي يلقّنه درس معرفة الله وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يضعف ويعجز عن بلوغ الأسماع حينما يمتليء الجوّ بصخب اللذّات الماديّةوعالم الأسباب .**

**هذه الآيات الشريفة تمسك بيد الإنسان تارةً وتلقي به في وسط الأمواج العاتية وتمسك بيده تارةً اُخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميدان الأمراض المستعصية وطرق مسدودة تبعث اليأس في الحياة ، مكان تخمد فيه أصوات الشياطين من الجنّ والإنس ويسمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط ، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت !**

* * *

الآية الثالثة تخاطب المشركين وتدعوهم إلى فطرة عبادة الواحد ، وبتعبير آخر تقول : ( قُلْ أَرأيتكُم إنْ اَتاكُمْ عَذابُ اللهِ أو اَتتْكُمُ السّاعَةُ اَغَيْر اللهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ) .

والمراد من عذاب الله هو عذاب الدنيا والمراد من ( أتتكم الساعة ) هو ظهور أشراط الساعة ( وهي علامات نهاية العالم الموحشة جدّاً وابتداء يوم القيامة ) التي أخبر عنها القرآن لاكريم في آيات عديدة وإعتبرتها مقرونة بالخوف والوحشة الشديدَين .

إنّ الكثير من المشركين ــ طبعاً ــ لم يؤمنوا بالقيامة وأشراط الساعة غير انّهم كان بوسعهم تصديق نزول العذاب الإلهي وذلك بملاحظة الآثار التي خلّفتها الاُمم السابقة في أطراف الحجاز والجزيرة العربية ، وهذا هو أحد أساليب الفصاحة حيث يبيّن القائل قضيّة صادقة لا يتقبّلها المخاطب مقترنة بما



يقبله في عبارة واحدة كي يثبتا معاً .

ولا ينتظر القرآن ليستمع إجابتهم عن هذا السؤال بل يجيب عنه بما ينبغي عليهم بيانه ويقول : ( بَل إيّاهُ تَدْعُونَ فَيكْشِفُ ما تَدْعُونَ إلَيهِ اِن شاءَ ) ( وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ ) .

وقد أسلفنا أنّ الكثير من المفسّرين فسّر جملة ( أرأيتكم ) بمعنى ( أخبروني ) ولكن الظاهر هو الإحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلازمه ( المعنى الرئيس للجملة هو : هل شاهدتم ؟ هل فكّرتم ؟ )(١).

على أي حال فإنّ القرآن يستفيد في هذه الآيات من أعمال المشركين أنفسهم ويحاججهم بها .

* * *

تلجأون إليه في كلّ شدّة

الآية الرابعة تصبّ هذه القضيّة في قالب جميل آخر فتقول : ( وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمة فَمِنَ اللهِ ) ، فماذا صنعت لكم الأصنام ومعبوداتكم المزيّفة ؟ وأي رزق بَسَطتهُ لكم وأيّة هدية وهبتها لكم ؟

هذه الأصنام التي تحتاج إليكم في صنعها وبقائها ( حيث يجب أن تنحتوها وتحافظوا عليها ) أيّة بركة وموهبة وهبتها لكم ؟

وتضيف الآية : ( ثمّ إذا مَسّكم الضُر فإليهِ تجئرون ) ( تجأرون ) من مادّة ( جُئار ) وتعني في الأصل أصوات الوحوش والحيوانات في الصحاري دون إختيار منها حين التألّم ، ثمّ إستعملت كناية عن الأنين والإستغاثة والصرخة التي تصدر من الإنسان حينما يواجه المشكلات .

يقول الراغب في مفرداته :

---

١ ــ الأُولى تعني الرؤية بالعين المجرّدة والثانية تعني الرؤية القلبية .



ومن الواضح انّ الإنسان يرجع إلى فطرته في هذه الحالة وتتكسّر القيود والسلاسل المفتعلة وتنهار الأبنية الوهمية ويبقى الإنسان مع فطرته ، الإنسان ووجدانه الصريح ويتّجه صوب نقطة واحدة ، نعم نقطة واحدة نسمّيها ( الله ) عزّوجلّ .

انتبهوا إلى جملة ( إليه تجئرون ) فهي تتضمّن معنى الحصر والدلالة على الوحدانية ، أي أنّكم تتوسّلون إليه فقط وتطلبون منه حلّ المشكلات .

وتضيف : ( ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُرَّ عَنْكُمْ إذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهم يُشْرِكُونَ ) وفي التعبير بـــ ( فريق ) إشارة إلى أنّ فريقاً آخر سيغيّر مسيرته بعد هذا الحادث حقّاً ، وتبدأ صفحة جديدة في حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد في العبادة ، وهذا هو أحد الحِكَم في وجود الآفات والإبتلاءات والأوجاع والآلام التي يكرهها البشر وفيها إيقاظ لفريق وتربيتهم(١).

( ضُرّ ) و ( ضَرّ ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض اللغويين ، ومفهومهما هو كلّ ما ينافي النفع ، وقد فسّر بعض الأوّل بمعنى سوء الحال ، والثاني بمعنى الضرر .

ويقول الراغب في المفردات :

الضُرّ : سوء الحال إمّا في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفّة ، وإمّا في بدنه لمرض أو نقص وإمّا في حالةً ظاهرة من قلّة مال وجاه(٢).

على كلّ حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأمراض والنقائص والآلام .

وينبغي ملاحظة هذه النقطة وهي أنّ ( الكشف ) ــ كما جاء في لسان العرب ــ تعني رفع الحجاب عن الشيء المستور ، ويلازمه ظهور ذلك الشيء ثمّ

---

١ ــ إحتمال البعض من أنّ ( من ) في ( فريق منكم ) بيانية لا تبيعية بعيد جدّاً ويخالف ما ورد في الآية (٣٢) من سورة لقمان ( فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد ) راجع تفسير روح المعاني .

٢ ــ لسان العرب ، مجمع البحرين ، مفردات الراغب .



إستعمل في رفع الغمّ والحزن والإبتلاءات وكأنّ هذه الاُمور تمثّل حجباً على روح الإنسان وجسمه وتُرفع من قبل الإنسان وغيره .

**النور الوهّاج في الظلمات**

في الآية الخامسة والأخيرة التي نبحثها نواجه محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن في إطار جديد وجميل حيث تقول : ( قُلْ مَنْ يُنجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البرِّ والبَحرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخفْيَةً ) في هذه الحالة تنأى عنكم المعبودات المزيّفة وتلجأون إلى لطف الله وحده وتقولون : ( لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذهِ لَنكُونَنَّ مِنَ الشاكِرِينَ ) .

والتعبير بـــ « ظلمات البرّ والبحر » تعبير جميل يمكن أن يكون إشارة إلى الظلام الظاهري الذي يحدث في الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المغبرة وعند ظهور السحب السوداء في السماء ، وهذا الظلام مرعب ومخيف وخاصّة إذا كان في البحر والصحراء ، أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية في الصحراء .

ويمكن أن يكون له ــ كما ذكر ذلك بعض المفسّرين ــ معنى كنائي فيشمل المشكلات والشدائد والآلام(١).

كما يحتمل تضمّن الآية الظلامين : الظلام الظاهري الذي يفرض الوحشة على الإنسان والظلام المعنوي الموحش المؤلم أيضاً ، وعلى كلّ حال فإنّ هذه الآلام تحصل في الأسفار غالباً ، والآية تقصد هذا المعنى أيضاً .

والتعبير بـــ « تضرّعاً وخفية » تعبير جميل أيضاً لأنّ ( التضرّع ) يعني الدعاء والطلب الصريح وإظهار التذلّل(٢)، في حين تشير ( خفية ) إلى الدعاء الكامن في أعماق القلب ، ويحتمل أن يقصد التعبيران الحالتين في الإنسان ، حيث

---

١ ــ تفسير الميزان : ج٧ ، ص١٣٦ وتفسير في ظلال القرآن : ج٣ ص٢٦٩ .

٢ ــ الراغب : تضرّع : أظهر الضراعة .



**يدعو الله في قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات ، وعندما يُبتلى بمشكلات عويصة وكبيرة يقوم بتلفّظ ما في قلبه ويتضرّع إلى الله ويلتمسه .**

**ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات الفئات المختلفة ، فبعضها تدعو الله جهاراً في مثل هذه الأحوال وبعضها تدعو خفاءاً وكأنّها تشعر بالخجل أمام الأصنام ! أو من الناس الذين عرفوا أنّها تعبد الأصنام فلماذا لا تلجأ إلى الأصنام في المشكلات ؟! على كلّ حال فإنّها ترجع إلى فطرتها في مثل هذه الأحوال وتستضيء قلوبها بنور التوحيد وعبادة الواحد ، وترفض كلّ**

ما سواه وتنسى كلّ ما يذكرها به تستيقن بأنّ الأصنام ليست أهلا ، وعبارة الأصنام لا فائدة فيها ولا سبيل إلاّ التوحيد .

في مثل هذه الأحوال تعاهد الله وتنذر وتتعهّد بأنّه إذا أنجاها من هذه الشدائد والآلام وأذاقها حلاوة اللطف والرحمة فإنّها ستبقى شاكرة ومدينة ورهينةً للطفه ، ولكنّها بعد الخلاص من المضائق تنسى ــ في الغالب ــ كلّ عهودها وتعهّداتها ، كما يشير إلى ذلك ذيل الآية : ( قُلْ اللهُ يُنجّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْب ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ )(١).

وكما ذكرنا فإنّ هذه الحالة هي حالة أغلب المشركين ، وأمّا الفئة التي لها قابلية أكبر فإنّها تتيقّظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك .

من مجموع الآيات التي ذكرت تظهر هذه الحقيقة وهي : أنّ القرآن الكريم لا يعدّ غريزة المعرفة الإلهية في الإنسان أمراً فطريّاً وحسب بل يعتبر الإيمان بوحدانيته من الاُمور الفطرية أيضاً ، وبما أنّ الفطرة الأصلية في الإنسان تتعرّض في الغالب إلى حجاب الرسوم والعادات والأفكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة فينبغي إنتظار تلك الساعة التي تزول فيها هذه الحجب ، من هنا فإنّ القرآن يشير إلى لحظات حسّاسة في حياة الإنسان وذلك عندما تزول الحجب

---

١ ــ الكرب : يعني الغمّ والهمّ الشديد .



باعصار الأحداث ويبقى الإنسان وفطرته وصريح وجدانه فيدعو حينئذ ربّه لوحده ويزول عنه ما سواه ، ويدلّ هذا جيّداً على أنَّ عبادة الواحد والتوحيد مستودعة في أعماق روحه . وفي هذا المجال مرّت بحوث تكميلية اُخرى في أوّل الكتاب في بحث الفطرة والمعرفة الإلهية .

* * *



تناسُق العالم دليل آخر

**تمهيد :**

**من السبل التي سلكها علماء العقيدة والفلسفة للوصول إلى وحدانية ذات الله المقدّسة هي دراسة عالم الوجود الذي هو عبارة عن مجموعة متناسقة وكتلة مترابطة ، هذه الوحدة وهذا التناسق ينبئان عن وحدانية الخالق ، ولذا أُطلق على هذا الدليل ( برهان الوحدة والتناسق ) وقد يُطرح هذا البرهان بصورة أُخرى حيث يقال : إذا كانت هناك إرادتان تحكمان عالم الوجود ، ولو كان في عالم الخليقة تدبيران لظهر الفساد واللانظام حتماً ، وبما أنّنا لا نشهد لا نظاماً ولا فساداً فيه ، كان ذلك دليلا على وحدة الخالق والمدير والمدبّر لعالم الخليقة ، ولذا أُطلق على الإستدلال عنوان ( برهان التمانع ) .**

**من هنا فإنّ برهان ( الوحدة والتناسق ) و ( برهان التمانع ) متّحدان جوهرياً ومحتوى ولكن لهما تعبيران ، وبعبارة أدقّ : أنّهما ينظران إلى قضيّة واحدة ولكن من زاويتين ، فنحن نصل تارةً من طريق وحدة العالم إلى وحدة المبدأ ، وأُخرى من طريق عدم الفساد الناشيء من الإرادتين ، وفي الحقيقة إنّنا ننظر من الأعلى إلى الأسفل تارةً وأُخرى من الأسفل إلى الأعلى .**

**وعلى كلّ حال فإنّه من أفضل دلائل التوحيد التي إستندت إليها الآيات القرآنية .**

**بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لنستمع خاشعين إلى الآيات التالية :**

**١ ــ ( مَا تَرى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفاوُت فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُور * ثمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتين يَنقلِبْ اَلَيْكَ البَصرُ خاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ ) سورة الملك ــ ٣ ، ٤ .**

**٢ ــ ( أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا**



**فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ ) سورة الأنبياء ــ ٢١ ، ٢٢ .**

**٣ ــ ( مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَد وَمَا كانَ مَعَهُ مِن إله إذاً لَذَهبَ كُلُّ إله بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهمْ على بَعض سُبْحن اللهِ عَمّا يَصفُونَ ) سورة المؤمنون ٩١ .**

**شرح المفردات :**

( فُطور ) من ( فَطْر ) وهي في الأصل : الفتق ، وقد فسّره البعض كالراغب في المفردات بالشقّ طولا ومن ثمّ أطلق على كلّ إبداع وإيجاد وخلق ، لما فيه من إنشقاق حجاب العدم وإبداع الشيء وإيجاده أو إختراعه كما يطلق هذا اللفظ على عملية إستخراج الحليب من الغنم باصبعين ، وكذلك على هدم الصيام ( وقد وردت إيضاحات أكثر حول ذلك في بداية هذا الجزء في بحث برهان الفطرة في موضوع معرفة الله ) .

( إله ) يعني ــ كما يقول اللغويون ــ المعبود ، وقالوا بإشتقاقه من ( إلاهه ) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم في الهامش(١).

وقد استعمل هذا المعنى في مواضع كثيرة من ( القرآن الكريم ) ، كما نقرأ في قصّة بني اسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الأصنام فقالوا لموسى : ( يامُوسى اجْعَلْ لَنا إلهاً كَما لَهُمْ آلِهةٌ )(٢).

وقد جاء في قصّة السامري ( وانظُرْ إلى إلهِكَ الّذي ظَلْتَ عَلَيهِ عَاكِفاً

---

١ ــ مصباح اللغة : ( أَلَهَ ، آلِهة ) على وزن ( تعب ) يعني ( عبد عبادة ) ، تألّه ( تعبّد ) والإله : ( المعبود ) ، وقد ورد في ( صحاح اللغة ) هذا المعنى مع فارق بسيط ، ويقول الرابغ في المفردات ( اله ) : جعلوه إسماً لكلّ معبود لهم و (اله فلان يأله): ( عبد ) ، ويقول صاحب ( لسان العرب ) : ( الاله : كلّ ما اتّخذ من دونه معبود) وفي (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (فظهر من هذه الكمات انّ الاله بمعنى العبادة) وقد ورد في (مجمع البحرين): الآلهة: الأصنام سُمّوا بذلك لإعتقادهم بأنّ العبادة تحقّ لها، وجاء في كتاب (العين) للخليل بن أحمد أيضاً (التألّه: التعبّد) وقد جاء هذا المعنى صريحاً في (قاموس اللغة) (وعلى ذلك فإنّ عقيدة أهل اللغة قاطبة هي أنّ الإله تعني المعبود).
٢ ــ سورة الأعراف : الآية ١٣٨ .



لَنُحْرِقَنَّهُ )(١).

وباختصار فإنّ أهل اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسّرين اعتبروا ( اله ) بمعنى المعبود وهو الغالب في موارد إستعماله ، وحينما نلاحظ أنّ ( اله ) قد إستعمل في بعض الحالات بمعنى الخالق أو المدبّر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة ــ في بعض الحالات ــ بين هذه المعاني وبين المعبود ، ولا يكون الإستعمال في بعض الموارد دليلا على الحقيقة أبداً ، وخاصّة مع تصريح اللغويين على خلاف ذلك ، وموارد الإستعمال شاهدة على ذلك أيضاً .

ويمكن القول : انّ جملة ( لا إله إلاّ الله ) لا تنسجم مع هذا المعنى وذلك لوجود معبودات غير الله الواحد بين العرب والأقوام الاُخرى ، ولكن الإجابة على هذا السؤال واضحة لأنّ المراد هو المعبود الحقّ لا المعبودات بالباطل ، أي: لا معبود حقّاً غير ( الله ) ، والأصنام ليست أهلا للعبادة ، وقرائن هذا المعنى موجودة في هذه الجملة ، كقولنا : لا علم إلاّ ما نفع .

هناك ملاحظة جديرة بالتدقيق وهي أنّ البعض اعتبر ( إله ) من ( وله ) وتعني ( تحيّر ) وفيها إشارة إلى الذات التي تحيّرت فيها العقول ، بيد أنّ المشهور بين اللغويين هو المعنى الأوّل أي أنّه من مادّة ( أَلَهَ ) بمعنى العبادة .

وقد توضّح ممّا ذكرنا أنّ إصرار البعض على أنّ ( اله ) لا يعني ( معبود ) غير مقبول أبداً .

جمع الآيات وتفسيرها :

انظر جيّداً ، هل ترى خللا :

تقول الآية الاُولى بعد الإشارة إلى خلق السماوات : ( مَا تَرى في خَلْق

---

١ ــ سورة طه : الآية ٩٧ ، وآيات كثيرة اُخرى .



الرَّحمنِ مِنْ تَفاوُت ) .

إنَّ هذا العالم الواسع بكلّ ما يتضمّنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومترابط ومتّحد ومنظّم ، وإنّ وجود الإختلاف في اللون والشكل والوزن وسائر الكيفيات الظاهرية والباطنية أو الكمّية أمر طبيعي جدّاً ، ولكن الشيء الذي لا وجود له هو اللاتناسق واللانظام والإختلال .

ولذا تقول الآية في ذيلها ( فَارْجع البَصَر هَلْ تَرى مِنْ فُطُور ) والمراد من ( فَارْجِعِ البَصِر ) هو النظر الدقيق والعميق ، والمخاطب في هذه الآية وإن كان هو النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ولكن من الواضح أنّ المراد هم البشر جميعاً ، وتضيف الآية : ( ثمَّ ارجعِ البَصَرَ كَرَّتين يَنقَلِبْ اليْكَ البَصرُ خَاسئاً وهُوَ حَسِيرٌ )(١).

بهذا يقوم القرآن الكريم وبتعابير مختلفة بدعوة البشر إلى النظر في عالم الوجود ولا يكتفي بالدعوة بل يرغبهم ويحرّكهم ويحرّضهم على هذا العمل ، كي يعلموا أنّهم لا يجدون خللا أو

نقصاً فيه ، وعندما لا يرون ذلك فسوف يتعرّفون على حقيقة توحيد المبدأ والوحدانية ويردّدون جملة ( لا إله إلاّ الله ) قلباً ولساناً .

هناك نقطة جديرة بالإهتمام وهي أنّ ( نفي الإختلاف ) من بين الموجودات في العالم والذي ورد في الآية أعلاه يعني حسب إعتقاد البعض : نفي العيب والنقص ، وقد فسّره بعض بمعنى نفي عدم الإنسجام ، وبعض بنفي الإضطراب والتزعزع ، وبعض بنفي الإعوجاج ، وبعض بنفي التناقض ، في حين انّ الآية لها مفهوم واسع يشمل كلّ هذه المعاني ( هذه المفردة مشتقّة من (فوت) لأنّ المتفاوتين يفقد كلّ منهما الصفات المختصّة بالآخر ) .

---

١ ــ ( ارجع البصر ) كناية عن النظر المتكرّر والمقرون بالدقّة والإهتمام ، و ( خاسيء ) من ( خسئاً ) ويعني الانقباض والإنغلاق المقرون بالذلّة ويمكن أن يكون هنا كناية عن الحرمان والفشل ، و ( حسير ) في ( حسر ) ويعني الضعف وإفتقاد القدرة وتعني في الأصل : الاحتفاء ، وبما أنّ الشيء إذا ضعف فإنّه يتجرّد عن قدرته وطاقته استعمل هذا اللفظ بمعنى الضعف .



* * *

## ماذا لو كان في العالم إلهان ؟

الآية الثانية تُعرض هذا المضمون في إطار آخر وصورة اُخرى حيث تقول : ( أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ )(١).

وفي التعبير بـــ ( من الأرض ) إشارة لطيفة وهي أنّهم ( أي المشركون ) كانوا يصنعون آلهتهم من الحجر والخشب والمعادن وهي موجودات أرضية ، فهل بإمكان هذه الموجودات أن تكون خالقة للسموات الواسعة وأن تكون الحاكمة والمدبّرة والمديره لها ؟!

ثمّ تضيف الآية في مقام الإستدلال على بطلان عقيدتهم ( لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا ) .

( فساد ) يعني في الأصل ــ كما يقول الراغب في المفردات : خروج الشيء عن حدّ الإعتدال كثيراً أم قليلا ، في الروح أو الجسم أو الأشياء الاُخرى في العالم ويقابله ( الصلاح ) .

و ( الفساد ) هنا يعني الدمار والخراب واللانظام والهرج والمرج ....

وتضيف الآية في آخرها ــ كاستنتاج ــ ( فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ ) .

وخلاصة الإستدلال هي : لو تعدّد المدير والمدبّر والخالق والحاكم والمتصرّف في هذا العالم فانّ العالم لا يمكن أن يتّسم بالنظام والتناسق ، وذلك لإنتهاء التعدّد في الآلهة إلى تعدّد التدبير التصرّف ، وبذلك يختلّ عالم الوجود

---

١ ــ لفظ ( أم ) في الآية ــ كما يقول جمع من المفسّرين ــ منقطعة وتعني ( بل ) ، في حين اعتقد البعض بأنّها بمعنى هل الإستفهامية ، وبما أنّ المشركين لم يدّعوا أنّ الأصنام خالقة ، كان بمعنى الإستفهام الإنكاري أكثر مناسبة .



ويتعرّض للفساد والدمار حيث يريد كلّ واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وإرادته .

وهنا يرد هذا الإشكال المعروف وهو : ما المانع من تعاضد الآلهة الحكمية فيما بينها لإيجاد نظام واحد منسجم ؟ والإجابة على ذلك ستأتي في الإيضاحات بإذن الله .

* * *

الآية الثالثة والأخيرة التي نبحثها تقدّم هذا البرهان في إطار جديد حيث تقول : ( مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَد وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إله ) .

ولو كان كذلك فإنّ كلّ إله ينفرد بمخلوقاته الخاصّة ويفرض عليها تدبيره وتصرّفه الخاصّ ، وسوف تكون الأنظمة المختلفة والقوانين اللامنسجمة هي الحاكمة على العالم ، وسيكون هو السبب في إنهيار الوحدة والتعادل في العالم ( إذاً لَذَهبَ كُلُّ إله بِما خَلَق ) .

يكفي هذا لوحده دليلا على إثبات وحدانيته تعالى حيث يتألّف من المقدّمتين المشار إليهما سالفاً وهما : إنَّ عالم الوجود منظم ومترابط الأجزاء وتحكمه قوانين معيّنة ( هذا من جهة ) ولو كان في العالم خالقان ومدبّران ومتصرّفان لحصل الخلل وعمّت الفوضى نتيجة لتعدّد مراكز القرار والتدبير والتصرّف ( من جهة ثانية ) .

والآية تشير في ذيلها إلى أمر آخر بقولها ( ولَعَلا بَعْضُهمْ على بَعْض ) .

وهذا لوحده سبب آخر إلى إختلال النظام في العالم واتّصافه بالفوضى وعدم الإنسجام .

وهنا ــ أيضاً ــ يثار هذا الإشكال في الأذهان وهو : أنّ هذه الآلهة الحكيمة بإمكانها أن تنسّق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرّض وحدة العالم إلى

[١٦٠]

الإختلال وفقد النظام ، وسيأتي ــ كما أسلفنا ــ الجواب على هذا الإشكال في الإيضاحات .

وتستنتج الآية الكريمة أخيراً من هذين الدليلين حيث تقول في ذيلها : ( سُبْحن اللهِ عَمّا يَصفُونَ ) .

* * *

إيضاحات

١ ــ وحدة عالم الخلق من منظار علمي

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرّقة : الشمس ، القمر ، السماء ، النجوم الثابتة والمتحرّكة ، الإنسان ، الحيوانات ،
أنواع النباتات والعناصر المختلفة ، ولكن بعد شيء من الدقّة والدراسة نجد أنّ ذرّات هذا العالم مترابطة ومتّصلة الأجزاء حتّى تبدو وكأنّها شيء واحد ،
وكلّما تعمّقت دراستنا وتركّزت إزددنا إيماناً بهذه الوحدة والإتّحاد للأسباب التالية :

١ ــ إنّ أجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها إلى حدّ تكون فيه كأُسرة واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنّها كانت في البداية شيئاً واحداً متّصل الأجزاء ثمّ إنفصلت تدريجيّاً وبقيت مترابطة حتّى بعد إفتراقها .

وتقول الأبحاث الفلكية في هذا المجال : إنّ مجموعتنا الشمسية غير مستقلّة أيضاً ، حيث أنّها جزء من مجرّة كبيرة تشكّل مع المجرّات الأُخرى مجموعة واحدة يعمل فيها قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة الحلقات كما يعتقد العلماء بأنّ هذه المجرّات كانت بأجمعها شيئاً واحداً متّصلا فانفصلت أجزاؤها تدريجاً .

٢ ــ الأجسام المختلفة والمتباينة تماماً تتركّب ــ كما يبدو بالتحليل النهائي

[١٦١]

لها ــ من عدد من العناصر المعيّنة وهي تلك ــ الموجودات البسيطة التي إكتشف منها أكثر من ( ١٠٠ ) عنصر لحدّ الآن ، وهذه العناصر رغم إختلافها الشديد في الظاهر نراها عند تحليلها إلى أصغر أجزائه ــ أي الذرّة ــ أنّها متشابهة والفارق فيها هو عدد الألكترونات والبروتونات .

٣ ــ من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرّة هو الحاكم على العالم الواسع أي المجموعات والمجرّات أيضاً حيث تجمع قوّة الجذب والطرد هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الالكترونات في ذرّة واحدة وفي مدارات خاصّة تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجاذب فيما بينها .

٤ ــ الكائنات في الأرض وإن بدت لنا متنوّعة ، كما في الألوان التيى نشاهدها شديدة الإختلاف فيما بينها إلاّ أنّنا وبالتحليل النهائي نصل إلى أنّ كلّ الألوان ترجع إلى أمواج تختلف في شدّة ذبذبتها وطول أمواجها وقصرها .

٥ ــ إنّنا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً ، ولكن علم الفيزياء الحديث يقول بأنّ هذه الأصوات كلّها، الجميلة منها والقبيحة، الخفيفة والصاخبة ترجع إلى مبدأ واحد هو عبارة عن أمواج خاصّة تنشأ هذه الأنواع من إختلاف الذبذبة فيها.

٦ ــ للأحياء أنواع كثيرة جدّاً ، فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الأنواع ، والنباتات لها أنواع تفوق ذلك ، غير أنّ علماء النبات والحيوان يقولون : أنّها مركّبة من مادّة واحدة ، ومؤلّفة من الخلايا التي يحكمها نظام واحد ، ولذا تجرّب الأدوية التي يراد معرفة درجة تأثيرها في الإنسان على الحيوانات أوّلا في الغالب .

٧ ــ توصّل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهي : أنّ العناصر التي تتركّب منها الكاكب السماوية تشابه الأجزاء التي تتركّب منها كرتنا الأرضية . وهذا يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم في الكون .



٨ ــ القوانين المختلفة التي تحكم الكون مثل ، قانون الجاذبية ، وسرعة النور ، وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها في كلّ مكان وتتبع منهجاً واحداً ، ولذا فإنّ العلماء وبإجراء تجارب على نموذج واحد أو عدّة نماذج في الأرض يكتشفون قانوناً شاملا يحكم عالم الوجود

كلّه ، كما نجد أنّ « نيوتن » إكتشف قانون الجاذبية الساري في كلّ المجموعات والمجرّات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة !

وبإختصار ، كما قرأنا في الآية الاُولى من آيات هذا القسم ، أنّنا لا نرى أي إختلاف في خلق الرحمن ولا فطور أو خلل ، وكلّما تقدّم العلم والفكر البشري كلّما تجلّت عظمة هذه الآية وعمقها أكثر فأكثر ، وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم .

* * *

٢ ــ إيضاح برهان التمانع

إنَّ برهان التمانع الذي يعبّر عنه بـــ ( برهان الممانعة ) أو ( برهان الوحدة والتناسق ) يتألّف من مقدّمتين :

الاُولى : الإنسجام والوحدة والتناسق في عالم الخلق الذي تقدّم بحثه .

الثانية : إذا كانت القوى الحاكمة على هذا الكون قوّتين أو أكثر فإنّ ذلك يؤدّي إلى حدوث الإختلاف والإختلال ، وبما انّنا لا نلاحظ أي إختلال أو لا تعادل في هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه ، ندرك أنّها تنشأ من مبدأ واحد وأنّها مخلوقة ومدبّرة ومنظّمة من خالق واحد .

الآية الاُولى من بين الآيات السابقة تشير في الحقيقة إلى المقدّمة الاُولى ، والآية الثانية والثالثة تشيران إلى المقدّمة الثانية ، ولذا قد يطلق على هذا البرهان : ( برهان الوحدة والتناسق ) بالنظر إلى المقدّمة الاُولى .



وقد يعبّر عنه بـــ ( برهان التمانع ) بالنظر إلى المقدّمة الثانية ، وبناءً على ذلك فإنّهما يرجعان إلى دليل واحد ، غير أنّ النظر إليه يتمّ من زاويتين مختلفتين .

الإجابة عن سؤالين

السؤال الأوّل :

إنَّ هذا السؤال يُطرَحُ من قبل الكثير وهو أنّ تعدّد المبدأ لا يكون سبباً لإختلال النظام دائماً فإنّا نشاهد مجموعات تطبّق برنامجاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها ، فلو

افترضنا أنّ للعالم آلهة فإنّ التعدّد هذا يكون منشأ للفساد في العالم حين وقوع النزاع فيما بينها ، ولكن إذا أقررنا أنّها حكيمة وواعية فإنها تدبّر اُمور الكون بنظام خاصّ وبتعاون فيما بينها حتماً .

الجواب :

هذا السؤال والإشكال وإن كان ملفتاً ابتداءً ولكنّه يتّضح بعد التدقيق أنّه ناشيء من عدم ملاحظة مفهوم ( التعدّد ) .

وللتوضيح نقول : إنّنا عندما نقول آلهة متعدّدة فإنّها تعني أنّها ليست واحدة من كلّ جهة ، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنّها تكون ذات وجود واحد ، وبعبارة اُخرى : أينما وجد التعدّد والإثنينية وجب أن نقرّ بوجود إختلاف في الأمر ، وإلاّ فإنّ من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات .

ومن جهة اُخرى يوجد ( تناسب ) و ( سنخية ) بين ( الفعل ) و ( الفاعل ) دائماً ، فكلّ فعل يكون من آثار فاعله ويتّصف بلونه ــ شِئنا أم أبينا ــ وبهذا يستحيل أن يصدر فعلان من فاعلين ثمّ يكونان واحداً من جميع الجهات ، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساويين من حيث الإرادة والعمل ، وإختلافهما في الوجود يترك أثره على إرادتهما وعملهما حتماً .

[١٦٤]

النتيجة هي انّه لا يمكن أن يصدر نظام واحد وخال من الإثنينية من مبدأ متعدّد .

وأمّا ما يقال عن الأعمال الجماعية فلابدّ أن نلتفت إلى أنّ هذه الأعمال وإن اتّصفت بنظام نسبي إلاّ أنّها لا تتّصف بنظام حقيقي ومطلق حيث يتنزل المتشاورون عن بعض آرائهم ورغباتهم للتعاون فيما بينهم لا أنّ رغباتهم وآراءهم واحدة دائماً ، إضافة إلى أنّ الأنظمة القائمة على الشورى قليلا ما
تعمل بصورة متّفقة ، بل أنّها تتّبع النسبة الغالبة عادةً وهذا دليل على صحّة ما ندّعيه .

إضافةً إلى أنّ هذه الغالبية لا تكون اشخاصاً ثابتين دائماً بل متغيّرين ، فتارةً تكون الغالبية من سبعة أشخاص هذه الأربعة المعيّنة ، وتارة أحد هؤلاء مع ثلاثة آخرين ، وبما أنّ الغالبية متغيّرة لا يمكن إذن أن تكون أعمالها واحدة .

بهذه الأدلّة الثلاث تتّصف هذه الأنظمة القائمة على الشورى بشيء من اللاتعادل ولكنّها بسبب القناعة بالنظام النسبي يقال أنّها منظمة ! لكنّنا لا نرى في عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وإنسجاماً كاملا وتامّاً .

وبعبارة اُخرى : لو إفترضنا وجود مبدأين للكون فإنّهما إمّا متساويان من جميع الجهات ( فهما إذن واحد ) أو مختلفان ومتباينان من جميع الجهات ( حينئذ يكون خلقهما وتدبيرهما متقابلين ) ولو كانا متشابيهن من بعض الجهات ومختلفين في البعض الآخر فإنّ هذا الإختلاف والتمايز سوف يترك أثره على أفعالهما لأنّ الفعل إنعكاس لوجود الفاعل وظلّ وجوده .

السؤال الثاني :

ويطرح هنا سؤال ثان بملاحظة جملة ( ولعلا بعضهم على بعض ) التي جاءت في الآيات المذكورة وهو : كيف يمكن وقوع النزاع بين آلهة يفترض أنّها حكيمة ؟ ويميل بعضها للتغلّب على البعض الآخر ؟ ولماذا يفترضهما المفسّرون كسلطانين أنانيين في زمن واحد يتنازعان بصورة دائمة لتضارب



المصالح ؟

الجواب :

ينشأ هذا السؤال من أنّهم تصوّروا انّ الإختلاف بين المبدأين يجب أن ينشأ من هوى النفس والأنانية دائماً ، في حين يمكن أن ينشأ الإختلاف من الإختلاف في التشخيص والقرار والإرادة بين شخصين مهما كانا .

ويلزم أن نكرّر هذه الحقيقة ونؤكّد عليها وهي : أنّنا حينما نفترض وجود مبدأين للكون فإنّ الإثنينية تعني أنّهما وجودان مختلفان من بعض الجهات حتماً وإلاّ فإنّ وجودهما واحد ، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعليه فاثنّ هذا الإله يجعل تكامل الكون ونظامه وتدبيره الصحيح في شيء في حين يجعل الثاني النظام والتكامل في شيء آخر ، ومن الخطأ الكبير أن يتصوّر أنّهما كاملان من جميع الجهات ، فإنّ إفتراض الإثنينية يعني إفتقاد كلّ واحد منهما كمالات الآخر المختّصة به ، فلا يتصوّر لهما حينئذ الكمال المطلق ، بل إنّ نقصانهما النسبي حتمي ، فلا عجب في أن يختلفا في العمل والإرادة والقدرة ، ورغبة كلّ واحد في إدارة الكون وفق ما يراه فيضاً كاملا .

برهان الوحدة والتمانع في الروايات الإسلامية

لقد ورد الدليل أعلاه بشكل واضح ومختصر في الروايات الإسلامية ، فقد ورد في حديث أنّ ( هشام بن الحكم ) سأل الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) : ما الدليل على أنّ الله واحد ؟

فأجاب الإمام ( (عليه السلام) ) : « اتّصال التدبير وتمام الصنع كما قال الله عزّوجلّ : لو كان فيها آلهة إلاّ الله لَفَسدتا »(١).

وفي حديث آخر نقله الكليني ( (رحمه الله) ) في الكافي عن هشام أنّ الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) قال في مسألة التوحيد جواباً للرجل الزنديق : « لمّا رأينا الخلق

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٣ ، ص٥٥ الحديث ٢ .



منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهار والشمس والقمر دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد »(١).

* * *

---

١ ــ المصدر السابق : الحديث ١ .

[١٦٧]

[١٦٨]

**دليل صرف الوجود**

[١٦٩]

[١٧٠]

**تمهيد :**

**إنَّ الله سبحانه وجود لا نهاية له من كلّ جهة ــ كما سيأتي شرحه مستقبلا ــ ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الوجود لا سبيل للإثنينية إليه ، فمن غير الممكن وجود موجودين لا نهائيين ، لأنّ الحديث إذا كان عن الإثنينية فإنّ كلّ واحد يكون فاقداً للوجود الثاني وبتعبير آخر أنّنا نصل إلى حدّ ينتهي فيه الوجود الأوّل ويبدأ وجود الثاني ، وعليه فإنّ الوجود الأوّل محدود وهكذا الوجود الثاني لأنّ كلّ واحد يكون ذا بداية ونهاية ، ولنوضّح هذه القضيّة بمثال :**

**شخصان يملك كلّ واحد منهما بستاناً ، ومن الطبيعي أنّ لكلّ بستان حدوداً حتماً ، ولو فرضنا أنّ مساحة البستان الأوّل تشمل كلّ الأرض فأين تكون مساحة البستان الثاني ؟ إذن ، سيكون أمامنا بستان واحد في الأرض .**

**وعليه فإنّ الحديث عن اللامحدود يعني الحديث عن الوحدة .**

**والمراد من برهان ( صرف الوجود ) هو أنّ الله سبحانه وجود مطلق ومجرّد عن القيد والشرط وغير محدود ، ولا يفترض الثاني له أبداً .**

**بهذا التمهيد نتوجّه إلى القرآن الكريم ونستمع خاشعين إلى الآيات التالية :**

**١ ــ ( شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هو وَالمَلائِكَةُ وأُولوا العِلْمِ قائماً بالْقِسْطِ لا إله إلاّ هو العَزِيزُ الحَكيمُ ) سورة آل عمران ــ ١٨ .**

**٢ ــ ( لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ يُحْيي وَيُميتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيء قَدْيرٌ * هُوَ الأَوّلُ والآخِرُ وَالظاهِرُ وَالباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيء**

عَليمٌ ) سورة الحديد ــ ٢ ، ٣ .

٣ ــ ( ياصاحِبَي السّجنِ أَأربابٌ مُتَفرّقونَ خَيرٌ أَمِ الله الواحدُ القَهّارُ ) سورة يوسف ــ ٣٩ .

جمع الآيات وتفسيرها :

الله شاهد على وحدانية ذاته

تمّ تفسير آية البحث الأُولى في مباحث ( برهان الصدّيقين ) السالفة ونمرّ عليها هنا باختصار .

إنَّ مضمون هذه الآية هو أنّ الله عزّوجلّ يشهد على وحدانيته وكذلك الملائكة والعلماء ( كلّ واحد بشكل ) ( شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هو وَالمَلائِكَةُ وأولوا العِلْمِ ) .

ومن علامات وحدانية ذاته المقدّسة هي حكومة النظام والعدل على الكون ، ولعلّ الآية تشير إلى هذا الجانب في ذيلها ( قائماً بالْقِسْطِ ) ثمّ تستند إلى وحدانية ذاته المقدّسة مرّة أُخرى وتقول : ( لا إله إلاّ هوَ العَزيزُ الحَكيمُ ) .

ومن البديهي أنْ لو كانت ثمّة آلهة تحكم الكون ، فإنّ منطقة كلّ إله لا تكون في إختيار الثاني ، وبتعبير آخر يكون كلّ واحد فاقداً لقدرة الثاني ، وهذا لا ينسجم اتّصافه بـــ ( العزيز ) .

كما أنّ حكمته التي تحكم العالم آية أُخرى على وحدانيته ، فلو تعدّدت الأكوان كانت نهايتها الفساد والدمار .

أمّا كيفية شهادة الملائكة بوحدانية الله عزّوجلّ فإنّها واضحة ، ولكن هناك كلام بين المفسّرين حول كيفية شهادة الله على وحدانية ذاته ، فبعض يقول : المراد هو الشهادة اللفظية التي وردت في آيات قرآنية مختلفة ، وبعض يقول : إنّ آثار وحدانيته ظاهرة في عالم الوجود في الآفاق والأنفس لأنّ النظام الوحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة الله على وحدانيته .

إنَّ كلّ ذلك صحيح ، ولكن تضاف إليها شهادة أُخرى وتستحقّ التفصيل فيها وهي أنّ ذاته المقدّسة بنحو يأبى التعدّد ، وجود لا نهاية له ، والوجود اللانهائي واحد فقط ، فذاته إذن دليل على وحدانية ذاته ( فتأمّل جيّداً ) .

ولا منافاة ــ طبعاً ــ بين التفسيرات الثلاث ويمكن أن تكمن في مفهوم الآية ، وعليه فإنّ إصرار بعض المفسّرين مثل صاحب ( الميزان ) في أنّ تفسير الآية ينحصر في المعنى الأوّل ( الشهادة اللفظية ) مع ملاحظة إطلاق لفظ الآية ممّا لا يوجد دليل واضح عليه .

أمّا السبب في تكرار جملة ( لا إله إلاّ الله ) في الآية ، فالظاهر هو أنّ الأولى بمثابة المقدّمة ، والثانية النتيجة ، ولعلّ في الرواية التي وردت في تفسير القرطبي ( المفسّر السنّي المعروف ) عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول فيها : الأُولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم يعني ( قولوا لا إله إلاّ الله العزيز الحكيم )(١).

* * *

هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن

الآية الثانية وهي من الآيات الأُولى من سورة الحديد ــ ونعلم أنّ هذه الآيات تتضمّن بياناً دقيقاً وظريفاً عن صفات الله الجمالية والجلالية لذوي الأفكار الثاقبة ، كما يستفاد من الحديث الوارد عن الإمام علي بن الحسين ( (عليه السلام) ) ــ يقول عزّوجلّ : ( لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ )(٢) ولذلك فإنّ الحياة والموت في قبضته أيضاً ( يُحْيي وَيُميتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيء قَدْيرٌ ) .

---

١ ــ تفسير الرطبي : ج٢ ص١٢٨٥ .

٢ ــ لاحظ أنّ في تقديم ( له ) إشارة إلى الحصر ، ويعني أنّ ملك السماوات والأرض منحصر في ذاته المقدّسة .



وعليه فإنّ المدير والمدبّر لهذا الكون هو ذاته المقدّسة فقط .

وفي ذيل الآية توجد قضيّة يمكن أن تكون دليلا على التوحيد في مالكيته وحاكميته وتدبيره حيث تقول : ( هُوَ الأَوّلُ والآخِرُ وَالظاهِرُ وَالباطِنُ وَهُوَ بِكُلّ شَيء عَليمٌ ) .

في هذه الآية بيان لخمس صفات من صفاته المقدّسة وتدلّ بمجموعها على أنّ ذاته لا نهاية لها ، فهو أوّل كلّ شيء ، وآخر كلّ شيء ، وهو الموجود في الظاهر والباطن ، وله الحضور العلمي في كلّ مكان ، وإنّ مثل هذا الموجد لا يتصوّر أنْ يكون له ثان ، فلو كان الإله الثاني موجوداً فإنّه يعني أنّ الإثنين محدودان وذلك لإنتهاء كلّ واحد عندما يصل إلى الآخر . ويبدأ الثاني .

إذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته ، يقول الفخر الرازي في
تفسيره : إستدلّ الكثير من العلماء على إثبات وحدانيته بعبارة : ( هو الأوّل )(١).

وقد كثر الكلام حول مفهوم ( الأوّل والآخر والظاهر والباطن ) وستأتي لاحقاً أبحاث الصفات الثبوتية بإذن الله ، وينبغي أن نذكر هنا هذه النقطة وهي : أنّ الأوّل في الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخراً وما كان آخراً لا يكون أوّلا ، كما أنّ الوجود الظاهر لا يكون باطناً ، والوجود الباطن لا يكون ظاهراً ، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإنّ هذه المفاهم تكون مجتمعة فيه .

* * *

الآية الثالثة والأخيرة التي نبحث فيها تتحدّث عن لسان يوسف ( (عليه السلام) ) عندما فسّر للسجينين معه حلميهما بعد أن طلبا التفسير منه وتشير إلى أنّ يوسف عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره إلى البحث عن التوحيد الذي

---

١ ــ تفسير الفخر الرازي : ج٢٩ ص٢١٣ ( وجاء هذا المضمون في تفسير روح البيان ج٩ ، ص٣٤٧ أيضاً ) .



يتضمّن أصل السعادات برمّتها وقال لهما : ( ياصاحِبَي السّجنِ أَأربابٌ مُتَفرّقونَ خَيرٌ أَمِ الله الواحدُ القَهّارُ ) .

والملاحظ أنّ صفة ( قهّار ) قد تكرّرت في القرآن الكريم ستّ مرّات(١)وقد وردت في كلّ مورد بعد الصفة ( واحد ) ممّا يدلّ على وجود علاقة بينهما وأنّ قاهريته دليل على وحدانيته ( فتأمّل جيّداً ) .

قام يوسف ( (عليه السلام) ) بطرح المسألة أوّلا على وجدانيهما ، وبما أنّ حقيقة التوحيد ــ كما أشرنا سالفاً ــ كامنة في أعماق الفطرة الإنسانية فقد أقام المحكمة بين يدي الوجدان وسأل : أأرباب متفرّقون ، إله البحر ، إله الصحراء ، إله الأرض ، إله السماء ، إله الماء ، إله النار ، وهكذا الملائكة والجنّ والفراعنة والأصنام الحجرية والخشبية والمعدنية التي تعبدونها خير أم الله الواحد المهيمن على كلّ شيء ؟ وكلمة ( قهّار ) صيغة مبالغة من ( القهر ) ويعني كما يقول الراغب في المفردات : الغلبة وإذلال الطرف المقابل ، ولكن هذا اللفظ يستعمل في كلّ واحد من هذين المعنيين ( الغلبة والإذلال ) مستقلا ، وكما يقول الطبرسي في مجمع البيان : القاهر هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ، من هنا تتّضح العلاقة بين صفة الوحدة والقاهرية ، فحينما نذعن بقدرته الغالبة على كلّ شيء أي أنّها غير محدودة فإنّنا لا نتصوّر له ثانياً ، لأنّ كلّ ما سواه مغلوب له ومقهور ، ولذلك لا يمكن أن يكون ما سواه واجب الوجود وغير محدود ( فتأمّل جيّداً ) .

إيضاحات

١ ــ انّه حقيقة لا متناهية

القضيّة الاُولى والأكثر أهمّية في باب ( صفات الله ) الواجب إثباتها

---

١ ــ سورة الرعد : ١٦ ، إبراهيم : ٤٨ ، ص : ٦٥ ، الزمر : ٤ ، غافر : ١٦ ، وآية البحث .



لإيضاح مسألة التوحيد وصفات الله الاُخرى كالعلم والقدرة وأمثالها هي أنّ ذاته المقدّسة لا متناهية ، فإن ثبتت هذه القضيّة وفُهمت جيّداً تيسّر الطريق إلى جميع الصفات الجمالية والجلالية ( الصفات الثبوتية والسلبية ) .

ولإثبات هذا الأمر وهو أنّه تعالى وجود لا نهاية له ، لابدّ من ملاحظة النقاط التالية :

أ ــ محدودية الوجود تعني التقارب مع (العدم) فلولا العدم لا يستقرّ مفهوم للمحدودية، فعندما نقول: إنّ عمرفلان محدود فإنّه يعني أنّ عمره سينتهي إلى العدم ومقرون بالعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وأمثالها.

ب ــ الوجود ضدّ العدم ولو كان الشيء مقتضياً للوجود ذاتاً فإنّه لا يقتضي العدم أبداً .

جـــ ــ ثبت في برهان العلّة والمعلول أنّ سلسلة العلّة والمعلول في هذا الكتاب يجب أن تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية نسمّيها واجب الوجود ، أي وجوده ناشيء من أعماق ذاته لا خارجها ، وعليه تكون العلّة الاُولى للكون تقتضي الوجود ذاتاً .

أعِد قراءة هذه المقدّمات الثلاث بدقّة وفكّر فيها جيّداً ، فسوف يتّضح أنّ واجب الوجود إذا تحدّد فإنّه يجب أن يكون من الخارج ، لأنّ المحدودية طبق هذه المقدّمات تعني الإقترن بالعدم ، والشيء المقتضي للوجود ذاته لا يقتضي العدم أبداً ، ولو اتّصف بالمحدودية فإنّه راجع إلى عامل خارجي ، ويستلزم هذا القول أنّه ليس واجب الوجود لأنّه مخلوق لغيره من حيث حدّهِ الوجودي ومعلول لغيره .

وبعبارة اُخرى : لدينا واجب الوجود دون شكّ ( لأنّ البحث في التوحيد والوحدانية بعد إثبات واجب الوجود ) فإن كان واجب الوجود غير محدود فمدّعانا ثابت ، وإن كان محدوداً فإنّ هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته أبداً ، لإقتضاء ذاته الوجود دون إقتران بالعدم ، فلابدّ من فرضه عليه من الخارج ،



ومفهوم هذا الكلام هو وجود علّة خارج ذاته وهو معلول تلك العلّة ، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود ، والنتيجة هي أنّه وجود غير محدود من كلّ جهة .

٢ ــ الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً

ثبت في البحث السابق أنّ الله عزّوجلّ وجود غير محدود وغير متناه ، وهنا نقول : أنّ مثل هذا الحقيقة تأبى الإثنينية ولا تكون إلاّ واحدة لما قلنا مراراً أنّه لا يمكن تصوّر شيئين غير محدودين أبداً ، حيث تقترن الإثنينية
بالمحدودية دائماً وهذا أمر واضح لأنّ تصوّر الوجودين ممكن حينما يكون كلّ وجود منفصلا عن الآخر ، فكلّ واحد ينتهي عند الوصول إلى الثاني ويبدأ الآخر .

وإختبار هذا الأمر يسير ، تصوّر على سبيل المثال ضوء غير مقيّد أو مشروط بزمان أو مكان أو سعة أو مصدر وغير محدود من أيّة جهة ، فهل يمكنك أن تتصوّر ضوءً ثانياً مثيلا له ؟! فبالتأكيد سيكون الجواب : كلاّ ، لأنَّ كلّ ما تتصوّره هو الأوّل إلاّ أن تضيف إليه شرط أو قيد وتقول : الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك .

بعبارة أُخرى عندما نقول : يوجد ضوءان في الخارج فإنّه إمّا بملاحظة زمانيهما أو مكانيهما أو مصدريهما أو شدّة نوريهما ، ولو تجرّدا من كلّ قيد أو شرط فإنّهما سيكونان واحداً قطعاً ( فتأمّل جيّداً ) .

ولعلّ الآية الكريمة التي تقول : ( وَمنْ يدعُ مَع اللهِ اِلهاً آخَر لا بُرهانَ لَهُ بِه فانَّما حِسابُه عِنْدَ ربّهِ إنَّه لا يُفلحُ الكافِرُون )(١) تشير إلى هذا المعنى حيث لا يمكن الإستدلال على وجود ندٍّ لله سبحانه أبداً ، فكيف يمكن الإستدلال على أمر لا

---

١ ــ سورة المؤمنون : ١١٧ .



يمكن تصوّره ؟

٣ ــ دليل صرف الوجود في الأحاديث الإسلامية

إنَّ البرهان المذكور نقل بقول جميل في رواية عن الإمام السجّاد ( (عليه السلام) ) حيث قال : « انّ الله لا يوصف بمحدودية ، عظُم ربّنا عن الصفة وكيف يوصف بمحدودية من لا يُحد »(١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الرضا ( (عليه السلام) ) : « هو أجلّ من أن تدركه الأبصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل » فسأل سائل : فما حدّه ؟ فقال ( (عليه السلام) ) : « انّه لا يحدّ ، قال : لِمَ ؟ قال ( (عليه السلام) ) : لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ ، فإذا احتمل التحديد إحتمل الزيادة ، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان ، فهو غير محدود ، ولا متزايد ولا مُتَجزِّ ولا متوهّم »(٢).

* * *

---

١ ــ أُصول الكافي : ج١ ، ص١٠٠ باب النهي عن الصفة ، الحديث ٢ .

٢ ــ بحار الأنوار : ج٣ ، ص١٥ ، الحديث ١ .

## دليل الفيض والهداية

## دعوة الأنبياء جميعاً

## إلى الله الواحد

[١٧٩]

[١٨٠]

**تمهيد :**

إنَّ الله سبحانه وجود كامل ، ومثل هذا الوجود يكون مصدراً للفيض على الآخرين وكمالهم ، فهل يعقل أنَّ مصدر لاكمال يحرمُ الموجودات الأُخرى من فيضه ولا يعرّفهم ــ على الأقل ــ نفسه ؟ مع أنّ هذه المعرفة سبب لرقيّهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفيّاض .

وعلى ضوء هذا البيان يتّح أنّه لو كان هناك عدّة آلهة لوجب أن يكون لكلّ إله منهم رسل ، وأن يعرّف نفسه إلى مخلوقاته ، وأن يشملهم بفيضه التكويني والتشريعي .

والنتيجة هي : أنّنا لو وجدنا أنّ الرسل بأجمعهم يخبرون عن إله واحد ، لاتّضح أنّ غيره لا وجود له .

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم ونستمع خاشعين إلى الآيات التالية :

١ ــ ( وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلاّ نُوحي إليهِ أنّهُ لا إله إلاّ أنا فاعْبدون ) سورة الأنبياء ــ ٢٥ .

٢ ــ ( وَاسألْ مَنْ أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرّحمن آلِهة يُعْبَدون ) سورة الزخرف ــ ٤٥ .

٣ ــ ( قُلْ أَرأَيتُم ما تَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ أرُوني مَاذا خَلَقوا منَ الأَرضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمواتِ إتُوني بِكتاب مِنْ قَبلِ هذا أو اثارة مِنْ عِلْم إنْ كُنْتُم صادِقِينَ ) سورة الأحقاف ــ ٤ .

[١٨١]

**دعوة الأنبياء العامّة إلى الله الواحد**

**إنَّ آية البحث الأُولى تشير إلى تاريخ الماضين من الأنبياء وتقول : ( وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلاّ نُوحي إليهِ أنّهُ لا إله إلاّ أنا فاعْبدون ) .**

**أجل فإنّ الأنبياء جميعاً كانوا ينادون بالتوحيد ويدعون الناس إلى الله الواحد ويشهد تاريخهم بهذا الأمر ، فكيف يعقل أن يكون للشرك حقيقة وجميع الأنبياء يدعون إلى التوحيد ؟!**

**فهل كان هناك إله آخر ولكنّه لم يعرّف نفسه ؟ أو أنّ الرسل قصّروا في إبلاغ أمره ؟ والعقل السليم لا يُقرّ بقول من هذه الأقوال .**

**وكما يقول بعض المفسّرين : يقوم القرآن الكريم في آيات هذه السورة ( الأنبياء ) بالإستدلال العقلي أوّلا لإثبات التوحيد : ( لَو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله ... )ثمّ بالدليل النقلي ( آية البحث ) حيث دعا جميع الأنبياء الماضين إلى التوحيد(١).**

* * *

**أمّا الآية الثانية فهي : تطرح هذا المضمون في إطار آخر حيث تخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ( المراد هم الناس طبعاً ) وتقول : ( وَاسألْ مَنْ أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ منْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرّحمن آلِهة يُعْبَدون ) .**

**وقد احتمل المفسّرون عدّة إحتمالات في كيفية أمر الرسول ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) بأن يسأل الأنبياء السابقين مع عدم حضور أحدهم في عصره ، فقد قال البعض : أنّ المراد هو السؤال من الاُمم السابقة كي تثبت القضيّة عن طريق الخبر المتواتر ، فالاُمم حتّى التي تعتقد بالتثليث وأمثاله ، عندما تسأل عن ذلك فإنّها تعلن عن**

---

١ ــ تفسير القرطبي : ج٦ ص٤٣٢٠ .

إعتقادها بالتوحيد وتعبِّر عن ذلك بـــ ( التثليث في الوحدة ) .

وهذه الآية تعطي ــ في الحقيقة ــ مفهوم الآية ٩٤ من سورة يونس حيث خاطبه تعالى بقولهِ : ( فاسأل الّذينَ يقرؤونَ الكتاب مِن قبلك ) ، وقد احتمل هذا أيضاً وهو : أنّ المراد هو مراجعة كتبهم المتبقّية في أُممهم ، فإنّ إستخراج القضايا منها بمثابة السؤال عن أُولئك الأنبياء .

وقال جماعة أيضاً : أنّ المراد هو سؤال النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) من أرواح الأنبياء ( (عليهم السلام) ) السابقين ليلة المعراج بل في غير ليلة المعراج ، لأنّ روح نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) من العظمة ما لا يعيقها البعد الزمني والمكاني فكان بإمكانه أن يتّصل بأرواح الأنبياء السابقين .

وبما أنّ الهدف الرئيس من الآية هو الإستدلال أمام المشركين ، فقد كان المعنى الأوّل والثاني هو المناسب وذلك لأنّ الإرتباط المعنوي للنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) مع أرواح الأنبياء السابقين لم يتقبّله المشركون وكان مفيداً للنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) نفسه ، وإنّا نعلم أنّ إيمان النبي بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها إلى طرح مثل هذا السؤال نفسه .

والتفسير الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطني للآية وقد تضمّنت روايات متعدّدة الإشارة إلى ذلك(١).

على كلّ حال فإنّ المراد هو أنّ دعوة نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) إلى التوحيد ليس أمراً جديداً أو عجيباً بل أمر قد اتّفق عليه جميع الأنبياء الإلهيين وهذا بنفسه دليل واضح على قضيّة التوحيد .

والإستناد إلى الإسم المقدّس ( الرحمن ) في هذه الآية إشارة إلى أنّ من يستحقّ العبودية هو الإله الذي تشمل رحمته العامّة حتّى الكافرين المشركين والبشر جميعاً ، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولي نعمتهم الذي غمرهم إحسانه

---

١ ــ تفسير البرهان : ج٤ ، ص١٤٧ ، تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٦٠٦ ، ٦٠٧ .



ويتوجّهوا إلى الأصنام الخاوية ؟

هل تمتلكون دليلا على الشرك ؟!

إنَّ الآية الثالثة والأخيرة ضَمَّت الدليل النقلي المذكور إلى جانب دليل عقلي آخر إذ تقول : ( قُلْ أَرأَيتُم ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أرُوني مَاذا خَلَقوا منَ الأَرضِ أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمواتِ ) .

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقيّة فإنّها ينبغي أن تكون مبدأً للفيض ، وعلى الأقل أن تخلق قسماً من الأرض وتساهم في خلق السموات ، فهل يعقل أن يكون الإله فاقداً للفيض ؟

ومن جهة أُخرى : أي نبي دعا الناس إلى آلهة متعدّدة ؟ ( ائتُوني بِكتاب مِنْ قَبلِ هذا أو أثارة مِنْ عِلْم إنْ كُنْتُم صادِقِينَ ) .

وهذا التعبير يشير إلى أنّ الأنبياء ( (عليهم السلام) ) أجمعوا على التوحيد ، وهذا الإجماع أو الاتّفاق دليل واضح على القضيّة ، وبهذا يكون كتاب الخلق دليلا على التوحيد وكذلك كتب الأنبياء السابقين .

( اثارة من علم ) من مادّة ( اثر ) ولهذا اللفظ ــ كما في ( مقاييس اللغة ) ــ ثلاث معان : التقديم والذكر وأثر الشيء .

وقد ورد هذا المضمون في تفسير الفخر الرازي ولكن بتعبير آخر حيث ينقل المعاني الثلاث لــ ( اثار )(١).

ايضاحات

الفيض والهداية في الروايات الإسلامية

ورد ( برهان الهداية والفيض ) في الروايات الإسلامية إلى جانب القرآن

---

١ ــ التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ١ مادّة أثر .



الكريم ، فقد تحدّث الإمام علي ( (عليه السلام) ) في وصيّته المعروفة إلى الإمام الحسن ( (عليه السلام) ) عن هذا البرهان ببيان جميل وواضح حيث قال : « واعلم يابني أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه »(١).

توضيحه : إنّ الله حكيم ، والإله الحكيم له آثار الهداية والفيض حتماً ، في عالم التكوين والخلق وفي عالم التشرع والدين ، فكيف يمكن أن يوجد إله آخر ولا نرى آثار صنعه في ساحة الوجود ولا نشاهد علامة من رسله ؟ وهذا لا ينسجم مع حكمته أبداً لأنّ في ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته .

ثمّ أنّ دعوة الأنبياء المرسلين من قبل الله جميعاً لا تنسجم مع فرض وجود إلهين ، فهل يعقل أن يطرح الإله الذي يرسل الأنبياء قضيّة غير صحيحة ويدعو إلى التوحيد كذباً ؟! فهذا لا ينسجم مع حكمته أيضاً .

ولا ينحصر طريق إثبات وحدانية الله في هذا الدليل فقط لوجود أدلّة أُخرى أشرنا إليها سابقاً ، أمّا إجماع الأنبياء ( (عليهم السلام) ) واتّفاقهم على الدعوة إلى الله الواحد فهو يُعدّ دليلا مستقلا .

* * *

٥ ــ برهان التركّب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلا خامساً على إثبات وحدانية ذات الله المقدّسة ولم نعثر على آية قرآنية تصرّح بذلك ، ولذا نورده على شكل إيضاح

---

١ ــ نهج البلاغة : الرسالة ٣١ .



في ختام هذا البحث وخلاصته :

لو كان لله مثيلٌ فهما متشابهان من حيث الوجود ولكنَّ إثنينيتهما توجب أن تكون لكلّ واحد منهما خصوصيات ، وبهذا يكون كلّ واحد مركّباً من جزأين ، ( ما به الاشراك ) و ( ما به الإمتياز ) وحينئذ لابدّ أن نذعن بأنّ كلّ واحد منهما محتاج إلى أجزائه ، لأنّ المركّب لا يكون بدونه اجزائه ، ولو كان محتاجاً فإنّه لا يكون واجب الوجود ، لأنّ واجب الوجود والمبدأ الأوّل للكون غني عن كلّ شيء .

فهو إذن لا مثيل له كما أنّه لا اجزاء له ، ولو كان له مثيلٌ فإنّه سيكون ذا اجزاء قطعاً ، فهو إذن وجود بسيط من كلّ جهة ولا شريك ولا مثل له من كلّ جهة .

* * *

٦ ــ التوحيد والأدلّة النقلية

إنَّ الأدلّة الخمسة المذكورة هي أدلّة عقليّة لإثبات وحدانية ذات الله المقدّسة ، ويمكن هنا الإستفادة من الدليل النقلي أيضاً ، لأنّه بعد إثبات وجود الله وإثبات نبوّة رسول الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وصدق دعوته ، فإنّ ما جاء في هذا الكتاب السماوي ( أي القرآن الكريم ) هو تبيان للحقائق التي لا تُنكر ، هو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل الله الحكيم والصادق ، ومثل هذا الإنسان لا يقول قضيّة خاطئة .

من هنا يمكن الإستعانة بآيات القرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات الله المقدّسة ، والقرآن الكريم زاخر بهذه الآيات ، بل أنّ أي موضوع لم يتكرّر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكّد صفة من صفات الله إلى هذا الحدّ .

يقول المرحوم العلاّمة المجلسي ( (قدس سره) ) في بحار الأنوار لدى إستدلاله

[١٨٦]

بهذا الدليل .

من الواضح أنّ وجود الدليل النقل لا يتعارض مع الإستدلالات العقلية ( الأدلّة السمعية من الكتاب والسنّة وهي أكثر أن تحصى ولا محذور في التمسّك بالأدلّة السمعية في باب التوحيد وهذه هيْ المعتمد عليها عندي )(١).

خاصّة وأنّ الأدلّة العقلية المذكورة لها جذور في الكتاب والسنّة الشريفة .

---

١ ــ بحار الأنوار : ٣/٢٣٤ .

[١٨٧]

[١٨٨]

## مصادر الشرك الهامّة

### ١ ــ إتّباع الأوهام

[١٨٩]

[١٩٠]

**تمهيد :**

**بما أنّ الفطرة الإنسانية ــ كما أسلفنا في بداية بحث التوحيد ــ قد نشأت على التوحيد والوحدانية ، كما إنّ الأدلّة العقلية والنقلية الواضحة تعزّز هذه الفكرة ، فإنّ هذا السؤال يطرح نفسه وهو : ما السبب إذن ان ينبت الشرك وينمو كالشوك في طريق معرفة الله على أرض الإنسان ؟ وما المصدر لهذا الإنحراف الكبير أو الإنحراف الفكري لأكبر لدى الإنسان ؟**

**يمكن الكشف عن هذه القضيّة والتدليل على المصادر الرئيسة للشرك عن طريق دراسة تاريخ الأنبياء ( (عليهم السلام) ) والاُمم المختلفة والحجج التي تمسّك بها عبدة الأصنام لتبرير موقفهم على طول التاريخ ، ومن البديهي إنّ التعرّف على هذه المصادر يعين بشدّة على محاربة هذه الآفة الكبيرة ، لأنّ معرفة عوامل الأمراض تمهِّد الطريق إلى علاجها دائماً .**

**وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونستمع إلى الآيات التالية :**

**١ ــ ( وَمَنْ يَدعُ مَعَ اللهِ الهاً آخَ لا بُرهان لَهُ بِه فإنّما حِسابُه عِندَ رَبِّهِ اِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ) سورة المؤمنون ــ ١١٧ .**

**٢ ــ ( مَا تَعْبدُون مِنْ دُونِهِ إلاّ أسْماءً سَمَّيتُمُوها أنْتُم وآباؤُكُم مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها منْ سُلْطان إنْ الحُكم إلاّ للهِ أمَرَ أنْ لا تَعْبُدوا إلاّ إيّاهُ ذلِك الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكْثَر النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ) سورة يوسف ــ ٦٠ .**

**٣ ــ ( ويَعْبدُونَ مِنْ دُون اللهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بهِ سُلْطاناً ومَا لَيْسَ لَهُمْ بهِ عِلْمٌ وَما لِلظّالِمينَ مِنْ نَصير ) سورة الحجّ ــ ٧١ .**

**٤ ــ ( ألا إنَّ للهِ مَنْ في السَّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ وَما يَتْبعُ الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ إنْ يَتَّبعُونَ إلاّ الظَنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصونَ ) سورة يونس ــ ٦٦ .**

٥ ــ ( وَما يَتَّبع أكثَرُهُمْ إلاّ ظَناً إنَّ الظَنَّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شَيئاً انَّ اللهَ عَليمٌ بما يَفعلونَ ) سورة يونس ــ ٣٦ .

٦ ــ ( إنْ هي إلاّ أسْماءٌ سَمَّيْتُموها أَنْتُم وَآباؤكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان إنْ يَتَّبعُونَ إلاّ الظَنَّ وَما تَهوى الأَنْفُس ) سورة النجم ــ ٢٣ .

٧ ــ ( أم اتَّخذوا مِنْ دُونِه آلِهَة قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم هذا ذِكْرُ مَنْ مَعيَ وذِكْرُ مَنْ قَبلي بَل أكثرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ) سورة الأنبياء ــ ٢٤ .

شرح المفردات :

( الظنّ ) يعني ــ كما يقول الراغب في المفردات ــ : الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شيء فإنّ قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنّه لا يتجاوز حدّ الوهم ، وأمّا ابن منظور فإنّه يقول في لسان العرب : يستعمل الظنّ بمعنى الشكّ واليقين كليهما إلاّ أنّه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبّر ، وأمّا الحاصل عن طريق المشاهدة فإنّه يطلق عليه بـــ ( العلم ) .

وفي النهاية لابن الأثير : إنّ الظنّ يستعمل تارةً بمعنى العلم وأُخرى بمعنى الشكّ وتارةً بمعنى التهمة .

وقد إستعمل هذا اللفظ في آيات البحث بمعنى الأوهام الواهية
وعديمة الأساس ( الآيات نفسها تتضمّن قرائن على هذا المعنى وستتمّ الإشارة إليها ).

خرْص على وزن ( غرْس ) يعني كما يقول صاحب ( صحاح اللغة ) تخمين وزن التمر الذي يحصل من رطب النخيل ، كما أورد الراغب هذا المضمون في مفرداته .

ثمز أطلق على كلّ حدس وتخمين وبما أنّهما لا يصيبان دائماً ، فإنّه إستعمل بمعنى الكذب أيضاً ، وهذا اللفظ يطلق في الأساس على كلّ ظنّ لا أساس راسخ له .



كما أنّ هناك معاني أُخرى لمشتقّاته مثل ( الرمح ) ( الحلقة ) و ( الحوض الكبير الذي يكون على ساحل النهر ويدخل فيه ماؤه ويرجع منه ) ولا يبعد أن ترجع هذه المعاني كلّها إلى الجذر

نفسه حيث يقترن التخمين والظنّ بالتزلزل وعدم الثبات ويتّصف الرمح والحلقة والحوض الخاصّ المذكور بهذا الوصف(١).

( برهان ) هو الدليل القطعي المحكم وجاء أيضاً بمعنى الدليل والإيضاح ، ويقول الراغب في المفردات : البرهان يعني البرهان المحكم ، ويعتقد البعض أنّه مشتقّ من ( بَرَهْ ) ويعني الإبيضاض ، ثمّ أُطلق على كلّ كلام واضح وصريح ليس فيه أي إبهام ، أو الأُمور الواضحة التي لا خفاء فيها(٢).

وما ورد في الحديث : ( الصدقة برهان ) لِعلّة لما للإنفاق في سبيل الله من دلالة على صحّة إيمان الإنسان .

( سلطان ) ويعني في الأصل ــ كما في مقاييس اللغة ــ القوّة والقدرة المصحوبة بالغلبة وبما أنّ الإستدلال القوي يكون سبباً لتغلّب الإنسان على طرفه المقابل فإنّ لفظ ( سلطان ) أُطلق على الدليل المحكم أيضاً .

( سليط ) ورد تارةً بمعنى الرجل الفصيح ، وأُخرى بمعنى الإنسان المزعج وبدي اللسان و ( سليطة ) الذي يستعمل في النساء يحمل على هذا المعنى الأخير وكلّها مشتقّة من مادّة ( سلطة ) .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها :

---

١ ــ التحقيق في كلمات القرآن الكريم ــ مادّة خرص .

٢ ــ التحقيق في كلمات القرآن الكريم والكلمات التي نلاحظها مثل ( برهن ، يبرهن ) أو الوصف ( مبرهن ) فإنّه لون من الإشتقاق الإنتزاعي نظير كلمة ( سلطان ) المشتقّة من سلْط ( سلطن يسلطن ) .



الغطس في عالم الأوهام !

تؤكّد الآية الشريفة الأُولى من خلال الإشارة إلى عقوبة المشركين على حقيقة أنّ ( الشرك ) ليس له أي دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والأوهام فنقول : ( وَمَنْ يَدعُ مَعَ اللهِ الهاً آخرَ لا بُرهان لَهُ بِه فإنّما حِسابُه عِند رَبِّهِ اِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ) .

ومن الملاحظ أنّ عقوبة المشركين هنا غير موضّحة بل تقول الآية : ( حِسابُه عِندَ رَبِّهِ ) وهو أكبر تهديد ، لأنّ العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبارة ( لا برهان له ) تفيد ــ في الواقع ــ هذا الأمر وهو : أنّ الشرك لا يدلّ عليه أي دليل سواء كان عقليّاً أو نقليّاً ولا تنسجم الفطرة معه ولا المنطق ، بل كلّما أمعنّا النظر في هذه القضيّة ظهر بطلانها أكثر .

والتعبير بـــ ( لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ) شامل ينفي كلَّ فلاح عن الكافرين في الحياة المادية والمعنوية ، في الدنيا والآخرة ، ويؤيّد هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون .

* * *

أسماء بلا عناوين

طرحت الآية الثانية هذا المضمون في إطا جميل آخر وتقول عن لسان يوسف ( (عليه السلام) ) وهو يخاطب رفيقه في السجن : ( مَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِهِ إلاّ أسْماءً سَمَّيتُمُوها أنْتُم وآباؤُكُم ) والشاهد على ذلك هو أنّها ( مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها منْ سُلْطان )، فلو كانت حقائق لقام عليها الدليل العقلي والنقلي ، فمن المحال أن يفقد الدليلَ أمرٌ بهذه الدرجة من الأهمية ( وهو وجود الشريك لله عزّوجلّ ) ، وعدم الدليل هذا دليل على العدم !

من هنا تستنتج الآية في الخاتمة ( إنْ الحُكمُ إلاّ لله ) و ( أمَرَ أنْ لا تَعْبُدوا إلاّ



إيّاهُ ) و ( ذلِك الدّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ) .

وكلّ جملة ــ في الحقيقة ــ في هذه الآية بمثابة دليل على نفي الشرك ، حيث تقول من جهة : إنّ الله لم ينزل أي دليل على وجود آلهتكم . وتقول من جهة اُخرى : إنّ حاكمية العالم وتدبيره مختصّ به حيث تلاحظ علامات الوحدة في التدبير في كلّ مكان .

وتقول من جهة ثالثة : إنّه أمر بعبادة الإله الواحد ، فهل يعقل أن يأمر الإله الحكيم بأمر كاذب ؟

وفي الختام فإنَّ الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل .

ونقل بعض المفسّرين بأنّ عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بأنّ الله هو النور الأعظم ، ويعتقدون بأنَّ الملائكة أنوار صغيرة ، وأمّا الأصنام في الأرض فإنّها مظهر للأنوار السماوية تلك ويطلقون عليها ( المعبود ) وبذلك تكون معبوداتهم أسماءً بدون مسمّى(١).

ولو تغافلنا عن هذا المعنى أيضاً وسلّمنا بأنّ الأصنام هي الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنّها كانت أسماء دون مسمّيات أيضاً ، وذلك لعدم وجود أثر من آثار الألوهية في هذه الأحجار والأخشاب الميتة .

تضمَّنت الآية الثالثة محتوىً شبيهاً لما في الآية السابقة حيث تقول في ذمّ عبدة الأوثان ( وَيَعبدُونَ مِنْ دُون اللهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بهِ سُلْطاناً ) .

وهو في الحقيقة نفي لوجود دليل نقلي ، وتضيف الآية : ( ومَا لَيْسَ لَهُمْ بهِ عِلْم ) وفي ذلك إشارة إلى نفي لوجود دليل عقلي .

وتقول الآية في الخاتمة ( وَما لِلظّالِمينَ مِنْ نَصير ) .

فلا معين لهم على دفع عذاب الله ولا رشد لهم في طريق الهداية ولا ينصرهم الدليل العقلي ( ويمكن أن تجتمع التفسيرات الثلاث في مفهوم

---

١ ــ التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ، ص١٤١ .



الآية ) .

الاستناد إلى الحدس والتخمين

تحدّثت الآية الرابعة في أوّلها عن مالكية الله لجميع مَن في السموات والأرض حيث تقول : ( ألا إنَّ للهِ مَنْ في السَّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ ) .

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى عقيدة المشركين الذين أقرّوا بأنّ المالك والحاكم الأصلي هو الله ، ومع ذلك فإنّهم كانوا يعبدون الأصنام ، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أنّ المدبّر الواحد هو الحاكم عليه .

ثمّ تضيف : ( وَما يَتّبعُ الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ ) .

بل إنّهم يتّبعون أوهامهم وظنونهم فقط ( إنْ يَتَّبعُونَ إلاّ الظَنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصونَ )(١).

( يخرصون ) ــ كما أُشير سالفاً ــ مشتقّ من ( خرْص ) ويأتي بمعنى ( التخمين ) و ( الكذب ) لأنّ التخمين لا يصيب في أكثر الموارد ، وآية البحث تحتمل المعنيين .

وقد ورد هذا المضمون وبفارق يسير في الآية الخامسة التي تقول بعد ذكر إنحراف عبدة الأوهام ( وَما يَتَّبع أكثَرُهُمْ إلاّ ظَناً إنَّ الظَنَّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شَيئاً ) ثمّ تهدّد هؤلاء الظانين بتعبير ذي معنى كبير ( إنغ اللهَ عَليمٌ بِما يَفعلونَ ) .

أجل ، أنّ الظنّ والوهم كالسهم في الظلام ، لا يمكن إصابة الهدف به أبداً،

---

١ ــ وفقاً لهذا التفسير تكون ( ما ) في ( وما يتبع ) نافية وفاعل ( يتبع ) هو ( الذين ) ومفعول ( شركاء ) أي أنّ المشركين لا يتّبعون في الحقيقة شريكاً لله تعالى ( لأنّ الله لا شريك له وهؤلاء الشركاء من صنع الأوهام ) ، ولكن إحتمل جمع من المفسّرين بأنّ ( ما ) هنا إستفهامية فيكون معنى الجملة هو : أي شيء يتّبعونه من دون الله ويجعلونه شريكاً له ؟ فهل هناك إلاّ الظنّ ؟ ( النتيجة في الإثنين واحدة تقريباً ) . راجع تفسير مجمع البيان وتفسير الفخر الرازي والقرطبي وتفسير الكشّاف وروح المعاني في ذيل آية البحث وقد إحتمل البعض أنّ ( ما ) هنا موصولة إلاّ أنّه يبدو بعيداً .



ولو أصاب فإنّه يكون بدون تركيز على الهدف بل يكون محض صدفة .

( الظنّ ) في اللغة يشمل كلّ ظنّ ووهم ، وإن أطلق أحياناً على اليقين أيضاً إلاّ أنّ المراد في آية البحث هو المعنى الأوّل .

ومن الملاحظ إنّ اتّباع الظنّ ينسب إلى أكثرهم لا إلى جميعهم ، وقد ألفتَ هذا المعنى أنظار الكثير من المفسّرين .

فقال البعض انّ ( أكثر ) هنا تعني الجميع ( ولم يقم على هذا التفسير دليل ) .

ومن الأفضل : أن يقال إنّ الآية تقصد الغالبية الجاهلة التي تتأثّر بالأوهام الخاطئة وتتعرّض للشرك ، وتقابلها الفئة القليلة من رؤوس الضلال الذين يدعون الناس إلى الضلال(١) على علم منهم ، والأمل في الهداية موجود طبعاً في الفئة الأُولى فقط ووجه الخطاب معهم .

كما احتمل البعض أنّ في ( أكثر ) إشارة إلى جماعة تتبع الظنّ والوهم طيلة حياتها ومن جملتها ( الشرك ) فهي تطفو فوق أمواج من الأوهام وحجب الظلام والخيال(٢).

* * *

الآية السادسة تُشبه الآية الثانية في مضمونها من جهات ، حيث تقول : ( إنْ هي إلاّ أسْماءٌ سَمَّيْتُموها أَنْتُم وَآباؤكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان ) وهذه الجملة توضّح هيمنة روح التقليد الأعمى على المشركين حيث اتّبعوا أسلافهم بعيون وآذان مغلقة ثمّ تضيف : ( إنْ يَتَّبعُونَ إلاّ الظَنَّ وَما تَهوى الأَنْفُس ) .

والملاحظة الجديدة هنا هي عطف ( هوى النفس ) على ( الظنّ ) وهو

---

١ ــ ورد ما يشابه هذا المضمون في تفسر ( روح البيان ) ج٤ ص٤٥ وتفسير روح المعاني ج١١ ، ص١٠٣ .

٢ ــ وقد ورد هذا الإحتمال أيضاً في تفسير روح المعاني .



تعبير كثير المعنى وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الظنون الواهية تنشأ من هوى النفس الذي يجعل من الباطل حقّاً في منظارهم ، فهم إذن يعبدون أهواء أنفسهم في الواقع والأصنام الاُخرى وليدة لها !

وعليه يكون مصدر الإنحراف والضلال لديهم في الواقع أمرين : عدم الإستناد إلى اليقين من الناحية العقلية والعقائدية والتمسّك بالظنون
والإنصراف عن فطرة التوحيد الصحيحة من الناحية العاطفية والإستناد إلى هوى النفس .

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام أيضاً وهي إنَّ ( يتّبعون ) و ( تهوى ) فعلان مضارعان ، ويعني ذلك إنّ هؤلاء يستمرّ أتباعهم للظنّ وهوى النفس ويتلونون كلّ يوم بلون جديد !

والملاحظ إنّ أوّل الآية تخاطب المشركين وآخرها تذكرهم بإستخدامه ضمير الغائب ( التفات من المخاطب إلى الغائب ) وفي ذلك إشارة إلى أنّهم لا شأن لهم حتّى يستحقّون الخطاب .

أظهرت الآية السابعة والأخيرة الحقيقة نفسها ولكن في إطار جديد حيث تقول : ( أم اتَّخذوا مِنْ دُونِه آلِهَة ) ( قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم ) .

ولعدم إمتلاككم دليلا واضحاً وموجّهاً على الشرك فإنّكم مدانون .

ثمّ تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول : ( هذا ذِكْرُ مَنْ مَعيَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلي )(١).

والتعبير بـــ ( ذكْر ) بدلا عن الكتب السماوية إشارة إلى أنّ جميع هذه الكتب عامل تذكير ووعي ، وقد ذكر بعض المفسّرين معاني أُخرى لكلمة « ذكر » ولكنّها لا تبدو مناسبة .

وذيل الآية يؤكّد مرّة أُخرى على هذا المضمون حيث يقول : ( بَل أكثرُهُمْ

---

١ ــ في هذه الآية إستدلال بالدليل النقلي في حين إستدلّ في الآيتين السابقتين بالدليل العقلي وبرهان التمانع ( تدبّر ) .



لا يَعْلَمُونَ الحقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ) وإن كانت هناك فئة قليلة تدرك القضايا ، إلاّ أنّها لا تظهر الحقّ لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة .

ويمكن الإستنتاج جيّداً من مجموعة الآيات الواردة بأنّ الشرك وعبادة إلهين فما فوق ليس له دليل عقلي ولا برهان نقلي ، ومن المحال أن تكون مثل هذه القضيّة المهمّة موجودة لا يتوفّر لها دليل عقلي أو نقلي ، وعليه فإنّ فقدان الدليل هذا دليل قاطع على بطلانه .

* * *



المصدر الثاني للشرك

« اتّباع الحواس »





تمهيد :

عندما يولد الإنسان في هذا الكون فإنّه يرى المحسوسات ويميل إليها ويتّخذها أساساً لمعلوماته ، وعندما يسمو في فكره وعلمه فإنّه يتعرّف تدريجياً على القضايا العقلية والفكرية .

إلاّ أنّ مجموعة تتوقّف في مرحلة الحسّ بسبب التخلّف الثقافي ، ولهذا لا يمكنها أن تفكّر وتؤمن بشيء سوى المحسوسات لديها ولهذا تتوقّع أن يكون لله وجود حسّي فتنظرُ إليه بأعينها وتلمسه بيدها !! وهذا هو من أهمّ الجذور في ( عبادة الأصنام ) و ( الآلهة المحسوسة ) على مرّ التاريخ .

وبهذه الإشارة نتوجّه إلى القرآن الكريم لنستمع خاشعين إلى الآيات التالية :

١ ــ ( وقالَ الّذينَ لا يَرْجُونَ لَقاءَنا لَولا اُنزِلَ عَلَينا الملائكةُ أو نَرى رَبَّنا لَقَدْ استكبَروا في أنْفُسِهِمْ وَعَتوا عُتُواً كَبيراً ) سورة الفرقان ــ ٢١ .

٢ ــ ( يَسْأَلُكَ أهْلُ الكتابِ أنْ تُنزّلَ عَليهِمْ كِتاباً مِنْ السَّماء فَقَدْ سَأَلُوا موسى أكْبَر مِنْ ذلكَ فَقَالوا أرنا اللهَ جَهَرةً فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقةُ بظُلْمِهِم ثُمَّ اتَّخذوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جاءتْهُم البَيّناتُ فَعَفْونا عَنْ ذلكَ وآتَيْنا موسى سُلْطاناً مُبيناً ) سورة النساء ــ ١٥٣ .

٣ ــ ( وَقَال فِرعَونُ يأيُّها المَلأُ مَا عَمِلتُ لَكُمْ مِنْ إله غَيري فأوْقِدْ لي ياهامانُ على الطّينِ فاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعلّي اطَّلعُ إلى إلهِ مُوسى وانّي لأظُنُّهُ منَ



الكاذبينَ ) سورة القصص ــ ٣٨ .

٤ ــ ( وَقالوا لنْ نُؤمنَ لَكَ حتّى تَفجُرَ لنا منَ الأَرضِ يَنْبوعاً ... أَو تُسقِط السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَينا كِسَفاً أَو تَأتيَ باللهِ والملائكةِ قَبيلا) سورة الإسراء ــ ٩٠، ٩٢.

٥ ــ ( هَلْ يَنظُرونَ إلاّ أَنْ يأتَيهُمُ اللهُ في ظُلَل مِنَ الغَمامِ والمَلائِكةُ وقُضيَ الأَمْرُ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُور ) سورة البقرة ــ ٢١٠ .

جمع الآيات وتفسيرها :

لماذا لا نرى الله ؟

إنَّ الآية الاُولى نقلت ما قالَهُ الكفّار والمشركين والذي يشير بوضوح إلى اُمنيتهم في أن يكون الله مثلهم ذا جسم ويمكن النظر إليه حيث تقول : ( وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ) .

إنّهم طالبوا برؤية ملائكة الوحي أوّلا ثمّ سوّلَتْ لهم أمانيهم أن يطالبوا برؤية الله ، ويبدو أنّهم لا يقرّون بالإله المجرّد وغير المحسوس . والظاهر أنّ هذا الكلام كان لرؤوس الشرك وعبدة الأصنام وقد علموا بالحقيقة إلاّ أنّه ومن أجل إغفال عامّة الناس الذين يرون كلّ شيء في إطار الحسّ قاموا بطرح هذا الكلام أمام النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) لكي يهزموهُ حسب زعمهم ولذا وصفهم القرآن الكريم بأنّهم قوم لا يؤمنون بالقيامة ولا يشعرون بالمسؤولية ، ولهذا تقول الآية في ذيلها : ( لقد اسكتبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ) . وقد ذكر المفسّرون للآية ( ٢٧ ) من هذه السورة ( الفرقان ) شأناً للنزول يدلّ على أنّ هذه الآيات نزلت في جمع من أئمّة الشرك في قريش .

وذيل الآية يشير أيضاً إلى أنّ مصدر هذه الإدّعاءات الضخمة والخاطئة هو إبتلاؤهم بالكبر والغرور أوّلا وسلوك طريق ( العتو ) وهو التمرّد المصحوب بالعناد واللجاجة في أمر الله ثانياً ، ولم يختصّ ذلك العرب فحسب ، بل ما زال جمع من علماء عصرنا المغرورين والمتمرّدين المادّيين الذين يعتقدون أنّ كلّ



شيء يجب إجراء التجربة عليه ورؤيته في المختبر وبأدوات حسّية ، ويقولون : إنّنا لا نؤمن بالله حتّى نراه جهرة، وبهذا تكون المجموعتان محصورتين في إطار الحسّ، في حين تكون العوالم الخارجة عن الحسّ أوسع بكثير من عالم الحسّ.

* * *

طلبوا ذلك من موسى !!

تتحدّث الآية الثانية أوّلا عن حجج اليهود وتقول : ( يسألُكَ اَهلُ الكِتابِ اَن تُنزّل عَلَيهِم كِتاباً مِنَ السّماء ) . قال جماعة في تفسيرها أنّ مرادهم كان بأن ينزل علهيم كتاباً مخطوطاً على قراطيس معلومة من السماء ليشاهدوه بعيونهم ويلمسوه بأيديهم(١).

وقالت جماعة اُخرى : انّ مرادهم هو لماذا لم ينزل جميع القرآن مرّة واحدة على النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ؟! والقرآن يجيبهم : لا عجب من هذا الطلب الخاوي لهؤلاء

المعاندين اللجوجين بعد مشاهدة المعجزات والقرائن التي تصدّق دعوى نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ( فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى اَكبَر مِن ذلِك فَقالوا أرِنا اللهَ جهرةً ) ! وبسبب هذا الطلب الخاطئ ( فأخَذَتهمُ الصاعقةُ بِظُلمِهم ) .

أجل ، انّهم ظلموا أنفسهم وراحوا يتعلّلون ، وسجنوا عقولهم في إطار الحسّ ولم يسمحوا لها بالتجرّد من هذا المجال الضيّق إلى اُفق عالم ما وراء الطبيعة ، ولهذا أُنزلت عليهم صاعقة من السماء وأهلكتهم غير أنّ اللطف الإلهي ودعاء موسى قد أدركهم أخيراً وواصلوا حياتهم مرّة اُخرى ، والعجيب أنّ هذا الحدث العجيب لم يوقظهم ، حيث مالوا إلى السامري في إقتراحه بعبادة العجل! ونقرأ في الآية : ( ثُمّ اتّخذَوا العجلَ مِن بعدِ ما جاءتهمُ البيّناتُ ) وكأنّهم لم

---

١ ــ وقد وافق على هذا التفسير صاحب ( في ظلال القرآن ) ج٢ ، ص٥٨٣ وقد نقله الفخر الرازي ويبدو تفسيراً مناسباً وإن لم يتعارض مع التفسير الثاني .



يُؤمنوا إلاّ بالإله المحسوس ، ولم تقوَ أرواحهم على الطيران إلى عالم ما وراء الطبيعة .

ومرّة اُخرى شملهم اللطف الإلهي حيث تقول الآية في ذيلها : ( فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ) .

والمراد من ( سلطان مبين ) هنا هي الحكومة التي أعطاها الله عزّوجلّ لموسى فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والإستدلالية ، ويعتقد بعض المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان بأنّ النصر هنا من الناحية المنطقية فقط(١).

* * *

دعني أرى الله في السماء !

في الآية الثالثة مقالة تفوّه بها فرعون في هذا الشأن ، وهي توضّح أفكار الشعب المصري آنئذ ، فقد ألقى هذه المقالة في عصر كان لإسم موسى وإنتصاره على السحرة صداه في مصر بأسرها ، ولمّا شعر فرعون بخيبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به أنظار الناس عن موسى ومعجزاته ( وقال فرعون ياأيّها الملأ ما علمت لكم من إله غيري )(٢)، ولذا أرى أنّ

**دعوة موسى إلى ربّ السماء والأرض خاطئة ، وبما أنّي من أهل التحقيق ، فقد خطر ببالي شيء يظهر به صدق موسى أو كذبه ، قم ياهامان ( فاوقِدْ لي ياهامان على الطين فاجْعلْ**

---

١ ــ مجمع البيان : ج٣ ، ص١٣٤ .

٢ ــ يقول اللغويون في تفسير ( ملأ ) : يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأ العيون ( من مادّة ملأ ) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى أشراف القوم ورؤسائهم وحواشي الملوك أيضاً .

لي صَرْحاً لَعلّي أطّلعُ إلى إلهِ مُوسى )(١) ( وإنّي لأظنّه من الكاذبين ) .

ولا شكّ أنّ فرعون كان أشدّ شيطنة من أن لا يدرك هذه القضايا الواضحة وهي أنّه ليس إلهاً، وأنّ مايقصده موسى من إله السماء، هوخالقه لا أنّ الله يسكن السماء حقيقة. ولوتجاوزنا هذا الأمروإفترضنا أنّ الله يسكن السماء فإنّه لا يمكن الوصول إليه ببناء برج عال، فمنظر السماء من على قمم الجبال في العالم هو المنظر الذي يشاهد من فوق سطح الأرض، ولم تخفّ هذه القضايا على فرعون.

ولكن فرعون كان يفكّر في مخطّط آخر وأراد صرف الرأي العامّ الذي مال إلى موسى بشدّة وذلك بطرح هذه القضيّة المثيرة ، كما أرادَ أن يشغل مجموعة لمدّة طويلة ببناء برج عال جدّاً ، وفي النهاية يصعد إلى أعلى البرج ليحرّك نفسه ويقول : إنّي بحثت عن إله موسى في السماء فلم أجد له أثراً !

إنَّ هذه القضيّة توضّح أمراً مهمّاً وهو إنّ مستوى الرأي العامّ في مصر كان بسيطاً إلى حدّ أنّهم لم يكونوا ليصدقوا إلاّ بإله محسوس ، وبالتالي يصدقون فرعون بإدّعائه الألُوهية وتوقّعوا أن يكون إله موسى جسماً في جوّ السماء ! وفي مثل هذه الأجوء تشيع روح الصنمية وصناعة الأصنام قطعاً !

* * *

الآية الرابعة تنقل أقوال المشركين وإحتجاجاتهم المتنوّعة والغريبة حيث طرح كلّ واحد إقتراحاً على النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وتمسّك بحجّة معيّنة حيثتقول الآية : ( وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً )(٢)، وقد تمسّك البعض الآخر بحجج أُخرى وقالوا أخيراً : ( أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً * أو

---

١ ــ ( صرح ) في الأصل تعني الخلو من الشوائب ثمّ تطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنّها بلغت من الكمال في بنائها إلى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص .

٢ ــ ينبوع من ( نبع ) وتعني عين الماء .

تأتي بالله والملائكة قبيلا )(١).

والمطالبة الأخيرة توضّح جيّداً أنّهم تصوّروا أنّ الله والملائكة ذوو أجسام وموجودات جسمانية ، ولم يتحمّلوا تصوّر وجود خارج عن إطار عالم الجسم والطبيعة . ويعتقد بعض المفسّرين بأنّ مرادهم من الإتيان بالملائكة هو أن تأتي لتعيّن الله!(٢) أو تشهد على اُلوهيته ، وتشير هذه كلّها إلى المستوى الفكري المختلف لاُولئك القوم اللجوجين .

* * *

أيتوقّعون أن يأتي الله إليهم !

تحدّثت الآية الخامسة والأخيرة عن الكفّار والمشركين وأفكارهم المنحطّة فتقول :

( هل يَنْظُرُونَ إلاّ اَنْ يَاتَيهُم اللهُ في ظُلَل مِنَ الغَمامِ )(٣).

وقد إضطرب المفسّرون بشدّة في تفسير هذه الآية ، فقد عدّها بعضهم من متشابهات القرآن فيلزم تفسيرها في ضوء المحكمات(٤)، وقد ذكر البعض سبعة تفاسير لها(٥).

وكان تصوّرهم عن مضمون الآية هو أنّه سيأتي اليوم الذي يأتيى فيه الله والملائكة في ظلّ الغيوم ، ولا ينسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة في أنّه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله .

---

١ ــ فسّرت كلمة ( قبيل ) تارةً بمعنى ( المقابل ) ، وتارةً بمعنى الكفيل والشاهد ، وتارةً بمعنى الجماعة والفئة ، ويمكن الموافقة على المعاني الثلاث في مورد الآية أعلاه .

٢ ــ تفسير في ظلال القرآن : ج٥ ص٣٥٩ .

٣ ــ يقول الفخر الرازي : اتّفق المفسّرون على أنّ أحد معاني ( النظر ) هو الإنتظار ج٥ ص٢١٢ .

٤ ــ تفسير الميزان : ج٢ ص١٠٥ .

٥ ــ تفسير الفخر الرازي : ص٥ / ٢١٣ ــ ٢١٦ .



في حين أنّ مضمون الآية شيء أخر ، والمراد منه هو الإستفهام الإنكاري ويشبه قولنا للذين يتماهلون في تحصيل العلم : أتتوقّع أن يُجعل العلم لقمة وتوضع في فمك ؟! أي هذا توقّع ليس في محلّه .

إنَّ الآية أعلاه تقول أيضاً : هل أنّهم يتوقّعون أن يأتي الله والملائكة للقائهم ويقفون أمامهم ويشهدون لهم ؟! إنّه توقّع خاطئ وفي غير محلّه ، فليس الله بجسم ولا مكان له ولا رواح أو مجيء له ، وبهذا ليس في الآية ــ كما نلاحظ ــ مشكلة خاصّة حتّى تحتاج إلى تأويل وتفسير معقّد أو أن تحسب من المتشابهات .

وتقول الآية في آخرها مهدّدة هذه الفئة اللجوجة بالعقاب الشديد ( وقضي الأمر ) ، وكان العذاب متحقّق الآن ، ولذا جاءت بصيغة الفعل الماضي ثمّ تقول : ( وإلى الله ترجع الاُمور ) . وليس لأحد القدرة على مواجهته وليس لأحد أن يقاوم أمره ، وإذا تعلّقت مشيئته بعقوبة جماعة فكأنّها متحقّقة .

هل يتعلّق هذا التهديد بيوم القيامة أو الدنيا أم الإثنين معاً ؟ لا يبعد أن يتعلّق بالإثنين ، لأنّ الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة .

يتّضح ممّا أوردناه في تفسير الآيات أعلاه بأنّ الميل إلى الحسّ وتأثيره في تكوين عقيدة الشرك والإنحراف عن محور التوحيد طيلة تاريخ الأنبياء والاُمم السالفة ممّا لا يمكن إنكاره ، وانّ الأقوام المتخلّفة فكرياً وثقافياً ، أو بقيت متخلّفة بفعل إعلام الطغاة ، قد إعتقدوا أنّ الوجود منحصر في المحسوسات وتنتهي الفطرة الإلهية بالإله المحسوس وهذا هو أحد العوامل المهمّة في نشوء عقيدة الشرك في التاريخ .

* * *

[٢٠٨]

إيضاحات

لماذا أُلِفوا عالم الحسّ ؟!

من الواضح أنّ اُصول المعلومات في الإنسان بأجمعها تستمدّ من المحسوسات أوّلا ، لأنّ الإنسان حينما يفتح عينيه يلاحظ عالم المادّة ويتعرّف عل عالم المحسوسات والطريق الموصل إلى ما وراء الحسّ، بل وتصوّر الوجود المجرّد عن الزمان والمكان والمادّة يتمّ بعد الدراسة والتحليل في المسائل الفكرية والعقلية والروحانية ، فلا غرو إذن أن تكون عبادة الأصنام مذهباً للاُمم المتخلّفة .

فمن جهة يعلو نداء عبادة الله من باطن فطرتهم وتدعوهم قوى المعرفة الإلهية إليه ، ومن جهة أُخرى وبسبب مغلوبيتهم أمام عالم الحسّ والمادّة تصعُب عليهم معرفة الله المجرّد عن الزمان والمكان والمادّة ، ولذلك فإنّهم يسيرون في طريق الشرك ويشفون غليل أرواحهم الظامئة بالآلهة الخيالية بصورة كاذبة .

وبما أنّ مجموعة من خدمة معبد الأصنام بل الكثير من الحكّام الطغاة ينتفعون من هذا الأمر فإنّهم يرغبون فيه، وفي النهاية يصبح كدين رسمي للبلاد.

ومن العجيب أن تترسّب هذه الأفكار أحياناً في أعماق الكثير من عباد الله الحقيقيين ، وللمثال على ذلك أنَّ بعض الناس يقول في قَسَمه : قسماً بالله الذي هو في السماء !! ويتصوّرون إنّنا حينما نرفع أيدينا إلى السماء حين الدعاء أنّ ذلك إشارة إلى الله وأنّه يجلس على كرسي الإقتدار وقد إجتمعت الملائكة من حوله !

إنَّ هؤلاء غافلون حقّاً ، فليس الله في السماء وليس في رفع اليد في الدعاء إشارة إلى مركزه ، بل انّ رفع اليد يعني التسليم والإضطرار ، أو كما ورد في بعض الروايات إنّ السبب هو نزول النعم الإلهية من السماء ، فالمطر وضوء الشمس ــ وهما العمدة في حياة كلّ موجود حي ــ مصدرهما من السماء والتوجّه إلى



السماء توجّه إلى الخالق العظيم لهذه النعم .

وعلى كلّ حال ، ما لم ينضج الإنسان فكرياً يصعب زوال آثار الشرك عنه . فبنو اسرائيل الذين تربّوا في مدرسة التوحيد سنين طوال عند نبي من أُولي العزم موسى ( (عليه السلام) ) وشاهدوا آثار عظمته بأعينهم عند نجاتهم من قبضة الفراعنة وإجتياز النيل ، وبمجرّد مرورهم على عبدة الأصنام وملاحظتهم الأصنام رجعوا وطالبوا موسى ( (عليه السلام) ) بأن يجعل لهم صنماً ، فواجههم موسى بردّ فعل شديد وندموا على مقالتهم . ولم يمض وقت طويل عندما توجّه موسى ( (عليه السلام) إلى جبل الطور بصورة مؤقتة لكي يأخذ الألواح وأحكام الشريعة حتّى استغلّ السامري هذه الغيبة ليصنع لهم صنماً ودعا بني اسرائيل لعبادته ، فترك أكثرهم طريق التوحيد وركعوا لعجل السامري وبقيت فئة قليلة مع أخ موسى ( هارون ) ملتزمةً بنهج التوحيد وهذا يشير إلى أنّ القادة السائرين في طريق التوحيد وخصوصاً أمام الأقوام المتخلّفة التي ترعرعت في أجواء الشرك يواجهون مشكلات كبيرة، وغسل آثار الشرك أساساًمن القلوب ليس باليسير ويحتاج إلى تربية فكرية وتربية ثقافية صحيحة .

[٢١٠]

٣ ــ مصالح وهميّة

[٢١١]

[٢١٢]

تمهيد :

إنَّ الوهم أساس الشرك ، وكلّما إزدادت قوّة الوهم والخيال ونشطت في الإنسان إتَّسَعَ اُفق وهمه في الأصنام وآثارها إلى حدّ يضع الموجودات الفاقدة للشعور والعقل ، الموجودات الميتة والتافهة والمصنوعة من الحجر والخشب على جناح الوهم والخيال ويطير بها بشكل ينسب لها كلّ قدرة ويتذلّل لها كي ينعم ببركتها ! أجل ، إنّ المصالح الوهمية في الأصنام عامل آخر من عوامل الشرك على مرّ التاريخ ، وبهذا التمهيد نستمع خاشعين إلى الآيات القرآنية التالية :

١ ــ ( وَيَعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضرُّهُمْ وَلا ينفعُهُمْ ويَقُولُونَ هؤلاءِ شُفعاؤُنا عنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنبّئونَ اللهَ بما لا يَعلمُ في السَّمواتِ ولا في الأَرضِ سُبحانَه وتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ ) سورة يونس ــ ١٨ .

٢ ــ ( واتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلهةً لَعلَّهمْ يُنْصرُونَ ) سورة يس ــ ٧٤ .

٣ ــ ( واتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلهةً ليكونُوا لَهُمْ عزّاً ) سورة مريم ــ ٨١ .

٤ ــ ( أَلا للهِ الَّدينُ الخالِصُ والَّذينَ اتَّخذُوا مِنْ دُونِه أولياءَ مَا نَعبُدُهُمْ إلاّ ليُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفى إنَّ اللهَ يَحكمْ بينَهُمْ فيما هُمْ فيه يَختَلِفُونَ إنَّ اللهَ لا يَهدي مَنْ هُوَ كاذبٌ كَفَّارٌ ) سورة الزمر ــ ٣ .

شرح المفردات :

( شفعاء ) جمع ( شفيع ) من ( الشفْع ) ويعني كما يقول صاحب ( مصباح اللغة ) : ضمّ شيء إلى شيء آخر وكما يقول صاحب المفردات : يعني ضمّ شيء إلى مثيله ، وأمّا صاحب ( مقاييس اللغة ) فإنّه يذهب إلى أنّ أصله هو المقارنة

[٢١٣]

بين شيئين .

هذه التعابير تعود كلّها إلى معنى واحد تقريباً ومن ثمّ أطلق على حالة إنضمام شخص قوي ومكين إلى شخص أضعف من أجل إنقاذه وإعانته ، وقد ورد بهذا المعنى في آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية . كما جاء عدد ( الشفع ) بمعنى ( زوج ) في قبالة ( الوتر ) بمعنى الفرد .

( زُلفى ) من ( الزلْف ) ويعني في الأصل القرب والمنزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوة لما للخطوات من تقريب للهدف ، وقد إستعمل في آيات البحث بمعنى القرب المعنوي الذي توخّاه المشركون من عبادة الأصنام إلاّ أنّ بعض المحقّقين يعتقد بأنّ ( زُلفى ) أكمل من معنى القرب فهي المرتبة العالية من معنى الرب في الحقيقة(١)، ولكنّه رأي بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الإستعمال ، ويطلق هذا اللفظ على الساعات الأُولى من الليل كما في قوله تعالى : ( أقِمْ الصلاةَ طَرَفَي النهارِ وزُلفاً مِنْ الليلِ )(٢).

جمع الآيات وتفسيرها :

الأصنام شفعاؤنا ؟!

تشير آية البحث الأُولى إلى إحدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين في الأصنام حيث تقول الآية : ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرّهم ولا يَنفَعُهم ويقولونَ هؤلاء شُفعاؤنا عِندَ اللهِ ) .

الكلام في أنّ هؤلاء كيف اعتقدوا بأنّ هذه الموجودات الميتة لها الشفاعة عند الله ؟

للإجابة على السؤال قال بعض العلماء : إنّ المشركين كانوا يعتقدون إنّ عبادة الأصنام بمنزلة عبادة الله ووسيلة للتقرّب إليه ، وقد ظهر هذا الإعتقاد من

---

١ ــ التحقق في كلمات القرآن الكريم .
٢ ــ سورة هود : آية ١١٤ .



طرق مختلة .

وكانت فئة تقول : لسنا أهلا لعبادة الله دون واسطة : لأنّه عظيم جدّاً ولذا نعبد الأصنام كمظهر وصورة عن الملائكة لكي تقرّبنا إلى الله ، بينما قالت فئة أُخرى بأنّ الأصنام هي القبلة لنا لدى عبادة الله كما يستقبل المسلمون القبلة عند العبادة ، وقد إعتقدت فئة أُخرى بأنّ كلّ صنم يقترن به شيطان وكلّ من يعبد الصنم ويؤدّي حقّ عبادته فإنّ ذلك الشيطان يلبّي حوائجه بأمر الله وإن لم يعبده فإنّ الشيطان يسيء إليه(١)، إلى أمثال هذه الخرافات والأوهام .

* * *

وتشير الآية الثانية إلى عقيدة أُخرى عند المشركين حيث تقول : ( واتّخذُوا مِنْ دُون اللهِ آلهةً لعلّهم يُنصَرون ) وذلك من أجل أن تبادر إلى إعانتهم عند حلول المشكلات والإبتلاءات والحروب والأمراض ، وتدفع عنهم خطر الجوع والقحط والجفاف ، وتدافع عنهم في الآخرة ؛ ويا له من خطأ فادح !؟ فإنّ القضيّة كانت معكوسة حيث يهرعون لإنقاذ أصنامهم من الأخطار ويحفظونها من الأعداء والناهبين ! كما نقرأ في قصّة إبراهيم ( (عليه السلام) ) : ( قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين )(٢) إنَّ إعتقادهم بأنَّ الأصنام تحميهم وتعينهم لم يكن سوى خيال ووهم قطعاً ، ولهذا الإعتقاد سببٌ في الإنحطاط الفكري والتخلّف الثقافي ، وهذا الأمر هو أحد المصادر للشرك على مرّ التاريخ .

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المضمون بشكل آخر حيث تقول : ( واتّخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً ) . وليس المراد من العزّة هو السمعة ، بل إكتساب القوّة والنصر والشفاعة من عند الله ، وكان هذا أيضاً وليداً لتوهّمهم ،

---

١ ــ بلوغ الإرب : ١٩٧/٢ .

٢ ــ سورة الأنبياء : آية ٦٨ .



ولذا نلاحظ في هذه الآية من سورة مريم نفسها بأن حُجب الأوهام حينما تزول ويتنّهُ العقل فإنّ المشركين يدركون خطأهم الفظيع وسرعان ما ينكرون عبادة الأصنام ويواجهونها ، كما ورد بإنّ المشركين يقولون يوم القيامة : ( والله ربّنا ما كنّا مشركين )(١).

* * *

وأخيراً فإنّ الآية الرابعة والأخيرة بعد الإعلان عن ( أَلا لله الدين الخالص )فهي تهدّد المشركين وتضيف : ( والّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه أولياءَ ما نَعبدُهم إلاّ ليُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلفى اِنَّ اللهَ يَحكُم بينهم فيما هُمْ فيه يَخْتَلِفون اِنّ اللهَ لا يَهدي من هو كاذِبٌ كفّارٌ )(٢).

إيضاحات

١ ــ منشأ الإعتقاد بالشفاعة

يعجب كلّ عاقل عندما يواجه قضيّة الشرك لأوّل مرّة ، فكيف يمكن أن يخضع إنسان عاقل ذو شعور لتمثال حجري أو خشبي قام بصنعه بيده ؟ فلو كان يمتلك قليلا من العقل لكانَ هذا غير مقبول عند ، ولو عرفنا أسباب ذلك لوجدنا أنّ القضيّة ليست بسيطة كما نرى ، فإنّ مجموعة من الأوهام والسفسطة والخيال والعادات طُرحت كأدلّة عقلية وخدعت المشركين .

يقول الفخر الرازي في ذيل تفسير الآية ( ١٨ ) من سورة يونس :

فيمن قالوا في الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله وذكروا فيه أقوالا كثيرة .

---

١ ــ سورة الأنعام : آية ٢٣ .

٢ ــ قال كثير من المفسّرين بأنّ ( والذين ) مبتدأ وخبره ( إنّ الله يحكم بينهم ) وجملة ( ما نعبدهم ) فيها محذوف هو بمنزلة الحال والتقدير ( قائلين ما نعبدهم ... ) .



١ ــ إنّهم اعتقدوا أنّ المدبّر لشؤون اقليم من أقاليم العام ، روح معيّن من أرواح عالم الأفلاك ، ولأنّهم لا يصلون إلى تلك الروح صنعوا لها صنماً معيّناً واشتغلوا بعبادته ، وكلّ قصدهم هو عبادة تلك الروح ، ثمّ اعتقدوا أنّ تلك الروح عبد للإله الأعظم ومشتغل بعبوديته .

٢ ــ إنّهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أنّ الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى ، ثمّ لمّا رأوا إنّها تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معيّنة وإشتغلوا بعبادتها وغرضهم عبادة تلك الكواكب .

٣ ــ إنّهم وضعوا معيّنة على تلك الأصنام والأوثان ثمّ تقرّبوا إليها كما يفعل أصحاب .

٤ ــ إنّهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنّهم متى ما اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإنّ أُولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى .

٥ ــ إنّهم اعتقدوا أنّ الإله نور عظيم وأنّ الملائكة أنوار فوضعوا على صور الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صور الملائكة صوراً أُخرى .

٦ ــ لعلّ في طائفة من الحلولية ، القوم وجوّزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة(١).

ويقول مفسّر آخر : إنّ أوّل ما عُبِدت الأصنام في قوم نوح ( (عليه السلام) ) وذلك أنّ آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » فمات « ود » فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره لا يكادون يفارقونه وذلك بأرض بابل فلمّا رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم : هل تريدون أن أصنع لكم ما إن نظرتم إليه ذكرتموه ؟ قالوا : نعم ، فصنع لهم تمثالا .

وهكذا كلّما مات واحد من أبناء آدم صنعوا له تمثالا وسمّوه بإسمه ،

---

١ ــ التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٧ ، ص٦٠٠ ( مع الإختصار اليسير ) .



وبتقادم الزمان وبنسيان الأجيال أعاد الشيطان قائلا : إنّ أجدادكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها . فأرسل الله إليهم نوحاً ( (عليه السلام) ) فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك ... )(١).

* * *

٢ ــ إنتشار الشرك بين العرب

إنّ أوّل من أقام عبادة الأصنام بين العرب هو عمرو بن لُحَي من قبيلة خزاعة ، فقد خرج من مكّة إلى الشام في بعض اُموره فلمّا قدم مآب من أرض البلقاء رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ؛ فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه فأعطوه صنماً يقال له ( هُبل ) ، فقدم به مكّة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت

هناك صخرة يلي عليها السويق للحجّاج رجل من ثقيف وكانت تسمّى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو : إنّه لم يمت ولكن دخل في الصخرة وأمرهم بعبادتها ...(٢).

ونقل بعض آخر ، إنّ ظهور عبادة الأصنام إبتدأته جماعة كانت تنزّه الله إلى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً أجلّ للتقرّب إليه ! أو أنّها إعتقدت إنّ الإله عندما يخفى على الحسّ والعقل فعبادته غير ممكنة ، ولذا يجب التقرّب إليه من خلال المحسوسات !

---

١ ــ روح البيان : ج٤ ، ص٢٦ ( مع التلخيص ) .
٢ ــ روح البيان : ج٤ ، ص٢٦ ( مع إختصار يسير ) وقد ذكر العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار ( ج٣ ص٢٤٨ بعد الروايات : ١ ، ٧ ، ٨ ) قصّة ظهور الشرك في قوم نوح هذا وقد ورد في ( بلوغ الإرب ) قصّة عمرو بن لحي وهديته الخبيثة من الشام ( ج٢ ص٢٠٠ ) كما نقل ابن هشام في الجزء الأوّل من السيرة النبوية موضوعاً قريباً من هذا المضمون ( صفحة ٧٨ ) .



وقال بعض المؤرّخين :

« ويزعمون أنز أوّل ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل إنّه كان لا يظعن من مكّة ظاعن منهم ، حتّى ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد إلاّ حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتّى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم(١) حتّى خلق الخُلوف ... » .

كما ورد في تفسير الميزان :

وقد كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقرّبوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ الأرباب وهو الله سبحانه ويقولون : « إنّنا على ما بنا من ألواث البشرية الماديّة وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل إلى ربّ الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بينها وبينه .

فمن الواجب أن نتقرّب إليه بأحبّ خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله إليهم أمر تدبير خلقه ، ونتقرّب إليهم بأصنامهم وتماثيلهم وإنّما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشرّ فتقع العبادة للأصنام حقيقة ، والشفاعة لأربابها وربّما نسبت إليها »(٢).

وبهذا ألبسوا معتقداتهم الخاطئة والخرافية ثوباً منطقياً في الظاهر ، وظهر الضلال على صورة الهدى واحتلّت وساوس الشيطان مواقع المنطق والبرهان .

* * *

٣ ــ عوامل اُخرى للشرك وعبادة الأصنام

في الحقيقة أنّ الشرك وعبادة الأصنام قضيّة معقّدة وليس وراءها عامل

---

١ ــ سيرة ابن هشام : ج١ ص٧٩ .
٢ ــ تفسير الميزان : ج١٠ ، ص٢٧ ذيل الآية ١٨ من سورة يونس .



واحد كسائر القضايا الإجتماعية المعقّدة ، بل هناك عوامل مختلفة تعاضدت على حدوثها .

فمثلا نجد أنّ أقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهناك جماعة عبدت النار ، وجماعات عبدت الأنهار الكبيرة كالنيل في مصر ، والكنج في الهند ، ويعني ذلك أنّ كلّ ما فيه الخير والبركة ، يكون مقدّساً ، وكانت تتضاعف قدسيتها تدريجياً إلى حدّ إعتبارها آلهة !

وبتعبير آخر : كانوا يثيهون في عالم الأسباب وينسون الله هو ( مسبّب الأسباب ) ، لإفتقادهم البصيرة النافذة التي تجتاز الأسباب لتصل إلى خالق الأسباب وانتهى هذا بهم إلى عبادة الأصنام .

* * *



عامل التقليد والاستعمار





تمهيد :

لا شكّ في أنّ عامل التقليد من العوامل المؤثّرة في توارث عبادة الأصنام جيلا بعد جيل بل وإنتشارها في العالم ، ويستند القرآن الكريم إلى ذلك مراراً ويطرحه تحت عنوان الدليل الوحيد الذي يتمسّك به مشركو العرب .

إنّ العيش في أجواء الشرك وإحترام الأجداد والأسلاف والتأثّر بالتلقين في مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على إبراز عمل خرافي وخاو تماماً وهو عبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب الفاقدة لكلّ شيء بشكل منطقي ووجيه بل ومقدّس .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين إلى الآيات التالية :

١ ــ ( بَلْ قَالُوا إنّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلى أُمّة وَإنّا عَلى آثارِهم مُهْتَدُونَ * وكَذلكَ مَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَريَة مِنْ نَذير إلاّ قَالَ مُتْرفُوها إنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمّة وَإنّا عَلى آثارِهمْ مُقتَدونَ ) سورة الزخرف ــ ٢٢ ــ ٢٣ .

٢ ــ ( قَالُوا نَعبُد أصنَاماً فَنظَلُّ لَها عَاكِفينَ * قَالَ هَلْ يَسمَعُونَكُمْ إذ تَدعُونَ * أو يَنْفَعونَكُم أو يَضرُّونَ * قَالُوا بَلْ وجَدْنا آبَاءَنا كذَلكَ يَفْعلُونَ ) سورة الشعراء ــ ٧١ ــ ٧٤ .

٣ ــ ( قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمّا وجَدْنا عَليهِ آبَاءَنا وتَكُونَ لَكُما الكِبرياءُ في الأَرْضِ ومَا نَحنُ لَكما بمُؤمِنِينَ ) سورة يونس ــ ٧٨ .

٤ ــ ( وَإذَا قيلَ لَهُم اتَّبعُوا مَا أَنْزَل اللهُ قَالُوا بَلْ نَتّبعُ مَا أَلْفينَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لاَ يعقِلُونَ شَيئاً ولاَ يَهتَدُونَ ) سورة البقرة ــ ١٧٠ .

٥ ــ ( وَإذا تُتْلَى عَلَيهم آيَاتنا بَيّنات قَالُوا مَا هذا إلاّ رَجُلٌ يُريدُ أنْ يَصُدَّكُم عَمّا



كَانَ يعْبدُ آبَاؤُكُمْ ) سورة سبأ ــ ٤٣(١).

شرح المفردات :

( صنم ) كما يقول الراغب في المفردات : تمثال من فضّة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقرّبون به إلى الله ، وفي ( لسان العرب ) : هذا اللفظ أخذ في أصله من ( شَمَنْ ) وهي كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية(٢).

وتعتقد جماعة من اللغويين إنّ الفرق بين ( الصنم ) و ( الوثن ) هو أنّ صنم يطلق على أصنام لها شكل وصورة خاصّة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصّة أُطلق عليه ( وثن ) .

( أب ) ويعني الوالد ويطلق أحياناً على السبب في حدوث شيء ( إصلاحه أو إظهاره ) إلاّ أنّ هذه المعاني لها خصائص كنائية في الظاهر ، وقد جاء في ( مقاييس اللغة ) : إنّ هذا اللفظ يدلّ في أصله على التربية والتغذية وبما أنّ الوالد يغذّي الإبن فقد أطلق عليه هذا اللفظ .

ونقرأ في « كلّيات أبي اللقاء » إنّ أصحاب الشرائع السابقة كنوا يطلقون ( أب ) على الله لأنّه السبب الأوّل للخلق ، ثمّ اعتقد الجهلاء والغافلون بأنّ ( أب ) هنا تعني الولادة ( وبذلك سلكوا طريق الكفر ) .

وفي كتاب ( التحقيق في كلمات القرآن الكريم ) وبعد إعتبار الأصل في هذه المادّة هو التربية والتغذية ورد : بلحاظ هذا المفهوم فإنّ للأب مصاديق كثيرة مثل الله المتعالي ، الوالد ، النبي ، المعلّم ، الجدّ ، العم وغيرها ( ولذا فإنّ « أب » له مفهوم أوسع من معنى الوالد ) .

* * *

---

١ ــ وهناك آيات عديدة تتضمّن مضمون هذه الآيات نشير إلى مواضعها : سورة الأعراف : آية ٧٠ ، والآية ١٧٣ ، سورة إبراهيم : آية ١٠ .

٢ ــ ورد لفظ ( شمن ) في المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم ( راجع دائرة معارف دهخدا وقاموس معين وغياث اللغة ) .



## جمع الآيات وتفسيرها

### عبادة الأصنام دين أجدادنا !

إعتقدت طائفة من مشركي العرب إنّ الملائكة بنات الله وقامت بعبادتها ، والآية الاُولى في هذا البحث تردّ على هذا الفكر الجاهلي من جانب مختلفة فتخاطبهم تارةً : إنّكم تفرحون بالوليد إذا كان ذكراً ولكن تحزنون إذا كان بنتاً فكيف تنسبون إلى الله بنتاً ؟ ( هذا الجواب يناسب طبعاً ــ درجة فهمهم وأفكارهم ) وتذكر تارةً اُخرى حججهم الواهية لهذه العبادة وتردّهم وتصل إلى هذا الدليل أخيراً : ( بْل قالوا إنّا وَجدنا آباءَنا على اُمّة وانّا على آثارهم مهتدَون )(١)ولكن القرآن يخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) مباشرةً ويقول : إنّ التقليد الأعمى هذا والإتّباع اللامشروط واللامقيّد يمثّل عقيدة سلفية وهذه الأعذار الواهية التي لا أساس لها لا تنحصر في

مشركي العرب فحسب بل : ( وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها انّا وجدنا آباءنا على اُمّة وانّا على آثارهم مُقتدون ) .

وبذلك أشاروا إلى أنّ أحد العوامل الرئيسة في إنتشا خرافة الشرك جيلا بعد جيل هو التقليد الأعمى واللامشروط واللامقيّد والتحجير على العقل والإدراك وعدم بذل جهود في التحقيق والتدبّر والإستسلام أمام خرافات الأسلاف .

والإستناد إلى عنوان ( مترفون ) كما يقول بعض المفسّرين فيه إشارة إلى أنّ التشبّث بالدنيا والإستمتاع باللذائذ الماديّة والمتنوّعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والإستدلال هو السبب لهذا التقليد الأعمى القبيح ، فلو أنّهم

---

١ ــ ( اُمّة ) في الآية ــ كما يعتقد جمع من المفسّرين ــ عبارة عن المنهج المتّفق عليه لدى طائفة وقد فسّرها بعض المفسّرين بمعنى الجماعة والفئة ، والمعنى الأوّل هو المشهور وإن وردت ( اُمّة ) في آيات اُخرى بمعنى الجماعة وقد تأتي بمعنى المدّة الزمنية .



تخلّصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة ، ولهذا يقول النبي الكريم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) « حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة »(١).

والجدير ذكره أنّ ذيل الآية الاُولى تنقل عنهم قولهم : ( انّا على آثارهم مهتدون ) وقولهم في ذيل الآية الثانية ( انّا على آثارهم مقتدون ) وهذا الإختلاف في التعبير قد يكون من قبيل ( العلّة والمعلول ) بمعنى أنّهم ادّعوا إنّنا إنّما نقتدي بأسلافنا لأنّ ذلك هو طريق الهدى والوصول إلى الحقّ !

على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم في طول هذه الآيات يرد علىهذا الفكر الباطل بشكل منطقي جميل ومحكم وينقل عن الأنبياء السابقين قولهم للمشركين المقلّدين الخرافيين : ( قالَ أولو جِئتكم بأهدى ممّا وجدتُم عليه آباءكم قالوا إنّا بما اُرسلتُم به كافرون )(٢).

وللتقليد ــ كما سنبيّن ــ أنواع وأقسام ، فبعضه منطقي ويكون سبباً لإنتقال العلوم من جيل إلى جيل آخر ، وبعضه خرافة وحمق وسبب لإنتقال الخرافات والقبائح ولكلّ علامات يشار إليها .

* * *

الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلّقة بمواجهة إبراهيم ( (عليه السلام) ) مع عبدة الأصنام في بابل حيث سألهم بمنطقه الرصين الصريح : ما تعبدون ؟ فكان جوابهم : ( قالوا نعبدُ أصناماً فنظلّ لها عاكفين ) .

وبهذه الكلمات لم يقرّوا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به . وقد سدّ إبراهيم ( (عليه السلام) ) الطريق عليهم من خلال سؤال واحد : ( قالَ هَلْ

---

١ ــ التفسير الكبير للفخر الرازي : ج٢٧ ص٢٠٦ ، كما توجد إشارة إلى هذا الأمر في تفسير روح البيان والميزان في ذيل آية البحث .

٢ ــ سورة الزخرف : الآية ٢٤ .



يَسمَعُونَكم إذْ تدعون أو يَنفَعونَكم اَو يَضرّون ) ، أي أنّها ( الأصنام ) إن لم تنفع ولم تضرّ فلابدّ من أن تسمع نداء عبّادها على الأقل وإلاّ لا معنى لعبادتها .

ولكن أُولئك الذين لم يجرؤوا على الإدّعاء بأنّ الأصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم وتضرّعهم ، كما أنهم لم يمتلكوا دليلا على إثبات ضرّها ونفعها لتبرير عملهم ، إضطرّوا للتمسّك بأسلافهم والتشبّث بالتقليد الأعمى وقالوا : ( بَلْ وجَدنا آباءَنا كذلك يَفعَلون ) .

وهذا الجواب وإن كان مخجلا إلاّ أنّهم لم يملكوا شيئاً ليقدّموه .

وفي طول هذه الآيات يردّهم إبراهيم ( (عليه السلام) ) بمنطق رصين : ( قالَ أفرأيتُم ما كنتُم تَعبدونَ * أنتُم وآباؤكُم الأقدَمون * فانّهم عَدوٌ لي إلاّ رَبّ العالَمين * الذي خَلَقني فهو يَهْدين * والذي هو يُطعِمني ويَسقِين * وإذا مرِضتُ فهو يَشفِين * والذي يُميتني ثمّ يُحيين * والذي أَطمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين )(١).

أي أنّه أهل للعبادة فهو المبدىء لكلّ الخيرات والبركات ، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقدة للقيمة .

وتنقلُ الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها إنعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول : ( قالوا اَجِئتَنا لتلفِتَنا عمّا وَجَدنا عليه آباءَنا وتكونَ لكما الكبرياءُ في الأرض )(٢) وعليه ( وما نَحنُ لَكُما بمُؤمنين ) .

انّهم إستندوا ــ في الحقيقة ــ إلى هذه النقطة فقط لإثبات صحّة مسلكهم وقداسته وهيى أنّ هذا هو طريق الأسلاف ودينهم وعادتهم ، ولكي يتّهموا موسى وهارون بأنّهما يتآمران قالوا : إنّكما تبغيان الحكومة عن طريق الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا نسمح بذلك ! ويبدو أنّ هذا الكلام أُلقي من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون

---

١ ــ سورة الشعراء : آية ٧٥ ــ ٨١ .

٢ ــ ( لتلفتنا ) من ( لفت ) وهو الصرف عن الشيء أو الإلفات إلى الشيء لو تعدّت بــ ( من ) فإنّها تعني الإنصراف و بــ ( إلى ) فإنّها تعني ( التوجّه ) .



للتوحيد بطريقين شيطانين :

الأوّل : هو إثارة العواطف لدى عامّة الناس الجاهلين وذلك بالتحذير من أنّ دين أسلافهم في خطر ، والآخر : هو إثارة سوء الظنّ فيهم بوصف دعوة موسى وهارون أنّها تجري وفق مخطّط مسبق للوصول إلى الحكم وإلاّ فإنّها لا واقعية لها .

وقد إستخدم هؤلاء المقتدرون والطغاة هذين الطريقين لإستغفال الناس ومواصلة حكومتهم الإستبدادية ، كما يلاحظ في الآية ٦٣ من سورة طه حيث جاء التعبير بصراحة أكبر : ( قالُوا إنّ هذان لساحِران يُريادن أنْ يُخرِجاكُم مِنْ أرضِكُم بِسحرِهما وَيذهَبا بطريقَتكم المُثلى ) .

* * *

إجابة المشركين الدائمة

إنّ الآية الرابعة تنقل هذا المضمون على صورة إجابة دائمة من قبل مشركي مكّة حيث تقول : ( وإذا قيل لَهم اتّبِعوا ما اَنزَلَ الله قالُوا بَلْ نَتّبع ما الفَينا عليه آباءَنا ) .

وهذا في الحقيقة هو منطق كلّ معاند لجوج حيث يتوسّل بالتقليد حينما يعجز عن كلّ شيء ، التقليد الأعمى للأسلاف الضالّين والجاهلين والتفاخر بذلك دون إمتلاك أي جواب تجاه الأدلّة المحكمة التي أقامها الأنبياء لإثبات حقّانية دعوتهم وبطلان الشرك وعبادة الأصنام .

والقرآن الكريم يردّ هذا المنطق بجملة قصيرة واحدة حيث تقول في طول هذه الآية بشكل سؤال : ( أولو كانَ آباؤهم لا يعقِلون شيئاً ولا يهتدون )(١).

---

١ ــ في الآية جملة مقدّرة معناها : (أيتّبعون ما ألفوا عليه آباءهم في كلّ حال وفي كلّ شيء ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ) .



أي أنّ تقليدهم لو كان كتقليد الجاهل للعالم لكان مقبولا ، ولكنّه ليس كذلك بل هو تقليد جاهل لجاهل آخر ، واتّباع ضال لضال آخر ، فمثلهم كالأعمى الذي يقوده أعمى آخر .

إنّ هذه الآية وما سبقها من آيات تتحدّث ــ كما يفهم من سياقها ــ عن مشركي العرب ، وما إحتمله بعض المفسّرين من انّها تقصد اليهود ولذلك كان سبب نزولها كما هو الوارد عن ابن عبّاس بعيد ( فتأمّل ) .

* * *

تحدّثت الآية الخامسة والأخيرة عن مشركي العرب أيضاً حيث كانوا (وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم ) .

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول : إنّهم كانوا يواجهون ( الآيات البيّنات ) بمنطق ( التقليد ) ويستحقرون النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ويعبّرون عنه بــ ( رجل ) ، ولكي يستميلوا عامّة الناس إليهم يخاطبونهم بــ ( أسلافكم ) بدلا عن ( أسلافنا ) ليثيروا عصبيتهم أمام النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) .

* * *

من مجموع هذه الآيات نستنتج أنّ قضيّة التقليد الأعمى تعدّ من العوامل المؤثّرة في تناقل الإعتقاد بالصنم في العصور والقرون السالفة ، ولم يكن النبي الكريم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) لوحده عندما نهض لمقارعة الشرك كما تتحدّث الآية ٤٣ من سورة سبأ والآية ٢٢ من سورة لازخرف حيث تمسّكوا في ردّه بتقليد الأسلاف،

بل وكان هذا الأمر جارياً في عصر النبي موسى ( (عليه السلام) )(١) وفي عصر النبي إبراهيم ( (عليه السلام) )(٢) وعصر النبي هود ( (عليه السلام) )(٣) وفي عصر النبي صالح ( (عليه السلام) )(٤).

بل وكانت هذه الحجّة الحمقاء الواهية(٥) تثار بين مشركي العالم وفي مواجهة الأنبياء الإلهيين وقادة التوحيد والمحاربة مع الشرك وعبادة الأصنام .

ومن الواضح أنّ التقليد الأعمى لم يكن العامل الأوّل لظهور الشرك ، بل يشكّل عاملا لإستمراره وإنتقاله من جماعة إلى اُخرى ومن جيل إلى جيل .

* * *

إيضاحات :

١ ــ التقليد ، عامل للتقدّم أم للإنحطاط ؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ التقليد إذا تمثّل في اتّباع وإقتباس الجاهلين من العلماء فإنّه عامل على إيجاد حركة تكاملية في المجتمعات البشرية وأساساً نجد أنّ العلوم والأفكار والآداب والعادات البنّاءة ، كما أنّ الشؤون التربوية والإنسانية قد إنتقلت من جيل إلى جيل عبر هذا الطريق .

إنّ الأطفال يكتسبون جلّ معلوماتهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريباً، كما أنّ الصناعات والحِرف والفنون تتوسّع وتتكامل بهذا الطريق أيضاً ، ولولا روح التقليد الإيجابية والبنّاءة لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبداً .

ولكن كما يتلوّث الماء الصافي الذي هو عصب الحياة فيكون سبباً لتفشّي المرض أو الموت فإنّ التقليد كذلك ، فلو كان على شكل تقليد جاهل

---

١ ــ كما في الآية ٧٨ من سورة يونس .
٢ ــ الآيات : ٧٠ ــ ٧٤ من سورة الشعراء .
٣ ــ الآية : ٧٠ من سورة الأعراف .
٤ ــ الآية : ٦٢ من سورة هود .
٥ ــ كما في الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

لجاهل أو تقليد عالم لجاهل فإنّه يكون سبباً لإنتشار الفساد والإنحراف وتفشّي الأخلاق الفاسدة والسيّئة والإنحراف الفكري وإنتقال أنواع الخرافات من قوم إلى قوم آخرين ومن جيل إلى جيل آخر .

كثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والتعصّب ، فالذين لا يتحمّلون جهود التحقيق لما فيهم من كسل يقبلون على التقليد ، والمعاندون المتعصّبون الذين لا يهتمون للحبث عن نقاط القوّة لدى الأقوام الأُخرى والإذعان لها ، يألفون نقاط الضعف الموجودة في مجموعتهم ، وقد كان هذا النمط من التقليد الأعمى والمتعصّب والرجعي هو العامل المهمّ لشيوع الشرك وعبادة الأصنام على مرّ التاريخ(١).

* * *

٢ ــ تزيين الشياطين وهوى النفس

يستفاد من الآيات القرآنية إنّ ( اتّباع الهوى ) كان من عوامل الشرك أيضاً ، كما نقرأ في قصّة السامري جوابه حينما سأله موسى ( (عليه السلام) ) عن الدافع لعمله بأنّه لاحظ اُموراً لم يلاحظها غيره فقال : أخذت بعض آثار الرسول وألقيتها خارجاً وأقبلت على الشرك ( وكَذلك سوّلتْ لِي نَفسي ) .

كما يستفاد من الآيات القرآنية أنّ تزيين الشيطان ووساوسه هي العوامل الممهّدة للشرك أو إستمرارها ، كما نقرأ في قصّة ملكة سبأ أنّ الهدهد عندما أخبر سليمان ( (عليه السلام) ) عن شرك قوم سبأ قال : ( وَجدتُها وقَومَها يَسجُدون للشّمسِ مِنْ دونِ الله وَزَيّن لَهُم الشيطانُ اَعمالُهم فَصَدّهم عَنِ السّبيلِ فَهُمْ لا يَهتدُون ) .

وما ينبغي ملاحظته هو أنّ هوى النفس ووساوس الشيطان تظهر في إطار

---

١ ــ هناك بحوث حول ( أنواع التقليد ) و ( شرائط التقليد الإيجابي ) و « دوافع التقليد الأعمى ) وشرحت كلمة ( تقليد ) في الجزء الأوّل من هذا التفسير في موضوع ( حجاب التقليد ) ج١ ص٣٤٢ .



العوامل السابقة كعبادة الأوهام ( التقليد الأعمى ) ( العصبية اللجوجة ) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل .

* * *

٣ ــ عامل الإستضعاف والإستعمار الفكري

يعتبر الشرك وعبادة الأصنام من الوسائل التي إستخدمها المستكبرون والمستعمرون بشكل دائم لأنّه :

أوّلا : إنّ البسطاء من الناس يُعتبرون وسائل طيّعة للمستكبرين ، ولذا يكون التحرّك الإستعماري دائماً باتّجاه الجهل والغفلة في أوساط المستضعفين ، ويسعى باستمرار إلى صدّ الناس عن الوعي واليقظة والعلم والفكر وغلق أي نافذة للتحقيق في وجوههم وإغراقهم في التقليد الأعمى الذي ينشأ منه التحميق كما يقول القرآن عن فرعون ( فاسَتخفّ قَومَهُ فأطاعُوه )(١).

وبما أنّ الشرك قائم على عبادة الأوهام والظنون فإنّه عامل مؤثّر في إستغفال الجماهير ، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكبرين .

ثانياً : يعتبر الشرك عاملا من عوامل الإختلاف والتفرّق فيوعِز لكلّ قوم بأن يتّخذوا معبوداً لهم ، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس ، ومجموعة لعبادة القمر ، ويشغل مجموعة بـــ ( هبل ) ، ومجموعة بـــ ( اللات ) و ( العزّى ) ، حتّى انقسم المجتمع العربي الصغير في الجزية في مئات المجموعات بسبب عبادة الأصنام المختلفة ، على عكس التوحيد الذي يمثّل حلقة الوصل بين القلوب ورابطاً وثيقاً بين الأفكار .

ونعلم أيضاً أنّ الإختلاف ما دام قائماً فإنّ المستعمرين في راحة بال ، وأنّ مقولة ( فرّق تسد ) تُعدّ من أقدم المبادئ الإستعمارية ، فلا عجب في أن

---

١ ــ سورة الزخرف : آية ٥٤ .



يكون الفراعنة ونمرود وأبو سفيان وأمثالهم من أنصار الشرك وعبادة الأصنام .

ثالثاً : يرغ المستكبرون دائماً في أن يخضع الناس لهم وكأنّهم آلهة ويتلقّون أوامرهم كأوامر مقدّسة لا نقاش فيها .

ومن الواضح أنّ من يسجد للحجر والخشب يكون أكثر تقبّلا للآلهة البشرية ، ولذا أخذ فرعون ينادي في مصر ( أنا ربّكم الأعلى ) واعتبر نفسه أعلى من الآلهة كلّها .

بناءً على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الأفكار الإستعمارية مع الشرك وعبادة الأصنام ، وأن يكون خطّ الأنبياء الذي يمثّل خطّ تحطيم الإستعمار والإستضعاف هو خطّ التوحيد واليقظة والوعي . لنتذكّر مرّة اُخرى الحديث المروي عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) الذي قال فيه : « إنّ بني اُميّة أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي إذا حملوهم عليه لم يعرفوه »(١).

إنّ هذا المضمون وان لم يصرّح به في الآيات القرآنية إلاّ أنّه اُشير إليه كما نقرأ في الآية ( ٣١ ) من سورة سبأ : ( ولَو تَرى اِذ الظالِمُونَ مَوقُوفُون عِندَ ربّهم يرجعُ بعضُهم إلى بَعض القَولَ يَقول الذينَ استُضعفوا للذينَ استكبَروا لولا اَنتُم لكنّا مُؤمِنينَ ).

٤ ــ كلمة أخيرة حول عوامل الشرك

من خلال البحوث التي أوردناها تتّضح هذه الحقيقة وهي : أنّ الشرك وعبادة الأصنام كسائر الظواهر الإجتماعية لا تنشأ من عامل واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت فيما بينها وأوجدته .

والميل إلى المحسوسات والإستئناس بها والمطالبة بإله محسوس .

---

١ ــ اُصول الكافي : ج٢ ص٤١٥ / طبعة بيروت .



واللجوء إلى الأوهام في المجتمعات المتخلّفة ( الظنّ بتأثير الأصنام في الشفاعة والعزّة والنصر والتقرّب إلى الله والظنّ بعدم إمكانية عبادة الله بصورة مباشرة ووجوب إستخدام الوسائط والظنّ بقداسة التماثيل المصنوعة على هيئة الأنبياء والصلحاء وأوهام اُخرى ) .

وهكذا التقليد الأعمى للأسلاف وعدم الإستعداد للتحقيق في قضيّة المعرفة الإلهية .

كذلك إستغلال المستكبرين والمستعمرين للميل إلى الشرك وعبادة الأصنام للوصول إلى أهدافهم الشيطانية ، وإستغفال الناس كانت عوامل مختلفة سبّبت نشوء فكرة الشرك أو إستمراره وبقاءه على طول التاريخ .

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القويّة خطّ الأنبياء الذي يدعو البشر من جهة إلى التحرّر من إطار الحسّ وإدراك ما وراء الطبيعة ، ومن جهة أُخرى يدعوهم إلى عبادة الله مباشرةً والخضوع بين يدي ربّ الكون كلِّه واللجوء إلى ذاته المقدّسة في كلّ حال والقضاء على الأوهام .

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التقليد الأعمى والإقبال على البحث في عالم الوجود ومعرفة الآيات الإلهية في الآفاق والأنفس .

ومن جهة رابعة يدعو عالم البشرية إلى الوحدة وتحطيم الأصنام المفرِّقة والتحرّر من نير الإستغلال والإستعمار والغفلة والإستضعاف .

هذه هي الخطوط العامّة للكفر والإيمان والشرك والتوحيد .

ونختم هذا الكلام بما أورده العلاّمة الطباطبائي ( (رضي الله عنه) ) في تفسير الميزان في ذيل الآيات ( ٣٦ ــ ٤٩ ) من سورة هود تحت عنوان ( كيف وُجِدَ الشرك ) : « اتّضح من الفصل المتقدّم أنّ الإنسان في مزلّة من تجسيم الاُمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوّة فائقة قاهرة والإعتناء بشأنها ، ولذا كانت



روح الشرك والوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرّز والإجتناب في المجتمعات الراقية الحاضرة وحتّى في المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين ، فترى فيها من النُّصب وتماثيل الرجال وتعظيمها وإحترامها والمبالغة في الخضوع لها ما يمثّل لك وثنية العهود الاُولى والإنسان الأوّلي ، على أنّ اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين في شرقها وغربها .

ومن هنا يتأيّد بحسب الإعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتّخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصّة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم ، وكان ربّ البيت في الرومان واليونانيين القدماء ــ على ما يذكره التاريخ ــ يُعبد في بيته ، فإذا مات اتّخذ له صنم يعبده أهل بيته ، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين في قومهم ، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم ( (عليه السلام) ) ... وهو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم ، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كبوذا

وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم ، واتّخاذهم الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنّهم كانوا يرون أنّهم لا يبطلون بالموت وإنّ أرواحهم باقية بعده ، لها من العناية والأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجوداً وأنفذ إرادةً وأشدّ تأثيراً من شوب المادّة ونحت من التأثيرات الجسمانية والإنفعالات الجرمانية ، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إله معبود في قومه ( وقالَ المَلأ مِنْ قَومِ فرعَون أتذر موسى وقَومَه ليفسِدُوا في الأرضِ وَيذَرَكَ وآلهتَكَ ) »(١).

وما جاء في هذا البحث هو بعض عوامل الشرك ، ولا بأس في الإشارة أخيراً إلى نقطة تثير العجب ذكرها المؤرّخ الغربي الشهير ( ويل دورانت ) في كتابه التأريخي وأيّده الكثير من الذين سافروا إلى خارج البلاد في هذا العصر

---

١ ــ تفسير الميزان : ج١٠ ، ص٢٧٥ ــ ٢٧٧ ( مع التلخيص ) .



بملاحظاتهم في تلك البلدان وهو وجود أصنام كثيرة صنعت على صورة الآلة التناسلية للذكر والأُنثى ! حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة !

ويكتب : لَعلَّ ( القمر ) هو أوّل شيء وكانت له أولوية العبادة ، فقد كان الإله المحبوب لدى النساء وعبدنه حامياً لهنّ ، وإعتقدن بأنّ للقمر حكومة على الأنواء الجوّية وينزل هذا الجرم السماوي المطر والثلوج ، حتّى أنّ الضفادع ــ كما في الأساطير ــ تتضرّع إليه كي ينزل المطر .

وبعد التفصيل في هذا المجال وفي عبادة الشمس والأرض والجبال والبحار يضيف : بما أنّ الإنسان الأوّل لم يدرك أنّ حقيقة إنعقاد نطفة الإنسان من ( الحيمن ) و ( البويضة ) ، فلذلك كانوا يعتقدون بأنّ المبدأ الوحيد في وجود البشر هو هذا الموجود العجيب أي ( الآلة التناسلية لدى الرجل والمرأة ) إعتقدوا وجود روح عجيبة فيهما هي المبدأ لهذا الأثر العجيب ، وهذا الأمر كان سبباً في الإعتقاد التدريجي بإلُوهيتهما وتحوّلهم إلى عبَدة لتماثيل الآلة التناسلية !!

والأعجب أنّه يكتب : قلّما نجد قوماً لا يعبدون هذا الصنم بشكل ما !(١).

وكما أشرنا فإنّ عبادة الأصنام لا تزال منتشرة في الهند واليابان في الوقت الحاضر .

ومن هنا يتّضح جيّداً أنّ الإنسان إذا إنحرف عن تعليمات الأنبياء ( (عليهم السلام) ) سيقع في مستنقعات متعفّنة وسيرتكب أعمالا مضحكة ومخجلة .

أمّا الموحّدون ذوو الدين الحقّ والقلب السليم فعليهم أن يشكروا الله كثيراً على تحرّرهم بفضل تعليمات الأنبياء من التلوّث بالشرك والسقوط في هذه الأودية الموحشة .

* * *

---

١ ــ تاريخ ويل دورانت : ج١ ، ص٩٥ ( مع التلخيص ) .







فروع التوحيد

١ ــ توحيد الذات

٢ ــ توحيد الصفات

٣ ــ توحيد العبادة

٤ ــ توحيد الأفعال





التقسيمات الأساسية

قرأنا في البحوث السابقة أنّ الأساس في دعوة جميع الأنبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم ــ هو التوحيد ــ وقد شرحنا الأدلّة عليه من القرآن والمنطق العقلي ، وقد آن

**الأوان هنا لمراجعة الأبعاد المختلفة والفروع المتنوّعة والغنية للتوحيد ، ومن هنا تتجلّى أهميّة هذه المسألة .**

**ومن المعروف لدى علماء العقائد أنّ التوحيد ذو فروع أساسية أربعة :**

**١ ــ توحيد الذات ( ذات الله واحدة ولا مثيل لها ) .**

**٢ ــ توحيد الصفات ( صفات الله عزّوجلّ ترجع كلّها إلى حقيقة واحدة هي ذاته ) .**

٣ ــ توحيد العبادة ( تليق العبادة بذاته المقدّسة فقط ) .

٤ ــ توحيد الأفعال ( هو المبدىء لكلّ خلق ونظام الكون وكلّ حركة وفعل في هذا العالم ( لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله سبحانه ) ولا يتنافى هذا مع إختيار الإنسان أبداً ، وتوحيد الأفعال له فروع أُخرى أهمّها :

١ ــ توحيد الخالقية ( الخلق منه فقط ) .

٢ ــ توحيد الربوبية ( تدبير الكون إليه فقط ) .

٣ ــ توحيد المالكية والحاكمية التكوينية .

٤ ــ توحيد الحاكمية التشريعية والتقنينية .

٥ ــ توحيد الطاعة ( تجب طاعة أوامره فقط أو أوامر الذين أمر بطاعتهم ) ولا شكّ في أنّ أفعال الله لا تنحصر في ما ذكر ، ولذا فإنّ فروع توحيد الأفعال لا تنحصر فيما ذكر ولكن هذه الفروع الخمسة هي الفروع الرئيسة .



وضروي أن نذكر بأنّ التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمي التوحيد ( الخاص ) و ( العامّ ) .

التوحيد الخاصّ : هو فروع التوحيد التي أُشير إليها بصورة إجمالية .

أمّا التوحيد العام فهو عبارة عن :

١ ــ التوحيد في النبوّة ( فجميع الأنبياء ( (عليهم السلام) ) تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم منهج أساسي واحد ، ولذا لا نفرّق بينهم من حيث الدعوة والمهمّة ) ( لا نُفرِّقُ بَينَ أحدٌ مِنْ رُسُلِهِ ) .

٢ ــ التوحيد في الإمامة ( مبدأ الأئمّة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة وهم نور واحد ) .

٤ ــ التوحيد في النظم والعدل ( القانون الإلهي واحد بالنسبة لجميع البشر ) .

٥ ــ التوحيد في المجتمع البشري ( الجميع عباد الله ومن أب واحد وأُمّ واحدة لا يختلفون بإختلاف اللون والعنصر واللسان وأمثالها ويشكّلون مجتمعاً واحداً ) .

وبهذه المقدّمة نراجع الآيات القرآنية ونبحث كلّ فرع من هذه الفروع بصورة مستقلّة .

* * *

[٢٤٢]

( ١ ــ ٢ )

توحيد

الذات والصفات

[٢٤٣]

[٢٤٤]

تمهيد :

المراد من توحيد الذات حيثما كان الحديث عنه هو أنّ ذات الله المقدّسة لا شبيه ولا نظير لها ، وهي واحدة لا مثيل لها من أيّ جهة .

وبما أنّ الأبحاث السابقة كانت تدور ــ عادةً ــ حول محور توحيد الذات وقد أُقيمت أدلّة مختلفة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التي تمّ تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المضمون ، لذا ننصرف عن تكرير البحث بصددها ونتابع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات ، ونستمع خاشعين أوّلا إلى الآيات الآتية :

١ ــ ( لَيسَ كَمِثْله شَيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ ) سورة الشورى ــ ١١ .

٢ ــ ( لَقَدْ كَفرَ الذينَ قَالُوا إنَّ الله ثَالثُ ثَلاثة ومَا مِنْ إله إلاّ الهٌ واحدٌ وَإنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمّا يَقُولونَ لَيمسَّنَّ الَّذينَ كفَرُوا منُهم عَذابٌ أَليمٌ ) سورة المائدة ــ ٧٣ .

٣ ــ ( قُلْ هُوَ اللهُ احدٌ * اللهُ الصمَّدُ * لَم يلدْ ولَم يُولَد * ولَم يكُن لَه كفُواً أَحد ) سورة التوحيد .

**جمع الآيات وتفسيرها :**

**يامن تعاليت على الخيال والقياس والظنّ والوهم**

**تفسّر الآية الاُولى توحيد الذات في جملة واحدة تفسيراً بليغاً ورصيناً غني المعنى حيث تقول ( ليس كمثله شيء ) .**

**ومثل هذا الشيء ــ بالتأكيد ــ يكون أعلى من الخيال والقياس والظنّ والوهم ، وليس بمقدورنا تصوّر ذاته ، لأنّ الأشياء الممكن تصوّرها هي التي لاحظنا أمثالها أو تحصّلت بعد التركّب والتجزئة ، أمّا الشيء الذي ليس له أي مثيل فلا يتناوله الوهم والعقل أبداً ، ومعرفتنا تكون بمقدار أنّه موجود ونرى**



**أفعاله وآثاره في عالم الوجود الواسع ، ومن هذه الأوصاف ندرك صفاته إجمالياً ، ولكن ليس بمقدور حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين أن يدركوا حقيقة ذاته .**

**والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة في سلّم معرفة الإنسان به عزّوجلّ والحديث المعروف : « ما عرفناك حقّ معرفتك »(١) المروي عن النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) بيان لذروة العرفان البشري بالله عزّوجلّ .**

**والدليل على ذلك واضح لأنّه كما ذكر في بحث أدلّة التوحيد هو وجود لا متناهي ولا نهاية له من كلّ جهة ، وكلّ ما سواه محدود ومتناه من كلّ جهة ، ولذا لا يمكن قياسه إلى غيره ، وبما أنّ وجودنا وعقولنا وأفكارنا محدودة فإنّا لا نصل إلى كُنه تلك الحقيقة اللامحدودة أبداً .**

**إستناداً إلى هذا التفسير فإنّ ( الكاف ) في ( ليس كمثله شيء ) تكون زائدة وللتأكيد(٢)، أي لا يوجد شيء شبيه له أبداً ، نعم يمكن أن يفيض سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته في عالم الممكنات ولكن مخلوقاته الممكنة ليست مثله أبداً .**

**ولكن بعض المفسّرين لم يعتبر ( الكاف ) زائدة وقالوا : مفهوم الآية هو ( لا يوجد مثيل لله ) أي أنّ ( مثل ) هنا تعني ( الذات ) كما نقول : مثلك لا يسلك هذا الطريق المعوج ، أي لا ينبغي لك أن تفعل هذا .**

**وقال البعض أيضاً : إنّ ( مثل ) هنا بمعنى الصفات ، أي لا يوجد موجود يتّصف بأوصاف الله .**

وواضح أنّ نتيجة هذه التفاسير الثلاثة في بحثنا تكون واحدة وإن كانت تبحث الموضوع من طرق متباينة .

---

١ ــ بحار الأنوار : ١٤/٣ .

٢ ــ جاء في تفسير ( روح المعاني ) : إنّ بعض المفسّرين اعتبر ( مثل ) زائدة ولكن أشكل عليه أبو حيّان وقال : الإسم لا يكون زائداً في اللغة العربية أبداً .



والجدير ذكره هو أنّنا نقرأ في حديث أنّ رجلا جاء إلى الرسول ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وسأل : ما رأسُ العلمِ ؟ فأجابَ ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : « معرفة اللهِ حقَّ معرفته وأضاف : أن تعرفه بلا مثال ولا شبه وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أوّلا وآخِراً وظاهراً وباطناً ، لا كفو له ولا مثل له فذاك معرفة الله حقّ معرفته »(١) ومن الواضح أنّ ( حقّ معرفته ) هذه نسبية وإلاّ ــ كما قلنا ــ لا يعرفه على ما هو عليه أحد .

في الآية الثانية يعتبر القرآن الكريم القائلين بأنّ الله ثالث اقنوم من الأقانيم الثلاثة(٢) كفّاراً ( لقَد كَفَرَ الذينَ قالُوا اِنّ اللهَ ثالِثُ ثلاثة ) .

وينبغي الإلتفات إلى أنّ الآية لم تقل : إنّ الذين يعتقدون بالآلهة الثلاثة كفّار بل تقول : ( إنّ الذين يعتبرون الله اقنوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثة كفّار ) . وقد سلك المفسّرون في فهم مضمون الآية مسالك مختلفة .

فقال بعضهم : إنّ المراد هم الذين يعتقدون أنّ الله جوهر واحد في الذوات الثلاث ( الأب ) و ( الإبن ) و ( روح القدس ) ، ويقولون : إنّه واحد في عين تعدّده ، كما أنّ لفظ الشمس يشمل قرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة(٣)، وبعبارة أُخرى : المراد هو عقيدة ( التوحيد في التثليث ) القائلة بأنّ الله في عين كونه ثلاثة يكون واحداً ( وهذا كلام غير معقول طبعاً لأنّ العدد « ثلاثة » لا يساوي « واحداً » أبداً ، إلاّ أن يكون أحدهما مجازياً والآخر حقيقيّاً ) .

وقد جاء في تفسير القرطبي : إنز الآية تشير إلى فرق النصارى من الملكية ( أو الملكانية ) والنسطورية واليعقوبية لأنّهم يقولون : أب وابن وروح القدس إله واحد(٤).

---

١ ــ بحار الأنوار : ١٤/٣ .

٢ ــ الاقنون بمعنى الأصل والذات وجمعه أقانيم ، وهو تعبير يطلقه النصارى على الآلهة الثلاثة ومسألة التثليث .

٣ ــ تفسير الفخر الرازي : ٦٠/١٢ .

٤ ــ تفسير القرطبي ٢٢٤٦/٤٤ ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً في تفاسير أُخرى مثل روح البيان والمنار في ذيل آية البحث .



ولكن الظاهر أنّه خطأ لأنّهم نسبوا هذه العقيدة إلى جميع النصارى في القول بالتثليث والتوحيد معاً .

والعلاّمة الطباطبائي يقول : إنّ ثالث ثلاثة يعني أنّ كلز واحد من هذه الثلاثة : ( الأب والإبن وروح القدس ، هو إله ينطبق على كلّ واحد منها وهي ثلاث ذوات وفي الوقت نفسه ذات واحدة )(١).

ولكن الآية تتحدّث في الظاهر عن غير هذا كلّه ، فالكلام يدور حول إنّ الإعتقاد بأنّ الله ذات ثالثة كفر ، أي ليس الإعتقاد بالآلهة الثلاثة موجباً للكفر بل جعل الله تعالى في عرض الموجودات الاُخرى وإعتباره الثالث من الذوات الثلاثة ، وبعبارة اُخرى إعتبار ( الوحدة العددية ) له موجب للكفر ( فتأمّل جيّداً ) .

وقد ورد بيان هذا المعنى بشكل لطيف في حديث عن أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) حيث نقرأ بأنّ أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين في يوم حرب الجمل فقال : ياأمير المؤمنين أتقول : إنّ الله واحد ؟

فحمل الناس عليه وقالوا : ياأعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب ؟ فقال أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) : دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم ؛ ثمّ قال : ياأعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام ، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّوجلّ ، ووجهان يثبتان فيه ، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعدا فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنّه كفر من قال إنّه ثالث ثلاثة؛ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربّنا؛ وقول القائل: إنّه عزّوجلّ أحديٌّ

١ ــ تفسير الميزان : ٧٣/٦ .



المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّوجلّ(١).

القسم الثالث والأخير عبارة عن سورة التوحيد التي ترسم وحدانية الله بأروع الصور وتتضمّن كلاماً جامعاً ينفي تثليث النصارى والثنوية ( عبادة الإثنين ) لدى المجوس وشرك المشركين ، فتقول أوّلا : ( قل هو الله أحد ) ، وهو تعبير يدلّ على أنّ أسئلة مختلفة قد طُرحت على نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) حول المعبود الذي يدعوهم إليه ، فأُمر أن يشرح لهم جميعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل القصيرة المركّزة المعنى .

( أحد ) وأصلها ( وَحَد ) من ( وحدة ) إستبدلت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أنّ ( أحد ) و ( واحد ) بمعنى واحد ، وقد أُشير إلى هذا المضمون في بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى الذات التي لا مثيل لها(٢).

وقد فرّق بعض بين (أحد) و (واحد) . قالوا تارةً : إنّ ( أحد ) من الصفات المختصّة بالله لأنّه لا يطلق على الإنسان وغيره ، أمّا ( واحد ) فانّه ليس كذلك .

وقالوا تارة أُخرى : إنّ ( واحد ) يستعمل في الإثبات والنفي ولكن ( أحد ) يستعمل في النفي فقط .

وقالوا تارةً : إنّ ( أحد ) إشارة إلى وحدة الذات و ( واحد ) إشارة إلى وحدة الصفات .

وقالوا رابعة : انّ ( أحد ) يطلق على الذات التي لا تتقبّل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن ، ولذا لا يمكن عدّه بعكس الواحد الذي يتصوّر له الثاني والثالث .

وقالوا خامسة : انّ ( أحد ) إشارة إلى بساطة ذات الله عزّوجلّ ونفي أي جزء عنه ، في حين انّ ( واحد ) فيه إشارة إلى وحدانية ذاته قبالة أن يكون له مثيل . غير انّ تلك التفاسير الأربعة لا تمتلك دليلا واضحاً ، فمثلا يقال : يوم

---

١ ــ بحار الأنوار : ٢٠٦/٣ ، الحديث ١ .

٢ ــ بحار الأنوار : ٢٢٢/٣ .

الأحد ، ويطلق الواحد على الله في القرآن ( اله واحد )(١) كما أنّ « أحد » إستعمل في جملة ثبوتية كما في آية البحث وآيات قرآنية اُخرى(٢).

فالصحيح هو أن نقول بأنّ الإثنين يشيران إلى معنى واحد .

على كلّ حال ، يعتقد بعض المفسّرين انّ جملة ( الله أحد ) هي أكمل وصف لمعرفة الله يمكن أن يستقرّ في عقل الإنسان ، لأنّ كلمة ( الله ) تشير إلى الذات التي لها صفات الكمال كلّها وفي ( أحد ) إشارة إلى نفي الصفات السلبية كلّها(٣).

والقرآن الكريم في إكمال هذه الآيات يقول : ( الله الصمد ) فهو إله قائم بالذات وغني ويقصده كلّ المحتاجين ويتوجّهون إليه .

وكلمة ( صمد ) كما في ( مقاييس اللغة ) لها أصلان : أحدهما يعني القصد ، والثاني الصلابة والإستحكام ، وعندما تستعمل بصدد الله تعالى فانّ معناها هو الغني المطلق الذي يتوجّه إليه كلّ المحتاجين ، وتعني أيضاً الذات الواجبة الوجود والقائمة بذاتها .

ومن الممكن أن يرجع الأصلان إلى أصل واحد ، لأنّ الذات المستحكمة والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنيّة ــ طبعاً ــ وموضعاً لتوجّه جميع المحتاجين ، وعليه فانّ ( صمد ) يمكن أن يكون إشارة إجمالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى . ولعلّه لهذا الدليل ذُكرت معان كثيرة لــ ( صمد ) في الروايات الإسلامية حيث يشير كلّ واحد منها إلى إحدى صفات الله(٤).

على أي حال ، لا تخفى العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة لها التي تتحدّث عن وحدانية الله ، لأنّ واجب الوجود والغني وحاجة جميع

---

١ ــ سورة البقرة : الآية ١٦٣ .

٢ ــ الآيات : سورة التوبة : الآية ٦ ، سورة النساء : ٤٣ ، سورة مريم الآية ٢٦ ، سورة البقرة : الآية ١٨٠ ، سورة الكهف : الآية ١٩ وآيات كثيرة اُخرى .

٣ ــ تفسير الفخر الرازي : ١٨٠/٣٢ .

٤ ــ التفسير الأمثل : ٤٣٧/٢٧ وما بعدها بحث موسّع في تفسير ( صمد ) .

الموجودات إليه تستلزم أن يكون واحداً وأحداً .

وفي الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة النصارى في الآلهة الثلاثة ( الأب ، والإبن ، والواسطة بينهما ) ، وتبطل عقيدة اليهود بأنّ عزير ابن الله . كما تبطل عقيدة المشركين العرب في أنّ الملائكة بنات الله ، أجل ، انّها ومن أجل نفي هذه الأُمور كلّها وأمثالها تقول ( لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ) .

ومن المسلّم به أن يكون للوجود الذي له ولد أو والد شبيه ومثيل ، لعدم إمكانية إنكار الشبه بين الأب والإبن ، وعليه لا يمكن أن يكون واحداً ولا مثيل له .

ولذا يقول بعد هذه الآية : ( وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفوَاً أحَد ) .

وعليه فانّ الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكّد على أحدية الله المقدّسة ووحدانيته وعدم الشبيه والمثيل له ، وبعبارة أُخرى تكون كلّ آية في هذه السورة تفسيراً للآية السابقة لها ، وبمجموعها أوضحت مسألة التوحيد بشكل جامع وتامّ وتجسّدت شجرة التوحيد الطيّبة بكلّ أغصانها وأوراقها .

* * *

إيضاحات :

١ ــ المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يقول كثير من الناس : إنّ معنى توحيد الذات هو أنّ الله واحد وليس إثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد في الرواية عن أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) في تفسير هذه الآيات ، لأنّ مفهومها الواحد العددي ( أي أن يتصوّر الثاني لله عزّوجلّ ولكن لا وجود خارجي له ) ومن المسلّم انّ هذا كلام غير صحيح، والصحيح هو أن يقال: إنّ توحيد الذات هو أنّ الله واحد ولا يتصوّر له الثاني، وبعبارة أُخرى: انّ الله لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل ، فلا يشبهه شيء ولا



هو يشبه شيئاً لأنّ هذا الوجود اللامتناهي الكامل هو الذي يتّصف بهذه الصفة .

ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) حينما سأل أحد أصحابه : أي شيء أكبر الله ؟ فأجاب : الله أكبر من كلّ شيء . ثمّ قال الإمام ( (عليه السلام) ) : فكان ثَمَّ شيء فيكون أكبر منه ؟! فقال : فما هو ( ما المراد من هذه الكلمة ) ؟ فأجاب ( (عليه السلام) ) : الله أكبر من أن يوصف(١).

٢ ــ مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول : إنّ توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإنّ مفهومه هو : كما أنّ ذات الله عزّوجلّ أزلية وأبدية فانّ صفاته كالعلم والقدرة وأمثالها أزلية وأبدية أيضاً ، هذا من جهة ، ومن جهة اُخرى ، هذه الصفات ليست زائدة على ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعروض بل هي عين ذاته .

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها ، أي أنّ علمه وقدرته شيء واحد والإثنان عين ذاته !

بيان : عندما نراجع أنفسنا نرى أنّنا كنّا نفقد الكثير من الصفات ، فلم نملك حين الولادة علماً ولا قدرة ، ولكن هذه الصفات نمت فينا تدريجيّاً ، ولذا نقول: إنّ هذه اُمور زائدة على ذواتنا ، ولذا يمكن أن يمرّ بنا اليوم الذي نفقد فيه القوّة العضلية والعلوم والأفكار التي نملكها ونرى بوضوح أيضاً إنّ علمنا وقدرتنا منفصلتان ، فالقدرة الجسمية في عضلاتنا ولكن العلم موجود في الروح !

ولا يتصوّر في الله أي معنى من هذه المعاني ، فذاته كلّها علم وقدرة وكلّ شيء في ذاته واحد ، ونسلّم طبعاً بأنّ تصوّر هذه المعاني ــ بالنسبة لنا نظراً لفقداننا لهذه الصفة ــ معقّد وغير مألوف ولا سبيل إليه إلاّ قوّة المنطق والإستدلال الدقيق واللطيف .

* * *

١ ــ معاني الأخبار للصدوق : ص٧ الحديث ١ .



٣ ــ الدليل على توحيد الصفات

إنّ التعمّق في صفات المخلوقات وعدم القدرة على إستيعاب مفهوم توحيد الصفات هو السبب في إنحراف بعض المتكلّمين وعلماء العقيدة عن المسير الصحيح في موضوع صفات الله ، أمثال طائفة ( الكرامية ) وهم أتباع محمّد بن كرام السيستاني الذين اعتقدوا بأنّ صفات الله حادثة . أنّ الله لم يكن مالكاً لهذه الصفات ابتداءً ثمّ إمتلكها !

وهذا الكلام في غاية القبح ! ولا يمكن لأحد أن يصدّقه ، مَنْ يصدّق بأنّ الله كان عاجزاً في البداية ثمّ إقتدر ، فمن الذي أعطاه القدرة ! ومن الذي وهبه العلم ؟!

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات الفعل كالخالقية والرازقية ، لأنّ الله قبل أن يخلق موجوداً أو يرزقه لا معنى للخالقية أو الرازقية بالنسبة إليه (طبعاً كان قادراً على الخلق والرزق ولكن القدرة على شيء غير إيجاده ) إلاّ أنّ البحث في توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو في صفات الذات كالعلم والقدرة ، وكما سيأتي مفصّلا بأنَّ صفات الفعل مستقلّة عن صفات ذات الله ، فصفات الفعل شيء ينتزعه العقل بعد مشاهدة أفعال الله وينسبها إلى الله ( سنقرأ تفصيل ذلك في هذا الكتاب ) .

وأوضح إشارة في باب إثبات وحدة الصفات في الآيات القرآنية هي الآية القائلة : ( لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ ) و : ( قُلْ هو اللهُ أحَدٌ ... ) التي تقدّم تفسيرها وتدلّ على أنّ ذاته المقدّسة لا تتّصف بأيّة إثنينية .

ويمكن في الإستدلالات العقلية الإستناد إلى بعض النقاط :

١ ــ ثبت في الأبحاث السابقة أنّ الله غير متناه من جمع الجهات ولذا لا توجد خارج ذاته أيّة صفة كمال ، فكلّ ما يوجد مجموع في ذاته ، وعندما نرى



أنّ صفاتنا حادثة أو أنّها غير ذاتها فإنّ السبب هو أنّنا موجودات محدودة ، ولهذه المحدودية تكون الأوصاف والكمالات خارج ذواتنا وهي ممّا نكتسبها أحياناً ، أمّا ذات الله وهو الكمال المطلق فأي صفة يمكن تصوّرها خارج ذاته المقدّسة؟

٢ ــ لو قلنا بأنّ صفاته مضافة إلى ذاته أو إعتقدنا بأنّ صفاته كالعلم والقدرة منفصلة عنه فإنّ النتيجة هي التركيب ( تركى من الجوهر والعرض بل عوارض متعدّدة ) في حين ثبت مسبقاً أنّه لا سبيل لأي تركيب في ذاته خارجياً أو عقليّاً .

وقد أشار أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) إلى هذا المضمون في الخطبة الاُولى من نهج البلاغة بعبارة جميلة جدّاً في باب توحيد الصفات :

« وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله » .

* * *

[٢٥٤]

٣ ــ التوحيد في العبادة

[٢٥٥]

[٢٥٦]

تمهيد :

إنَّ توحيد العبادة هو من أكثر فروع التوحيد حساسية ويعني أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد إلاّ له .

ويمكن القول : إنّ عنوان دعوة الأنبياء والقاعدة الاُولى لشرائعهم هو قضيّة التوحيد في العبادة ، وغالباً ما كانت مواجهاتهم مع المشركين تنشأ من هذه النقطة .

صحيح أنّ ( التوحيد في العبادة ) يلازم ( توحيد الذات والصفات ) حيث تقرّر أنّ واجب الوجود كلّ ما سواه ممكن ومحتاج إليه فلا سبيل إلاّ أن تكون العبادة مختّصة به .

انّه هو الكمال المطلق ، ولا يوجد كمال مطلق سواه . والعبادة تعتبر طريقاً للوصول إليه ، فلابدّ أن تكون مختّصة به .

والملاحظ أنّ الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى التوحيد في العبادة ونحن نذكر هنا أقسامها الحسّاسة بغية الوصول إلى هذا النداء القرآني المهمّ ونهتمّ بالبقيّة ضمن إشارات بليغة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين إلى الآيات القرآنية الآتية :

١ ــ ( ولَقَدْ بَعَثْنا في كُلّ أُمَّة رَسُولا أن اعْبُدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطاغُوتَ فَمِنهُم مَن هَدى اللهُ ومِنْهُمْ مَنْ حقَّتْ عَلَيهِ الضَلالةُ فَسيروا في الأُرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبةُ المُكذّبينَ ) سورة النحل ــ ٣٦ .

٢ ــ ( ومَا أَرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلاّ نُوحي إليْه انَّهُ لا إلَه إلاّ أنا فَاعْبُدونِ ) سورة الأنبياء ــ ٢٥ .

[٢٥٧]

٣ ــ ( لَقَدْ أرسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِه فَقَالَ يَاقَومِ اعبْدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إلِه غَيْرُه إنّي أَخَافُ عليكُم عَذابَ يَوم عَظيم ) سورة الأعراف ــ ٥٩ .

٤ ــ ( ... ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعبْدُوا إلهاً واحِداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سُبحانَه عَمّا يُشركُونَ ) سورة التوبة ــ ٣١ .

٥ ــ ( قُلْ إنّي نُهيتُ أَنْ أعْبُدَ الذينَ تدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لا اتّبعُ أَهْواءكم دْ ضَلَلْتُ إذاً وَما أَنا مِن المُهتَدينَ ) سورة الأنعام ــ ٥٦ .

٦ ــ ( وَاعبُدْ رَبَّك حتّى يَأْتِيكَ اليقينُ ) سورة الحجر ــ ٩٩ .

٧ ــ ( وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعبدُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدّيْنُ حُنَفاءَ ويُقيمُوا الصَّلاة ويُؤتُوا الزَّكَاةَ وَذلكَ دِينُ القَيّمة ) سورة البيّنة ــ ٥ .

٨ ــ ( وَإنَّ الله ربّي وَربّكُم فاعْبدُوهُ هذا صِراطٌ مُستَقيمٌ ) سورة مريم ــ ٣٦ .

٩ ــ ( ياعِبادِيَ الَّذينَ آمَنوا إنَّ أَرْضي واسِعةٌ فَإيّايَ فَاعْبُدونِ ) سورة العنكبوت ــ ٥٦ .

١٠ ــ ( وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا مِنكُم وَعمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخلفنَّهم في الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَف الّذينَ مِنْ قَبلهم ) سورة النور ــ ٥٥ .

١١ ــ ( وَلاَ يأمُرَكم أنْ تَتّخذوا المَلائكةَ والنَبيينَ أرباباً أَيامُركُم بالكُفْر بعْدَ إذْ أنْتُم مُسْلِمُونَ ) سورة آل عمران ــ ٨٠ .

١٢ ــ ( وَللهِ يَسْجُد مَنْ في السَّمواتِ والأَرمضِ طَوعاً وكَرْهاً وَظلالُهم بالغُدوّ وَالآصال ) سورة الرعد ــ ١٥ .

**شرح المفردات :**

**[٢٥٨]**

**المفهوم الدقيق للعبادة**

**( العبادة ) و ( العبودية ) كلمتان تعنيان إبراز الخضوع ، وعلى ما يذهب إليه الراغب في المفردات ، فإنّ للعبادة مفهوماً أعمق وتعني غاية الخضوع بين يدي من له غاية الإنعام والإكرام وهو الله عزّوجلّ .**

**ويبدو أنّ الأصل في هذا اللفظ مشتقّ من ( عبد ) إلاّ أنّ ( عبد ) كما في ( لسان العرب ) و ( كتاب العين ) يطلق عل كلّ إنسان عبداً كان أم حرّاً ( لأنّ البشر كلّهم عبيد الله ) ويطل تارةً على العبيد خاصّة .**

**ويضيف الراغب : العبد أربعة أضرب :**

**١ ــ عبدٌ بحكم الشرع وهو الإنسان الذي يصحّ بيعه وشراؤه .**

**٢ ــ عبدٌ بمعنى مخلوق .**

**٣ ــ عبدٌ بالعبادة والخدمة ، والناس في هذا ضربان : عباد الله وعباد الدنيا ( وعباد الرحمن ) و ( عبيد الدنيا ) .**

**وفي مجمع البحرين إنّ هذه الكلمة تستعمل تارةً بمعنى ( الحزب والفئة ) والآية : ( فادخلي في عبادي )(١) فيها إشارة إلى ذلك .**

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام وهي أنّهم قسّموا العبادة إلى نوعين :

العبادة الإختيارية التي أمرت بها الآيات القرآنية ، والعبادة غير الإختيارية ، كما يقول القرآن الكريم : ( وإنْ مِنْ شَيء إلاّ يُسبّحُ بحَمِدِه )(٢).

ويقول الطريحي في ( مجمع البحرين ) : إنّ الحكماء قسّموا العبادة إلى ثلاثة أقسام وهي :

الأوّل : ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسعي في المواقف الشريفة لمناجاته جلّ ذكره ( عبادة جسمانية ) .

---

١ ــ سورة الفجر : الآية ٢٩ .

٢ ــ سورة الإسراء : آية ٤٤ .



الثاني : ما يجب على النفوس كالإعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد الله وما يستحقّه من الثناء والتمجيد والتفكّر فيما أفاضه الله سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثمّ الإتّساع في هذه المعارف ( عبادة روحانية ) .

الثالث : ما يجب عند مشاركات الناس في المدن وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الأمانات ونصح بعض لبعض بضروب المعاونات وجهاد الأعداء وحماية الحوزة(١) ( عبادة إجتماعية ) .

( طاغوت ) صيغة مبالغة من ( الطغيان )(٢)، والطغيان كما نعلم هو تجاوز : كلّ حدّ ، ولذا تطلق كلمة طاغوت على كلّ موجود متمرّد ومعتد كالشيطان ، والسحرة ، والجبّارين ، والحكّام الظالمين ، والتيارات التي تنتهي بغير الحقّ .

وتأتي هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع .

وذكر ( الطبرسي ) في ( مجمع البيان ) في تفسير آية الكرسي خمسة معان للطاغوت هي : الشيطان ، الكاهن ، الساحر ، الإنس والجنّ المتمرّدون الأصنام ( ومن الواضح أنّ هذه الأقوال ترجع كلّها إلى معنى جامع واحد أُشير إليه ) .

جمع الآيات وتفسيرها :

**هو المعبود وحده**

**إنَّ آية البحث الاُولى تعتبر الدعوة إلى التوحيد هي المنهج الأساسي لرسل الله أجمعين حيث تقول : ( ولَقَدْ بَعثْنا في كُلِّ اُمّة رَسُولا اَنْ اعبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغُوتَ ) .**

---

**١ ــ مجمع البحرين للطريحي : الربع الثالث : ص١٠٨ .**

**٢ ــ قال البعض إنّ الأصل هو ( طغووت ) ثمّ جاء لام الفعل بدلا عن عين الفعل وإنقلبت الواو المفتوحة قبلها إلى الف وصارت ( طاغوت ) .**



**وهذه الكلمات تُطرح في مواجهة الذين تنقل عنهم ( الآية ٣٥ من سورة النحل ) تبريراتهم في عبادة الأصنام : ( وقَالَ الذينَ أشرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبدنا مِنْ دُونِه من شيء ... ) والقرآن يقول في ردّهم : ( ولَقَدْ بَعثْنا فِي كلِّ اُمَة رَسُولا انْ اعبدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغُوتَ ) فقد دعا الأنبياء جميعاً إلى التوحيد في العبادة وعارضوا عبادة أي موجود غير الله . فما هذه الفرية التي تنسبونها إلى الله ؟!**

**وتضيف بأنّ الناس إنقسموا إلى طائفتين تجاه دعوة الأنبياء ( (عليهم السلام) ) ، طائفة إستعدّت للهداية وكانت تطلبها فهداها الله ( فَمِنْهمْ مَنْ هدى اللهُ ) ، وطائفة خالفت ( ومِنهُم مَن حقّتْ عَلَيه الضّلالَةُ ) ، ثمّ تأمر الآية : ( فسِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيفَ كان عاقِبةُ المكَذّبينَ ) أجل ، انّهم وبسبب إنحرافهم عن جادّة التوحيد وبسبب الطغاة وقعوا في وحل الفساد والشقاء ، نزل عليهم العذاب الإلهي .**

**والملاحظ أنّ الآية تنسب الهداة إلى الله عزّوجلّ ، فلولا التوفيق والإمداد الإلهي لما كان لأحد أن يبلغ الهدف بقدرته ، في حين تنسب الضلالة لهم لأنّها نتيجة أعمالهم .**

*** * ***

**الآية الثانية توافق الآية الاُولى بعبارة اُخرى وتقول كقضيّة عامّة وخالدة : ( ومَا اَرسَلنا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسول إلاّ نُوحِي اِليهِ اَنّه لا اِله إلاّ انا فاعبُدُونِ ) .**

**والملفت أنّ ( نوحي ) فعل مضارع ويدلّ على الإستمرار ، أي لنا أوحينا التوحيد في العبادة إلى كلّ نبي وقد أُمِر جميع الأنبياء بإبلاغ ذلك طيلة دعوتهم .**

وعليه فانّ هذه المسألة إستمرّت أصلا أساسياً في تاريخ الأنبياء ( (عليهم السلام) ) .

* * *

[٢٦١]

الآية الثالثة تنقل كلاماً عن أوّل نبي من اُولي العزم وهو شيخ الأنبياء نوح ( (عليه السلام) ) الذي لم تتضمّن دعوته منذ بدايتها نداء سوى نداء التوحيد في العبادة ورفض الأصنام حيث يقول : ( لَقَدْ اَرسَلنا نُوحاً اِلى قَومِه فَقالَ ياقومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لكم مِنْ اِله غَيره ) .

ويستفاد من هذه الجملة بأنّ الشرك كان ولا يزال أدمى شوكة في طريق سعادة البشرية ، والأنبياء الذين يمثّلون الرعاة لبستان التوحيد كانوا يهتّمون قبل كلّ شيء برعاية زهور الفضيلة في الروح البشرية ويقتلعون هذه الأشواك المعترضة بمنجل التوحيد ، وخاصّة في عصر نوح ( (عليه السلام) ) . كما يستفاد من (الآية ٢٣ من سورة نوح ) حيث كانت هناك أصنام عديدة ومتنوّعة بإسم ( ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ) .

وكانت على هيئة رجل ، وامرأة ، وأسد ، وفرس ونِسر على التوالي ، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم ، ولمّا رأى نوح منهم العناد والإصرار هدّدهم بعذاب الله ، كما نقرأ في ذيل الآية : ( اِنّي اَخافُ عَلَيكُمْ عَذابَ يَوم عَظيم ) ، أي أنّي أخاف عليكم عاقبة الشرك .

والظاهر أنّ المراد من اليوم العظيم هو يوم الطوفان الذي لم يحدث نظيره في تأريخ العقوبات التي نزلت على الأقوام السابقة ، كما احتمل انّ ( يوم عظيم ) إشارة إلى يوم القيامة(١).

وقد جاء في تفسير الميزان بأنّ هذه الآية قد جمعت أصلين من اُصول الدين في جملة قصيرة هما : ( التوحيد والمعاد ) كما جاء الأصل الثالث وهو ( النبوّة ) في آية ( ياقَوْم لَيْسَ بي ضَلالةٌ )(٢).

* * *

---

١ ــ هذان التفسيران قد صرّح بهما في كلمات المفسّرين السابقين ومنها ما أشار إليها الفخر الرازي في الجزء ١٤ ص١٤٩ في ذيل آيات البحث .

٢ ــ تفسير الميزان : ١٨٠/٨ .

الآية الرابعة تتحدّث عن اليهود والنصارى الذين إنحرفوا عن جادّة التوحيد ، فقد إعتبر اليهود أحبارهم ( علماء الدين اليهود ) وإعتبر النصارى رهبانهم والسيّد المسيح معبودات لهم !

ثمّ تقول : ( وما اُمِروا إلاّ لِيعبُدُوا إلهاً واحِداً ) وتؤكّد :

( لا اِله إلاّ هُو ) وللتأكيد تضيف : ( سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ ) .

وبهذا فإنّ الدين الذي أقام النبي نوح ( (عليه السلام) ) قواعده وصل طريقهُ في دعوة موسى ( (عليه السلام) ) والسيّد المسيح ( (عليه السلام) ) بكلّ قوّة وثبات .

صحيح أنّ النصارى كانوا يعبدون السيّد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الأحبار ، والنصارى لم يعبدوا الرهبان ، بل لإطاعتهم المطلقة لهم وإستسلامهم لتحريفهم وتغييرهم الأحكام الإلهية أطلق على ذلك عنوان الشرك. ولذا جاء في الأحاديث : « أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالا فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون »(١)وسيأتي تفصيل ها الموضوع في بحث ( توحيد الطاعة ) بإذن الله .

لا أعبد غير الله

في الآية الخامسة يصل الدور إلى النبي الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) حيث يأمره الله عزّوجلّ : ( قُلْ اِنّي نُهيتُ اَنْ اَعبدَ الّذينَ تَدعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ) .

وإستخدام ( الذين ) الذي يستعمل لجمع المذكّر العاقل في معبوداتهم هو إمّا لتصوّرهم في عالم وهمهم وخيالهم أنّ الأصنام ذات روح وعقل وشعور، وأمّا لوجود أشخاص كالمسيح أو الملائكة والجنّ بين هذه المعبودات .

---

١ ــ تفسير نور الثقلين : ٢/٢٠٩ .



ولتبيان الدليل على هذا المنع والنهي الإلهي تضيف الآية : ( قُلْ لا اتّبعُ اَهواءَكُم قَدْ ضَلَلْتُ اذاً وَما أنا مِنَ المُهتَدِينَ ) .

ويعني هذا أنّ جذور الشرك كلّها ترجع إلى عبادة الهوى والظنّ والوهم ، ومن المسلّم به أنّ أتباع الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهي بالسعادة والهداية أبداً .

* * *

الآية السادسة توجّه الخطاب إلى النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وتأمره بأن يثبت ويواصل عبادة الله الواحد وإجتناب كلّ شرك وعبادة للأصنام حيث تقول : ( واعْبُدْ رَبّكَ حَتّى يَأتيكَ اليَقينُ ) .

وقد فسّر المفسّرون ( اليقين ) هنا بمعنى الموت ، وإعتبروه نظير قول السيّد المسيح ( (عليه السلام) ) : ( واَوصاني بالصَّلاةِ والزّكاةِ ما دُمْتُ حيّاً )(١)، ونقرأ في موضع آخر من القرآن على لسان أهل النار : ( وكُنّا نُكذّبُ بِيومِ الدّينِ حَتّى اَتانا اليقِينُ ) .

كما جاء التعبير عن ( الموت ) بـــ ( اليقين ) في الروايات الإسلامية ، ففي الحديث عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) نقرأ قوله عن الموت : « لم يخلق الله يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت »(٢)، ( لأنّ الناس لا يكترثون به وكأنّهم لا يصدقون أنّهم سيموتون ) !

والتعبير عن ( الموت ) بـــ ( اليقين ) أمّا لما اُشير إليه في الحديث المذكور أي هو مسألة يقطع بها جميع الناس ولا إختلاف بين المذاهب والعقائد المتباينة في هذه المسألة .

وأمّا أنّ الإنسان يتيقّن بالكثير من القضايا التي يتردّد فيها وذلك عند زوال

---

١ ــ سورة مريم : آية ٣١ .
٢ ــ تحف العقول : ٢٧١ .



الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق ( من الممكن طبعاً الجمع بين هذين المعنيين ) .

والتعبير بـــ ( يأتيك ) أيضاً إشارة لطيفة إلى هذا الموضوع وهو أنّ الموت يقبل على الإنسان شاء أم أبى !

* * *

في الآية السابعة يلاحظ هذا المضمون نفسه مع إضافات اُخرى ، وفيها إشارة إلى طائفة من أهل الكتاب الذين إنحرفوا عن التوحيد وجعلوا لله أنداداً في العبودية حيث تقول : ( ومَا اُمِرُوا إلاّ ليَعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ حُنفاء )(١).

والملاحظ أنّ الآية تحصر الأوامر الإلهية كلّها في العبادة المخلصة ثمّ في إقامة الصلاة وأدائها ( ويُقيمُوا الصّلاةَ ويُؤتوا الزكاة ) وهذا يدلّ على أنّ الأصل في التعاليم الدينية يرجع إلى الإخلاص في العبودية ، والملاحظ أيضاً أنّ الآية تضيف في ذيلها : ( وذلِكَ دِينُ القيّمة )(٢).

* * *

الآية الثامنة تنقل نكتة وردت في قول السيّد المسيح ( (عليه السلام) ) حيث قال :

( وإنّ اللهَ رَبّي ورَبُّكم فاعبُدُوه هذا صِراطٌ مُستقيمٌ ) .

ونعلم أنّ الخطّ المستقيم بين نقطتين واحد لا أكثر ، في حين توجد آلاف

---

١ ــ يقول الراغب في المفردات : ( حنف ) على وزن ( كنف ) تعني الميل من الضلال إلى الصراط المستقيم وإنّما يقال للإسلام ( الدين الحنيف ) لأنّه يمنع المسلمين عن أي إنحراف عن الصراط السوي .
٢ ــ قيّمة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب في المفردات : إنّ معناها هي الاُمّة التي تقوم بالقسط والعدل كما جاء في الآية .. ( كونوا قوّامين بالقسط ) .



الخطوط المنحرفة بينهما ، فخطّ التوحيد واحد لا غير وكلّ ما سواه فهو شرك وعبادة أصنام .

( مستقيم ) من ( الإستقامة ) ومشتقّة في الأصل من ( القيام ) ، وبما أنّ الإنسان يقف مستوياً في قيامه فإنّ هذه الكلمة إستعملت بمعنى كلّ طريق ومنهج معتدل ومستو وخال من الإنحراف .

والملاحظ أنّ القرآن وفي سورة الحمد قد جعل النقطة المقابلة للصراط المستقيم هو طريق المغضوب عليهم و ( الضالّين ) ، والطائفة الاُولى هم الضالّون من أهل العناد واللجاجة والذين يصرّون على مسيرتهم ومسيرة غيرهم المنحرفة ، والطائفة الثانية هم الضالّون البسطاء .

إن عجزتم عن عبادة الله فهاجروا

نواجه في الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوجّه الأمر إلى المؤمنين ، وذلك عندما يكون البقاء في مكان حتّى أوطانهم الخاصّة مانعاً من عبادة الله ومزعزعاً لتوحيد عبادته فعليهم أن يهجروا ذلك المكان تقول الآية : ( ياعِبادِيَ الذينَ آمَنُوا اِنّ اَرضِي واسِعةٌ فايّايَ فاعبُدُونِ ) .

أجل ، أنّ أرض الله واسعة ولا يمكن أبداً الإذعان لذلّ الشرك وأسر الكفر وعبادة الأصنام من أجل اُمور من قبيل القوم والقبيلة والبيت والوطن الحبيب ، بل إنّ واجب كلّ مؤمن موحّد هو أن يهجَر وطنه في مثل هذه الظروف ويحلّ في وطن مناسب ويُبقي شمعة التوحيد مشتعلة ، وقد يُوفَّق ــ كالمهاجرين في العهد الأوّل للإسلام ــ لإعداد القوّة اللازمة ويرجع إلى وطنه ويزيل آثار الشرك وعبادة الأصنام عن وجهه .

والتعبير بـــ ( ياعبادي ) ، و ( أرضي ) ، و ( إيّاي فاعبدون ) فالآية مقرون بالرحمة واللطف الإلهي وإشارة إلى نصره المستمر للموحّدين أينما كانوا وفي



كلّ زمان(١).

والملاحظ أنّ المخاطب في الآية هم ( العباد ) ، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة الله الواحد ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ اعباد ينبغي أن يواصلوا مسيرة التوحيد إلى آخر العمر ولا ينحرفوا لحظة واحدة ، وهذا نظير تكرير الجملة : ( اِهدِنا الصِّراطَ المُستَقيمَ ) لدى المؤمنين ، حيث يطلبون فيها إستمرار هذه النعمة إلى جانب الهداية . على أي حال ، فإنّ الآية دليل على وجوب الهجرة من أرض الشرك وعبادة الأصنام إلى دار الإيمان ، إلاّ أن يُوفَّق الإنسان لتغيير الأوضاع السائدة على تلك الأرض .

آية البحث هي من آيات سورة العنكبوت التي يقول عنها المفسّرون : إنّ الآيات الإحدى عشرة الاُولى منها نزلت في المدينة بصدد الذين كانوا في مكّة وأظهروا الإسلام ولكنّهم لم يعزموا على الهجرة إلى المدينة ، والآية التي بعدها تقول :

( كُل نَفس ذائقَةُ المَوْتِ ) وفيها إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ الجميع سيموتون وينفصلون عن الوطن والزوج والمال ، فلا تظنّوا أنّكم إن بقيتم في أجواء ملوّثة بالشرك فإنّكم سوف تبقون إلى جنب أحبّائكم أبداً(٢).

* * *

تستند الآية العاشرة إلى نقطة جديدة اُخرى في هذا المجال ، وتؤمّل المؤمنين جميعاً بأنّهم سيكونون مالكين وحكّاماً للأرض كلّها ، كما أنّ التوحيد سيضيء العالم بأسره ولا يعبدون إلاّ الله ، وعلى هذا فإنّها تبشّر بتوحيد العبادة

١ ــ لاحظوا أن ( إيّاي فاعبدون ) بسبب تقدّم المفعول على الفعل تدلّ على الحصر وتبيّن إنحصار العبادة في الله .
٢ ــ ( روح البيان ) و ( روح المعاني ) وتفسير ( القرطبي ) في ذيل آية البحث .



الخالصة كبشارة كبرى لكلّ المؤمنين وتقول : ( وَعدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنكُم وعَمِلُوا الصالِحاتِ لَيستَخلفَنَّهمْ فِي الأرضِ كما استْخلَفَ الّذينَ مِنْ قَبلِهِم ) . وهناك بحث بين المفسّرين في تحديد ماهيّة هذه الطائفة التي ورثت الأرض وعاشت في عصور قديمة ، والمناسب أن يقال : انّها إشارة إلى بني إسرائيل الذين أصبحوا ملوكاً وحكّاماً على المساحة الأكبر في الأرض بعد نهضة موسى ( (عليه السلام) ) وإنهيار حكومة الفراعنة ، وكما يقول القرآن الكريم في سورة الأعراف الآية ١٣٧ : ( واَورَثنا القومَ الذينَ كانوا يُستضعفُونَ مشارقَ الارضِ ومَغارِبَها التي بارَكنا فيها )(١).

* * *

وتتضمَّنُ الآية الحادية عشرة إشارة إلى نقطة جديدة في هذا المجال حيث تؤكّد أنّ الأنبياء العظام والملائكة المقرّبين لا يستحقّون العبادة فضلا عن الأصنام ، فالعبادة مختصّة بالله عزّوجلّ وتقول : ( ولا يَأمُرَكُمْ اَنْ تَتخِذُوا المَلائكَةَ والنَّبيينَ اَرباباً )(٢).

ولمزيد من التأكيد تضيف الآية : ( أيأمُركُم بالكُفر بَعدَ اِذْ أنتُم مُسلِمونَ ) .

( أرباب ) جمع ( ربّ ) ويعني في الأصل المالك المصلح ، أي المالك الذي يسعى في تدبير ملكه وتربيته وإصلاحه ، ولذا فإنّ ( ربّ الدار ) و ( ربّ الإبل ) جاء بمعنى المالك والمدبّر للبيت أو الإبل ، وندر في القرآن الكريم إستعمال ( ربّ ) في غير الله ، منها الآية ٤٢ و ٥٠ من سورة يوسف حيث إستعملت كلمة ( ربّ ) في صدد ملك مصر ، ويستفاد من عبارات هذه السورة

١ ــ هناك بحث مفصّل آخر في هذا المجال قد ورد في تفسير نمونه : ٥٢٧/١٤ تحت عنوان الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكّة والإنتصارات الواسعة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)والنموذج الأتمّ والكامل سيتحقّق عند قيام الإمام المهدي ( عج ) .
٢ ــ لاحظ أن ( يأمر ) منصوب لأنّه معطوف على ( ان يؤتيه الله ) .

بأنّ هذه الكلمة كانت كثيرة الإستعمال في الشخصيات المصرية الكبيرة .

وفي المقابل استعملت هذه الكلمة التي وردت مئات المرّات في القرآن الكريم ــ في كلّ المواطن تقريباً ــ في صدد الله عزّوجلّ ، لأنّه هو المالك الأصلي ــ في الواقع ــ والمدبّر والمربّي لموجودات الكون كلّه . المهمّ أنّ الكثير من الأقوام كانوا يعتقدون بآلهة صغيرة ويطلقون عليها ( ربّ ) أو ( ربّ النوع ) ويطلقون على الله ( ربّ الأرباب ) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الأقوام اتّجاه الملائكة أو بعض الأنبياء ، وآية البحث تنفي بصراحة هذه العقائد الباطلة وتعرّف الله وحده ربّاً وليس ربّ الأرباب ، لأنّها تعتبر إنتخاب أي ربّ سواه كفراً والإسلام في نقطة مقابلة له .

* * *

آية البحث الثانية عشرة والأخيرة تشير إلى الكلام الأخير في هذا البحث وهو أنّ التوحيد في العبادة لا يختصّ بالبشر بل : ( ولِلّه يَسجُدُ مَنْ فِي السَّمواتِ والارضِ طَوعاً وكرْهاً وَظلالُهُم بالغُدُو والآصالِ ) .

( مَنْ ) وان كانت إشارة إلى العقلاء عادةً ولذا يعتقد جمع من المفسّرين بأنّ آية البحث تقصد بني الإنسان والملائكة وأمثالهم ، إلاّ أنّ في الآية قرائن تدلّ على انّ هذه الكلمة تشير إلى الموجودات كلّها وتعمّ العاقل والحيوان والنبات والجماد ، والمراد من السجدة ما يعمّ السجدة التكوينية ( غاية الخضوع والتسليم في الموجودات تجاه قانون الخلق ) والسجدة التشريعية ( السجود والعبادة الإعتيادية ) لأنّ :

أوّلا : التعبير بـــ ( طوعاً وكرهاً ) دليل على عمومية الآية .

ثانياً : إشتراك ( ظلال ) في هذه السجدة والعبادة العامّة دليل آخر على هذا المعنى .



ثالثاً : ورد هذا المعنى بجلاء في آيات قرآنية اُخرى : ( وَلِلّهِ يَسجُدُ ما فِي السّمواتِ وما فِي الارضِ )(١)، وهكذا في : ( والنّجمُ والشّجَرُ يَسجُدان )(٢).

وعلى هذا فإنّ موجودات الكون كلّها وبدون إستثناء لها سجود تكويني وتسليم للأوامر الإلهية ، ومن بينها المؤمنون حيث لهم ــ مضافاً إلى السجود التكويني الذي لا يتّصف بالإختيار ــ سجود إختياري تشريعي أيضاً .

وتعميم هذا الحكم إلى ( ظلال ) تعبير كبير المعنى ، لأنّ الظلال تتّصف بالعدم في الواقع ( لأنّ الظلّ هو المكان الذي لا يسقط الضوء عليه ) ولكن بما أنّ الظلال تابعة للأجسام في وجود النور فإنّ لها قسطاً ضعيفاً من الوجود ، ويقول القرآن : إنّ هذه الأعدام الشبيهة بالوجود تسجد لله أيضاً فكيف بالموجودات الحقيقية ؟ وهذا يشابه العبارة التي نقولها وهي انّ عداوته لفلان بلغت إلى حدّ أنّه يرمي ظلّه بالسهم .

ثمّ انّ الظلال تسقط عادة على الأرض والتعبير بالسجود أليق بها .

وما تقوله الآية : ( بالغُدُوِّ والآصالِ ) فانّه من الممكن أن يكون وصفاً خاصّاً للظلال ، وإختيار هذين الزمنين هو لأنّ كلّ شيء في هذين الوقتين يكون ذا ظلّ ، ظلّ طويل وممتدّ على العكس من منتصف النهار إذ يكون له ظلّ أو له ظلّ قصير .

ويحتمل أيضاً أن يكون هذان الوصفان لكلّ الموجودات في السماء والأرض والمراد هو الإشارة إلى إستمرار هذا السجود ، كما نقول في عباراتنا اليومية يجب أن نلقي فلاناً صباحاً ومساءً أي دائماً وباستمرار(٣).

* * *

---

١ ــ سورة النحل : آية ٤٩ .

٢ ــ سورة الرحمن : آية ٦ .

٣ ــ على الصورة الأُولى يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل أو الوصف المقدّر ( وفيه إمتياز أنّه يعود للأقرب ) وفي الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل يسجد وفيه إمتياز انّه مذكور .



أخيراً وبمراجعة عامّة نصل إلى أنّ مسألة ( التوحيد في العبادة ) لها من الأهمّية ما جعلها في صدارة دعوة الأنبياء والرسل ( (عليهم السلام) ) ومن أهمّ الفقرات في تعليماتهم وقد أقام جميع الأنبياء أُولي العزم دعوتهم عليها ، وكان رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) يدعو طيلة عمره الشريف إليه بعبارات مختلفة ، وصراط الهداية المستقيم يمرّ عبر هذا الطريق ،

ولتحقيق هذا لامنهج الإسلامي المهمّ ينبغي ــ عند الحاجة ــ ترك الأوطان وهجر أجواء الشرك وعبادة الأصنام .

ومن الخصائص المهمّة لذلك اليوم الذي تهيمن فيه حكومة العدل الإلهي على العالم بأسره هو قضيّة التوحيد في العبادة هذه والتي تسود العالم كلّه ، وليس البشر فقط بل وكلّ موجودات في الأرض والسماء تسجد لله وفي كلّ الأحوال ، وإذا لم تسجد باللسان وبإختارها فانّها تسجد من حيث تكوينها وبلسان حالها وتسبّح له .

إيضاحات

١ ــ شجرة توحيد العبادة المثمرة

لابدّ من ملاحظة هذه النقطة قبل كلّ شيء وهي : أنّ الإحترام والتواضع والخضوع والثناء صفاتٌ لها مراتب ودرجات آخرها وذروتها العبادة والعبودية .

ومن البديهي أن يستسلم الإنسان لأوامر من يحترمه إلى هذه الدرجة ويخضع له بكلّ وجوده خضوعاً تامّاً ويهوي إلى الأرض ويسجد له .

هل من الممكن أن ينفصل الخضوع الذي يصل حدّ العبودية والثناء والإحترام اللامحدود عن الإطاعة والتسليم للأمر ؟

من هنا نقول : إنّ الإنسان إذا استوعب روح العبادة الخالصة فإنّه يكون قد خطا خطوة كبيرة في طريق الإطاعة لأمر الله والعمل بالصالحات والإبتعاد عن السيّئات ، ومثل هذه العبادة ــ خاصّة إذا كانت دائمة ومستمرّة ــ تكون رمزاً لتربية



الإنسان وتكامله .

مثل هذه العبادة الخالصة الممتزجة مع عشق المحبوب ، الذي يشكّل عاملا مهمّاً للحركة إليه ، وكما أنّ التحرّك نحو ذلك الكمال المطلق عامل على ترك القبائح والدنيّات والتلوّث بالمعاصي .

ولهذا حازت مسألة العبادة الخالصة على هذه الدرجة من الأهمّية إلى الحدّ الذي يقول القرآن فيها : ( انَّ الذينَ يَستَكبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيدخُلُون جَهَنَّمَ داخِرينَ )(١).

إنَّ العابد بدافع من خضوعه اللامحدود بين يدي الله يسعى إلى نَيْلِ رضاه والتقرّب إليه ولأنّه يعلم أنّ تحصيل رضاه يتمّ عن طريق إطاعة أمره فإنّه يسعى في هذا الطريق ويتقبّل أوامره بطيب نفس تامّ .

العابد الحقيقي يسعى للتشبّه والتمثّل بمعبوده ومعشوقه الحقيقي ويعكس في هذا الطريق قبساً من صفات جاله وجلاله منه في نفسه ، لا ينكر ما لهذه الاُمور من تأثيرات على تكامل الإنسان وتربيته .

٢ ــ روح العبادة والإحتراز من الإفراط والتفريط

هناك إفراط وتفريط عجيبان في معنى العبادة كما هو الحال في الكثير من القضايا الاُخرى حتّى أنّ بعضاً أفرط إلى حدّ جوّز فيه السجود لغير الله ( إن لم يكن مقروناً بالإعتقاد بمالكية وربوبية المسجود له ) ، وذكر سجود الملائكة لآدم وسجود اُخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك .

وفي المقابل إعتبر بعض آخر أنَّ كلّ توجّه وتوسّل بالنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) والأئمّة ( (عليهم السلام) ) وطلب الشفاعة والخضوع أمامهم شركاً ، واعتقدوا بأنّ فاعله مشرك .

ولكن الحقيقة هي أنّه لا يمكن الإنسجام مع أي من هاتين العقيدتين .

---

١ ــ سورة المؤمن : آية ٦٠ .



وللإيضاح نقول : إنّ حقيقة العبادة كما نقلنا في بداية البحث في شرح المفردات عن اللغويين هي الخضوع المطلق وغاية التواضع والتذلّل أمام المعبود ، وهذا العمل مختصّ بالله من وجهة نظر إسلامية ويكون شركاً في العبادة ان كان موجّهاً إلى معبود آخر .

وبعبارة اُخرى إنّ للخضوع والتواضع درجات ، درجة منها تحدث أمام الأصدقاء ويقابلها التكبّر عليهم ، ودرجة اُخرى تكون أمام أفراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن : ( واخْفِض لَهُما جَناحَ الذُلّ مِنَ الرَّحَمةِ )(١).

والدرجة الأكمل تكون أمام الأنبياء والأئمّة المعصومين ( (عليهم السلام) ) حتّى أنّ المسلمين لم يحقّ لهم رفع أصواتهم فوق صوت النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) بدليل قوله تعالى : ( يأيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَرفَعُوا اصواتَكُمْ فَوقَ صَوتِ النّبيِّ ولا تَجهَرُوا لَهُ بالقَولِ كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعض )(٢).

ولكن آخر مرحلة من الخضوع والتواضع والتذلّل التي نطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو ( السجود ) .

وعليه فإنّ الخضوع المطلق وغاية التذلّل ( وإن لم يقترن الإعتقاد بالربوبية والمملوكية ) يكون عبادة ومختّصاً بالله ولهذا لا يجوز السجود لغيره .

ولصاحب تفسير ( المنار ) في تفسير سورة الحمد كلام في معنى العبادة ملخّصه : أنَّ العبارة ضربٌ من الخضوع بالغٌ حدَّ النهاية ، ناشىء عن إستشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها ، وإعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيّتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنّها محيطة به ولكنّها فوق إدراكه ، فمن ينتهي إلى أقصى الذلّ لملك من الملوك لا يقال أنّه عبده وإن قبّل موطىء أقدامه ، ما دام سبب الذلّ والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه العهود ، أو رجاء كرمه المحدود ، اللهمّ إلاّ بالنسبة إلى الذين يعتقدون أنّ لاملك قوّة غيبية سماوية

---

١ ــ سورة الإسراء : آية ٢٤ .
٢ ــ سورة الحجرات : آية ٢ .



أُفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، وإختارتهم للإستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنّهم أطيب الناس عنصراً وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الإعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتّخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية(١).

وللمفسّر الكبير العلاّمة الطباطبائي ( (رضي الله عنه) ) كلام قريب منه في تفسير سورة الحمد في تفسير ( الميزان ) حيث يقول :

« الربّ مقصور في المالكية والعبد مقصور في العبودية » .

قد عرفت من سورة الفاتحة أنّ العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولوية المولى ، أو عبودية

العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد والمشي خلفه حينما يمشي وغير ذلك ، وكلّما زادت الصلاحية إزدادت العبادة تعيّناً للعبودية وأوضح الأفعال في الدلالة على عزّ المولوية وذلّ العبودية السجدة ... لكن الذوق الديني المتّخذ من الإستيناس بظواهره يقضي بإختصاص هذا الفعل به تعالى ، والمنع عن إستعماله في غير هذا المورد(٢).

وبناءً على ذلك يستفاد من التدبّر في موارد إستعمال كلمة العبادة في القرآن والسنّة والإستعمالات اليومية وشهادة اللغويين أنّ المفهوم اللغوي لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الإعتقاد بربوبية المعبود ومالكيته ، ولذا إذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب بركاتها ، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس والقمر والنار ، وهكذا إذا سجد إنسان لتماثيل الأسلاف أوالملوك والسلاطين وأعلى منه إذا للأئمّة ( (عليهم السلام) ) لمقامهم الرفيع فإنّ تلك العبادة غير جائزة .

ولهذا يني القرآن الكريم بصراحة في آية السجدة بقوله تعالى : ( لا

---

١ ــ تفسير المنار : ٥٦/١ و٥٧ .
٢ ــ تفسير الميزان : ٢٢/١ و١٢٤ .



تسجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ )(١).

ولهذا أيضاً تكرّر النهي في الروايات الإسلامية عن السجود لغير الله ومنها:

الروايات السبع التي وردت في ( وسائل الشيعة ) في أبواب السجود ( الباب ٢٧ ) حيث نقرأ في إحدى الروايات أنّ النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) خاطب مشركي العرب : « اخبروني عنكم إذا عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له أو صلّيتم ووضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها فما الذي بَقَّيْتُم لربّ العالمين ؟ أما علمتم انّ من حقّ من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوي عبيده ؟»(٢).

وفي روايات عديدة تتضمّن الإجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وأبنائه بين يدي يوسف ، أو كيفية جواز سجود الملائكة لآدم .

١ ــ عن أبي الحسن الرضا ( (عليه السلام) ) : أمّا سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف إنّما كان ذلك منهم طاعةً لله وتحيّةً ليوسف ، كما كان السجود من الملائكة لآدم ، ولم يكن لآدم إنّما كان ذلك منهم طاعةً لله وتحيّةً لآدم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لإجتماع شملهم ألا ترى إنّه يقول في شكره في ذلك الوقت :

( ربِّ قد آتَيتني من المُلك ) الآية .

٢ ــ عن الإمام العسكري ( (عليه السلام) ) قال : « لم يكن له سجودهم ــ يعني الملائكة لآدم إنّما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عزّوجلّ ، وكان بذلك معظّماً مبجّلا له ، ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له كخضوعه لله ويعظّمه بالسجود له كتعظيمه لله ، ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلّفين من متّبعينا أن يسجدوا لمن توسّط في علوم علي ((عليه السلام)) وحي رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ومحض وداد خير خلق الله علي ((عليه السلام)) بعد محمّد رسول الله ((صلى الله عليه وآله وسلم)) ... » الحديث .

---

١ ــ سورة فصّلت : آية ٣٧ .

٢ ــ وسائل الشيعة : ج٦ ص٣٨٦ الحديث ٣.



والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهي نفي السجود لغير الله ، وقد نقل العلاّمة المجلسي في ( بحار الأنوار ) روايات عديدة في هذا الباب(١).

وقد ورد في القصّة المعروفة حول هجرة المسلمين إلى الحبشة ، إنّهم حينما دخلوا على النجاشي أمرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للملك ، فقال لهم جعفر بن أبي طالب : لا نسجدُ إلاّ لله(٢).

إنَّ هذه الروايات تؤكّد عدم جواز السجود لغير الله وتفسّر حقيقة العبادة .

* * *

٣ ــ توحيد الوهّابيين المشوب بالشرك

( الوهّابيون ) جماعة لا تزال تحكم الحجاز وهم أتباع ( محمّد بن عبدالوهّاب ) الذي إستمدّ أفكاره من ( ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحميد الدمشقي ) المتوفّى عام ٧٢٨هـ .

إستطاع محمّد بن عبدالوهاب خلال السنوات ما بين عام ( ١١٦٠ إلى ١٢٠٦هـ التي مات فيها وبتعاون مع الحكّام المحلّيين وإثارة نيران العصبية القاسية بين القبائل التي تجوب صحاري الجزيرة أن يدمّر معارضيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أُريقت دماء كثير من المسلمين في الجزيرة وغيرها .

وبعد موته هاجم أتباعه العراق عن طرق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء وإستغلّوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من أهاليها إلى النجف فاقتحموا سور المدينة ونفذوا إلى داخلها وشرعوا بهدم صحن الإمام الحسين ( (عليه السلام) ) والأمكان المقدّسة الأُخرى ونهبوا الأبواب الثمينة والهدايا النفيسة من المرقد الحسيني

---

١ ــ بحار الأنوار : ١٣٨/١١ و١٣٩ الأحاديث ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ .
٢ ــ بحار الأنوار : ٤٢٠/١٨ ، الحديث ٨ ( نقلا عن خرائج الراوندي ) .



وأموال الناس !

لقد قام أُولئك بهدم قبور عظماء الإسلام في الحجاز عام ١٣٤٤هـ بحيث إستوت مع الأرض باستثناء قبر النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) خوفاً من سخط المسلمين !

ويمتاز الوهّابيون بالتعصّب والقسوة والفظاظة وعدم الرحمة والتحجّر والسطحيّة ويعتقدون بأنّهم المدافعون عن التوحيد الخالص في هذا المجال ، وينكرون الشفاعة وزيارة القبور والتوسّل بالقادة العظام ويصبّون جلّ إهتماماتهم تقريباً في هذا السبيل ، وقد رفض المسلمون قاطبة ( سنّة وشيعة ) أفكار هذه المجموعة بل وكفّرهم بعض العلماء(١).

وبحثنا لا يحتمل الحديث عن هذه المجموعة وعقائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث التوحيد في العبادة .

إنّهم يقولون : لا يحقّ لأحد أن يطلب الشفاعة من النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) لأنّ الله تعالى يقول : ( لا تدُعوا مَع اللهِ اَحَداً ) .

ويقول مؤلّف كتاب ( الهدية السنّية ) وهو من الوهّابيين : من جعل الملائكة والأنبياء وسائط بينه وبين الله لما لهم من قرب إلهي فهو كافر ومشرك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلّى وصام!(٢).

وله منطق مشابه في التوسّل وزيارة قبور الأنبياء والأئمّة والصالحين .

إنَّ الخطأ الكبير الذي يرتكبه الوهّابيون القشريون هو أنّهم تصوّروا أنّ موجودات هذا العالم لها تأثير مستقل ولذا اعتقدوا انّها تزاحم توحيد الأفعال والتوحيد العبادي لله في حين أنّ هذا المعتقد هو نوع من الشرك !

وللإيضاح نقول : الموحّد الكامل يرى أنّ الوجود المستقلّ القائم بذاته

---

١ ــ كتب أحد العلماء السنّة وهو ( إحسان عبداللطيف البكري ) رسالة بإسم ( الوهّابية في نظر علماء المسلمين ) أوضح فيها آراء علماء الإسلام العظام حول الوهّابية ومحمّد بن عبدالوهّاب ودوّن الوثائق كلّها بدقّة في آخر الكتاب وقائمة بعناوين الكتب التي تردّهم حيث تبلغ ( ٥٠ ) كتاباً لمحقّقي البلدان الإسلامية المختلفة ، وهذا الكتاب دليل واضح على تنفّر المسلمين عموماً من هذه المجموعة المنحرفة .
٢ ــ الهدية السنّية : ٦٦ .



في الكون واحد فقط وهو الله عزّوجلّ ، وسائر عالم الوجود ممكن ومرتبط بوجوده ، فكلّه إنعكاس لشمس وجوده وليس له إستقلالية من نفسه فكما كان محتاجاً في حدوثه فإنّه محتاج إليه ومتعلّق به في بقائه أيضاً ، فكلّ ما يملكه الموجود فإنّه منه ، وتأثير الأسباب منه فهو مسبّب الأسباب ، وهذا هو معنى جملة ( لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله ) ، لا أن نسقط الأسباب من سببيتها أو نعتقد أنّها مستقلّة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد .

بناءً على ذلك إذا كان النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) مالكاً للشفاعة فإنّ ذلك بإذنه كما يقول القرآن ( ما مِن شَفيع إلاّ من بَعدِ إذْنِه )(١).

وعندما يحيي السيّد المسيح ( (عليه السلام) ) الموتى ويُبرىء الأعمى والمبتلين بالأمراض المستعصية فإنّ ذلك بإذن الله أيضاً ( وأُبرِئُ الاكمَهَ والابرَصَ وأُحيي المَوتى بإذنِ اللهِ )(٢).

وعندما يستطيع ( آصف بن برخيا ) وهو وزير سليمان ومَن وصفه القرآن بـــ (الذي عنده علم من الكتاب) أن يأتي بعرش بلقيس في طرفة عين ــ كما يصرّح به القرآن ــ من بلاد سبأ إلى سليمان في الشام فإنّه كما قال : ( مِن فَضل رَبّي )(٣).

ولكن الوهّابيين الغرباء عن القرآن وقعوا في خلط كبير وتصوّروا أنّ هذه الأعمال التي تصدر عن هؤلاء العظماء تصدر منهم بالإستقلال ، ولذا قاموا من أجل حلّ المشكل بإنكار بعض الضرورات في الدين مثل مسألة الشفاعة .

وعليه فإنّ هؤلاء ومن أجل تثبيت قواعد التوحيد كما يزعمون سقطوا في وادي الشرك ووادي إنكار ضرورات الدين والقرآن ، وللشهيد المطهّري ( (رضي الله عنه) ) كلام جميل في هذا المجال ننقل خلاصته حيث قال تحت عنوان ( حدود التوحيد والشرك ) :

---

١ ــ سورة يونس : الآية ٣ .
٢ ــ سورة آل عمران : الآية ٤٩ .
٣ ــ سورة النمل : الآية ٤٠ .



١ــ الإعتقاد بموجودغيرالله سبحانه ليس شركاً ذاتياًكما يعتقد إنصارالوحدة النوعية للوجود ، لأنّ هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنّها نظيرة له.

٢ ــ لا يعتبر الإعتقاد بتأثير المخلوقات شركاً في الخالقية ( كما يعتقد الأشاعرة والجبريون ) لأنّ المخلوقات كما أنّها ليست مستقلّة ذاتياً فإنّها غير مستقلّة في تأثيراتها أيضاً ، بل أنّها تابعة له .

٣ ــ لو إعتقدنا بالتأثّر المستقلّ للمخلوقات وقلنا أنّ عالم الخلق أمام الله كالماكنة والساعة التي يصنعها الصانع فهي بحاجة إليه في حدوثها ولا تحتاجه بعد صناعتها لأنّها تعمل حتّى لو إرتحل صانعها من الدنيا ، فهذا هو الإعتقاد بالتفويض وهو لون من الشرك ( إعتقاد المعتزلة ) .

٤ ــ الإعتقاد بقدرة الموجودات التي تفوق الطبيعة وتأثيراتها في العالم بإذن الله وأمره ليس شركاً كما يظنّ الوهّابيون ، بل إنّ إعتقادهم يمثّل أسوء ألوان الشرك، لأنّنا لوإعتبرنا ذلك شركاً لكان الإعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً أيضاً.

وهكذا فإنّ الإعتقاد بقدرة الإنسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعدّ شركاً ، لأنّ الإنسان لا يكون جماداً بعد موته .

ثمّ إنّ إعتقاد الوهّابيين يتّسم باللاإنسانية حيث ينزلون الإنسان منزلة الحيوان الطبيعي وهو الذي إعتبره الله خليفة له وأعلى منزلة من الملائكة الذين سجدوا له .

وهنا نصل إلى حقيقة الحديث الشهير الوارد عن رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ويقول فيه ما نصّه : « انّ الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء ، في ليلة ظلماء »(١).

والطريف أنّ الردّ على الوهّابيين موجود في الآية التي يستدلّون بها على إنكار الشفاعة و ( التوسّل ) ، لأنّ القرآن الكريم يقول : ( فلا تَدعُوا مَع اللهِ

---

١ ــ مقدّمة في الرؤية الكونية للشهيد المطهّري : ١١٣ ( مع الإختصار ) .



اَحَداً )(١). ويعني المثيل الذي يكون في عرضه وعلى هيئة الموجود المستقلّ كذاته المقدّسة ، ولكن إذا كان تأثيره بإذنه وأمره لا في عرضه فإنّ ذلك ليس شركاً فحسب بل فيه تأكيد جديد على أصل التوحيد الذي ينتهي كلّ شيء إليه . وهذا يشابه ما طلبه اُخوة يوسف من أبيهم يعقوب وكان نبيّاً عظيماً وقد تقبّل ذلك منهم حيث قالوا : ( ياأبانا استغفر لنا )(٢) فاستجاب لهم وقال : ( سوف استغفر لكم ربّي )(٣).

هذه هي حقيقة التوحيد في العبادة ، وتوحيد الأفعال التي ستتمّ الإشارة إليها وليس كما يظنّه الوهّابيون المتحجّرون .

* * *

---

١ ــ سورة الجنّ : الآية ١٨ .

٢ ــ سورة يوسف : الآية ٩٧ .

٣ ــ سورة يوسف : الآية ٩٨ .

[٢٨١]

## ٤ ــ توحيد الأفعال

### أ ــ توحيد الخالقية

[٢٨٢]

[٢٨٣]

**تمهيد :**

إنَّ مفهوم ( توحيد الأفعال ) في تفسيره المبسّط والواضح يعني أنّ الكون بأسره هو فعل الله ، وكلّ الأفعال ، والحركات ، والتأثيرات ، والتأثّرات تنتهي إلى ذاته المقدّسة ، وفي الحقيقة ( لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله ) ، فالسيف حينما يقطع والنار حينما تحرق والماء حينما يروي النباتات كلّها بإرادته وأمره ، وباختصار فإنّ أثر كلّ موجود يكون من جهة الله سبحانه .

وبعبارة اُخرى : إنّ الموجودات كما أنّها تابعة في أصل وجودها إلى ذاته فإنّها كذلك في تأثيرها وفعلها .

ولكن هذا المعنى لا ينفي عالم الأسباب وحاكمية قانون العلّية ، وطبقاً للحديث المعروف عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) « أبى الله اَن يُجري الأشياءَ إلاّ بأسباب »(١).

كما أنّ الإعتقاد بتوحيد الأفعال لا يستوجب الإعتقاد بأصل الجبر وسلب الحريّة من إرادة الإنسان ، كما ستتمّ الإشارة إلى ذلك لاحقاً بإذن الله .

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الأفعال ونذهب أوّلا إلى توحيد الخالقية فنستمع خاشعين إلى الآيات الآتية :

١ ــ ( ذلكُم اللهُ ربُّكم لا إله إلاّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيء فاعبُدوهُ وهُوَ عَلى كُلِّ شَيء وَكيلٌ ) سورة الأنعام ــ ١٠٢ .

٢ ــ ( قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيء وَهُوَ الواحِدُ القَهارُ ) سورة الرعد ــ ١٦ .

٣ ــ ( هَلْ مِنْ خالِق غَير اللهِ يَرزُقكُم مِنَ السَّماءِ والأرضِ لا اِله إلاّ هُوَ فَاَنَّى تُؤفَكُونَ ) سورة فاطر ــ ٣ .

---

١ ــ اُصول الكافي : باب معرفة الإمام الحديث ٧ ص١٨٣ .



٤ ــ ( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرضَ وسَخَّر الشَمسَ والقَمر لَيقُولنَّ الله فاَنّى يُؤفَكونَ ) سورة العنكبوت ــ ٦١ .

٥ ــ ( وَاللهُ خَلَقكُم وَما تَعْمَلُونَ ) سورة الصافات ــ ٩٦ .

٦ ــ ( ألا لَهُ الخَلقُ والأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمين ) سورة الأعراف ــ ٥٤ .

شرح المفردات :

( خلق ) في الأصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التقدير المباشر ويستعمل عادةً في الإيجاد والإبداع لشيء من دون أن يكون له سابق ومثيل ، وعلى ما ورد في ( مقاييس اللغة ) فانّ ( خلق ) لها معنيان أصليان : الأوّل هو التقدير ، والثاني هو استواء الشيء ، ولذا يطلق على الحجر المستوي ( خَلقاء ) وعلى الصفات الباطنة ( أخلاق ) لأنّه يحكي عن نوع من الخلق ، وعلى كلّ حال بما أنّ الخلق يعني التقدير والتنظيم والتسوية فإنّ هذه الكلمة إستعملت في خلق الله الإبداعي .

جمع الآيات وتفسيرها :

خو الخالق لكلّ شيء

تقول آية البحث الأُولى بعد تبيان صفات الله الجلالية والجمالية :

( ذلِكم الله ربُكُم ) ، لا الأصنام التافهة ولا المعبودات من الملائكة والجنّ التي هي من المخلوقات والمربوبات ، والله عزّوجلّ هو ربّ الجميع(١).

وتضيف : ( لا اِلهَ إلاّ هُوَ ) .

لأنّ اللائق للعبادة هو الذي يكون ( ربّاً ) أي مالكاً ومربّياً ومدبّراً لكلّ شيء . وللمزيد من التأكيد وإقامة دليل آخر على إنحصار المعبود فيه تضيف

---

١ ــ جملة ( ذلكم ربّكم ) فيها ذلكم وهو إسم إشارة إلى البعيد وفي مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة غير الإعتيادية لمقامه والخارج عن حدود الأفكار .



الآية ( خالِقُ كُلِّ شيء ) ثمّ تستنتج لتقول : ( فاعبدُوه ) .

ولقطع كلّ أمل بغير الله وصدّ البشر عن التعلّق بعالم الأسباب وإجتثاث جذور الشرك تقول الآية : ( وهُو على كُلِّ شيء وكيلٌ ) .

كلمة ( شيء ) كما يقول اللغويون : تعني كلّ أمر يمكن أن يناله علم الإنسان(١). إلاّ أنّها في آية البحث تعني كلّ الموجودات ما سوى الله سبحانه .

وعلى أي حال فإنّ لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الموجودات المادّية والمجرّد والذهنية والخارجية والجوهر والعرض ، وبإختصار : أنّها تشمل كلّ شيء ، وهذه الآية دليل واضح على عمومية الخلق الإلهي بالنسبة لكلّ شيء .

وقد وقع هنا نزاع معروف بسبب شمول ( شيء ) لأعمال الإنسان بين جماعة تقول بالجبر ــ كالفخر الرازي ــ حيث تقول : إنّ أعمالنا داخلة في
كلمة ( شيء ) أيضاً ، فالله إذن هو خالقها ، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم ، ولكن المؤيّدين لحريّة الإرادة لهم إجابة واضحة ومستدلّة وستأتي في الإيضاحات .

وقد إستدلّت جماعة بهذه الآية على نفي الصفات الزائدة على الذات في مواجهة الأشاعرة القائلين بأنّ الله ذو صفات منفصلة عن ذاته ، فلو كان الأمر كذلك فانّ كلمة ( شيء ) تشملها ويجب ــ حينئذ ــ أن تكون مخلوقة لله ، ولا معنى لأن يخلق الله صفاته كالقدرة والعلم و... ولا ينسجم هذا مع وجوب الوجود أساساً .

فأجاب بعض الأشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن نقول : إنّ ( خالق كلّ شيء ) لا يشمل صفات الله ! ولكن الآية تأبى الإستثناء ولم يرد عليها أي تخصيص كما سنبيّن ذلك بإذن الله .

* * *

١ ــ هذه الكلمة مصدر ( شاء ) وتكون تارةً بمعنى اسم الفاعل وتارةً بمعنى اسم المفعول ( فتأمّل جيداً ) .

[٢٨٦]

الآية الثانية تبيّن محتوى الآية السابقة إضافة إلى تأكيدها على وحدانية الله وقهّاريته حيث جاء فيها : ( اَمْ جَعَلوا للهِ شُركاءَ خَلقُوا كَخَلْقِهِ فَتشابَه الخَلقُ عَليهِم قُلْ اللهُ خالقُ كُلِّ شيء وهوَ الواحدُ القهّارُ ) .

( قهّار ) من ( قهر ) ويعني في الأصل الغلبة المقرونة بتحقير الطرف المقابل ولذا، تستعمل في هذين المعنيين كليهما ، ونظراً لإستعمالها هنا بصيغة المبالغة فانّها تعني غلبة الله والنصر المطلق ــ دون قيد أو شرط ــ على كلّ شيء وكلّ فعل حتّى معبوداتهم وأصنامهم غير مستثناة ، وعلى كيف تكون شريكاً لله ؟!

* * *

الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة اُخرى وهي صورة الإستفهام الإستنكاري حيث تقول : ( هَلْ مِن خالق غيرِ اللهِ يَرزقُكُم مِن السماءِ والأرضِ) ، كلاّ، فهو الذي بدأ خلقكم ، وبقاؤكم مستند إلى رزقه المتواصل .

فبأمره تشرقُ الشمسُ عليكم من السماء ، وينزل المطر لأحياء الأرض ويسخّر الرياح ، وهو الذي يتفضّل عليكم بالنباتات والثمار والغذاء والمعادن والثروات الثمينة .

وعليه عندما لا يوجد خالق ورازق سواه فبداية الجميع ونهايتهم إذن بيده: ( لا اِلهَ إلاّ هُو فانّى تُؤفكُون ) .

خالقية الله للكون

لا ينكر حتّى المشركين أنّ الله هو الخالق للكون والآية الرابعة تطرح

[٢٨٧]

مسألة التوحيد في إطار آخر وهو أنّ المشركين أنفسهم يُقرّون أنّ الأصنام ليست خالقة للسماء والأرض والشمس والقمر أبداً وتقول : ( ولَئِن سألتَهم مَن خلقَ السمواتِ والأرضَ وسخّرَ الشّمسَ والقَمرَ ليقُولُن اللهُ ) .

فقد كان المشركون يعتقدون أنّ الأصنام شريكة لله في العبادة أو لها التأثير على مصير الإنسان في الخالقية ، فلا يصدق عاقل بأنّ كتلة من الحجر والخشب مصنوعة بيد الإنسان على هيئة الصنم تكون خالقاً للسماء والأرض وحتّى أنّهم لم يعتقدوا أنّ للأنبياء والأولياء هذا المقام أيضاً .

يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى نفوذ هذه العقيدة في أعماق الفطرة الإنسانية ، وعلى أي حال فانّ الفصل بين ( توحيد الخالقية ) و ( توحيد العبادة ) تناقض صريح ، لأنّ الخالق والرازق هو اللائق بالعبودية فهو الذي سخّر لاشمس والقمر لينعم بهما الإنسان وجعلهما في خدمته .

بناءً على ذلك لا تنفصل ( الخالقية ) عن ( الربوبية ) ولا ( الربوبية ) عن ( الأُلوهية ) ، وبعبارة أوضح : هو الخالق وهو المدبّر للعالم وهو أهل لعبودية العباد .

وقد حاول بعض المفسّرين مثل كاتب ( في ظلال القرآن ) أن يعتبر التفات مشركي العرب إلى ( توحيد الخالقية ) ناشىء من تعليمات الأنبياء كالنبي إبراهيم ( (عليه السلام) )(١).

إلاّ أنّه لا ضرورة لهذا الإصرار ، حيث يقرّ كلّ إنسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان ، كما أُشير إلى هذا المضمون في تفسير روح البيان(٢).

إنّ الإستناد إلى مسألة الخلق ثمّ التسخير إشارة إلى مسألتي ( الخلق ) و ( التبدير ) حيث يكون الجميع بأمره والمراد من ( التسخير ) في هذه الآية ــ

---

١ ــ في ظلال القرآن : ٤٢٨/٦ .
٢ ــ روح البيان : ٤٨٨/٦ .



بقرينة آيات التسخير الأُخرى الواردة في القرآن الكريم ــ هو إستخدامها في سبيل المصالح البشرية .

وعبارة ( فانّى يؤفكون ) مع ملاحظة إشتقاقه من ( افك ) بمعنى ( إرجاع الشيء عن مسيره الأصلي ) يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ المسار الصحيح والمنطقي هو أنّهم بعد الإقرار بخالقية الله وتدبيره في عالم الوجود « أن لا يعبدوا سواه » ، إلاّ أنّهم إنحرفوا عن الطريق فتعرّضوا

إلى العواصف العاتية للشيطان والنفس التي رمت بهم ــ كالقشّة ــ من الطريق المستقيم إلى التيه ــ (لاحظ انّ المؤتفكات تعني الرياح المضادّة ) .

* * *

في الآية الخامسة إستناد خاصّ إلى مخلوقية الأصنام حيث تقول : ( والله خَلَقَكُم وما تَعملُون ) وذلك لما ورد في الآية السابقة لها عن قول إبراهيم ( (عليه السلام) ) ــ رمز التوحيد ــ لجماعة المشركين ( اَتعبدُون ما تنحتُون ) ؟ ويقول في هذه الآية : ( والله خَلَقَكُم وما تَعمَلون ) فلا تستحقّ أي منها العبادة ، بل أنّ أصنامكم موجودات أحطّ منكم لأنّها مصنوعة بأيديكم .

و ( ما ) في جملة ( وما تعملون ) في هذه الحالة تكون موصولة .

وقد إحتمل بعض أو أصرّوا على أنّ إعتبار ( ما ) هنا مصدرية فيكون معنى الآية : إنّ الله خلقكم وخلق أعمالكم ، في حين لا يتناسب هذا المعنى لأنّه:

أوّلا : إنّ الله يوبّخ الكفّار في الآية على عبادتهم للأصنام فلو كان الله خالقاً لأعمالهم فلماذا التوبيخ ؟!

ثانياً: إنّ جملة ( ما تعملون ) دليل على أنّهم خلقوا أعمالهم ، وعليه لا تنسجم مع الخلق الإلهي .

ثالثاً : في الآية السابقة ورد حديث عن الأصنام التي كانوا يصنعونها



بأيديهم فالمناسب أن تكون ( ما ) هي المراد هنا ، وإلاّ فانّ الآيات تفقد ترابطها ، ولذا إختار كثير من المفسّرين التفسير الأوّل أمثال الزمخشري ، في الكشّاف والآلوسي في روح المعاني ، والعلاّمة الطباطبائي في الميزان وغيرهم .

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو : كيف يمكن أن تكون الأصنام مصنوعة لله والبشر في الوقت ذاته ؟!

يقول الزمخشري : إنّ موادها مخلوقة لله وصورتها مخلوقة لصانعي الأصنام(١).

إلاّ أنّ الصورة والشكل مخلوقة لله من إحدى الجهات ، لأنّ الله سبحانه أعطى الإنسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة وان نهاه من سوء الإستفادة منها .

وأخيراً نواجه في الآية السادسة والأخيرة عبارة جديدة في باب توحيد الخالقية حيث تقول : ( اَلا له الخلقُ والأمرُ ) و ( تَبارَكَ اللهُ اَحسنُ الخالقين ) .

ولا شكّ في أنّ الآية دليل على إنحصار ( الخلق ) و ( الأمر ) في الله عزّوجلّ(٢). وعليه فانّ الآية تبيّن ( توحيد الخالقية ) بوضوح .

ولكن وقع بين المفسّرين كلام حول المراد من ( الأمر ) ، فبعض فسّره بمعنى تدبير العالم والأنظمة والقوانين الجارية وذلك بقرينة الآيات الكثيرة التي ورد فيها هذا المعنى نظير ( والمدبّراتِ أمراً )(٣) و ( الله الّذي سَخَّرَ لكُم البَحْر لتَجري الفُك فيه بأمرِه )(٤) و ( النّجومُ مُسخراتٌ بأَمره )(٥) وآيات عديدة اُخرى .

أمّا بعضهم الآخر فقد إعتبرها بمعنى الأمر التشريعي والدستور الإلهي المقابل للنهي ، فيكون معنى الآية : أنّ الخلق خاصّ بالله والأمر والدستور

---

١ ــ الكشّاف : ٥١/٤ .
٢ ــ تقديم ( له ) على الخلق والأمر دليل على الحصر .
٣ ــ سورة النازعات : الآية ٥ .
٤ ــ سورة الجاثية : الآية ١٢ .
٥ ــ سورة النحل : الآية ١٢ .



التشريعي يصدر عنه أيضاً ، مثل ( فليَحذَر الّذين يُخالفون عَن اَمرِهِ )(١).

وفي تفسير ثالث فُسّر ( الأمر ) بمعنى الإرادة مثل : ( اِنّ اللهَ بالغُ اَمرِهِ )(٢)وفي تفسير رابع فسّر عالم ( الخلق ) بعالم المادّة ، وعالم ( الأمر ) بعالم المجرّدات وذلك بقرينة قوله تعالى : ( يسألونَكَ عن الروحِ قُلِ الرّوحُ مِن اَمر رَبّي )(٣).

والواضح أنّ التفسير الأوّل من بين هذه التفاسير أكثر إنسجاماً مع الآيات القرآنية الاُخرى ومع آية البحث أيضاً ، لأنّ القرآن الكريم يريد أن يذكّر المشركين بهذه الحقيقة ، وهي انّ الخلق وتدبير المخلوقات مختصّ بالله والشاهد على ذلك قوله ( ربّ العالمين ) في ذيل الآية ، وعليه فانّ الأصنام لا دور لها لا في الخلق ولا في التدبير والربوبية ، فلماذا تعبد إذن ؟!

* * *

إيضاحات

١ ــ الخطوة الاُولى نحو الشرك في الخالقية

لعلّ المجوس ليسوا أوّل من جعل لله شريكاً في الخالقية ، ولكنّهم أكثر شهرة من غيرهم على الأقل .

إنّهم قسّموا الموجودات إلى مجموعتين : حسنة وسيّئة ( خير وشرّ ) وإفترضوا لكلّ مجموعة إلهاً ( يزدان وأهريمن ) أو النور والظلمة ، ودليلهم هو أنّ مخلوق الإله تكون له سنخية معه ، وعليه لا يمكن أن يكون إله الخير وإله الشرّ واحداً ، فإله الخير خير ، وإله الشرّ شرّ !

لو كانت موجودات العالم مقسّمة على هذا النحو لأمكن أن يكون

---

١ ــ سورة النور : الآية ٦٣ .
٢ ــ سورة الطلاق : الآية ٣٠ .
٣ ــ سورة الإسراء : الآية ٨٥ .



الإستدلال صحيحاً ، لكن الحقيقة هي أنّه لا يوجد في عالم الوجود إلاّ الخير ، وما يطلق عليه ( الشرّ ) أمر عدمي أو أنّه ذو جهة نسبية ، فمثلا نقول : الفقر شرّ ، في حين أنّ الشرّ ليس إلاّ الفقدان لمستلزمات الحياة ، والفقدان أمر عدمي والعدم ليس شيئاً ليكون له خالق .

أو نقول : إنّ لسعةَ النحل ومخالب الحيوان المفترس شر وذلك عندما نجعل أنفسنا محوراً ثمّ نحكم بهذا النحو ، في حين لو نظرنا إلى النحل نجد أنّ الابرة فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين ، والأنياب والمخالب في الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتغذّي ولها جانب حيوي بالنسبة إليها فهي إذن خير ، وعليه فانّ الكثير من الموجودات تتّخذ صورة ( شرّيرة ) نتيجة لأفكارنا .

وقد يكون جهلنا هو السبب في إعتبار الأشياء شرّاً وذلك لعدم علمنا بفوائدها ، فمثلا من الممكن أن نعتبر وجود الجراثيم شرّاً لأنّها تسبّب الأمراض ولكن إذا لاحظنا نظرية بعض العلماء في أنّ الجراثيم المسبّبة للأمراض تدعو خلايا الإنسان إلى معركة دائمة وفيها تكون أكثر نشاطاً ونمواً رشداً ، ولولا الجراثيم لكان معدّل طول الإنسان لا يتجاوز الثمانين سنتمتراً ، ولأصبح ذا جسم ضعيف وعاجز ، سنذعن عندما ندرك ذلك أنّ إطلاق الشرّ عليها ناشىء من جهلنا ، وبخاصّة أنّ الذى ى خلق الجراثيم قد أوجد طرق معالجتها في حالة إستفحالها أيضاً .

ونعلم كذلك أنّ بعض الأدوية في عصرنا الراهن تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُربّى كثير من الأفاعي والحيوانات السامّة الأُخرى ، وعلى هذا فانّ أُبرها وسمومها ليست شرّاً مطلقاً ، وستأتي تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع في بحث العدل بإذن الله .

* * *

**٢ ــ خطوة اُخرى على طريق الشرك**

**في هذا الموضوع إنحرفت مجموعتان إسلاميتان هما ( الأشاعرة ) و ( المعتزلة ) أي المفوّضة ، المجموعة الاُولى تتبع « أبا الحسن البصري » المتوفّى عام ٣٢٤هـ لله وتنكر التأثير والعلّة والمعلول في عالم الخلق إنكاراً تامّاً وتقول : إذا كانت النار محرقة فانّه مجرّد تصوّر لا ! فالمحرق الأصلي هو الله ، ولكن إرادته حكمت بشكل إذا مسّت النار ــ مثلا ــ يد الإنسان فانّ الله يوجد الإحتراق مباشرة في يده ! وبهذا النحو أنكروا عالم العلّة والمعلول تماماً واعتبروا الله تعالى علّة لكلّ شيء مباشرة دون واسطة .**

**إنّهم أنكروا هذه القضيّة المحسوسة بل والأكثر من المحسوسة(١) بسبب إيمانهم بأنّ الإعتقاد بوجود عالم الأسباب يخلّ في توحيد الخالقية .**

**بسبب هذا الخطأ الكبير تعرّضت مجموعة الأشاعرة إلى إنحراف كبير آخر وهو انّها تعتبر أفعال الإنسان وأعماله مخلوقة لله أيضاً ، وهذا أسوء أنواع الجبر !**

**وبعبارة اُخرى أنّه شيء أعلى من الجبر لأنّ الأشاعرة يقولون : لسنا نحن الفاعلين للأعمال الصالحة والسيّئة بل أنّ الخالق لها كلّها هو الله سبحانه ، فهي في الحقيقة أعماله المباشرة لا أعمالنا الجبرية ( فتأمّل جيّداً ) . وفي النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تأثير للأسباب والعلل فحسب بل يعتبرونها مستقلّة في تأثيراتها ، فمثلا أنّ الله خلق بعض الأنبياء والأولياء وأوكل إليهم أمر الخلق ، كما يعتقدون أنّ الإنسان مستقلّ في أعماله تماماً ، وبهذا يعتبرون الإنسان خالقاً صغيراً والله عزّوجلّ خالقاً كبيراً !**

**ولا شكّ في انّ المجموعتين على خطأ ، وقد وقعا في لون من الشرك ، شرك جلي وصريح ، وشرك خفي ، فالقائلون بــ ( التفويض ) ابتلوا بشرك جلي**

---

**١ ــ ليس لقانون العلّية بعد حسّي فقط بل يمكن التوصّل إليه عن طريق الوجدان ولاعلم الحضوري ، لأنّ كلّ شخص يرى بوضوح انّ روحه توجد الإرادة والتفكير .**



**لأنّهم اعتقدوا بأنّ الإنسان مستقلّ في أفعاله أو اعتقدوا بأنّ الله قد أوكل إلى أوليائه خلق السماء والأرض وتنحّى جانباً ! وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التي تعتبر الله خالقاً**

لكلّ شيء وربّاً ومدبّراً لجميع الاُمور ، ومن العجيب انّ الإنسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتّبع مثل هذه الأبحاث المنحرفة ؟!

امّا الأشاعرة فقد ابتلوا بلون آخر من الإنحراف والشرك ، لأنّهم أنكروا أوّلا أصل العلّية في عالم الخلق خلافاً للوجدان والحسّ ، وثانياً إذا كان الإعتراف بأصل العلّية شركاً فانّ الإعتقاد بأصل وجود الإنسان شرك أيضاً . إنّ الإنسان مختار وحرّ في فعله ولكن يجب أن لا ننسى أنّ قدرته وقوّته كلّها وحتّى حرية إرادته هي من الله تعالى ، فهو الذي أودع كلّ هذه القوى في الإنسان وهو الذي شاء أن يكون الإنسان حرّاً ، وعلى هذا فانّ أعمال الإنسان في الوقت الذي تستند فيه إلى الإنسان فانّها تكون مستندة إلى الله أيضاً ، ولا تخرج عن دائرة خلقه ، كالإعتقاد بأصل وجود الإنسان فانّه وجود تابع ومتعلّق بغيره ، ولذلك لا يستوجب الشرك .

وبملاحظة المثال الآتي يمكن أن تتّضح الحقيقة : إنّ كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية ، والكهرباء يجري في شبكة على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة ، السائق في مثل هذا القطار حرّ في عمله ولكن في الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذي يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك ، فبإمكانه أن يقطع التيار الكهربائي بإرادته في أيّة لحظة شاء وذلك بالضغط على زر معين فيتوقّف القطار في مكانه .

وبإمكانه ــ إذن ــ أن يقول إنّي حرّكت القطار بإرادتي ، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الإثنان ، إلاّ أنّهما فاعلان طوليان الأوّل في المرحلة الاُولى والعليا والثاني في المرحلة الثانية والسفلى التابعة ، فالفعل ينسب إذن إلى الإثنين ومع ذلك فانّ سائق القطار مسؤول عن عمله وليس بمجبر .

وعليه لا يكون الإعتقاد بحرية إرادة الإنسان شركاً في الخالقية .



وبعبارة أوضح : مثلما يرتبط أصل وجود الإنسان بالله تعالى والإيمان بوجود الإنسان لا يستلزم الشرك فأفعاله كذلك .

والأشاعرة كأنّهم يرون أصل وجود الإنسان مستقلا في حين أنّ هذا نوع من الشرك ، وإلاّ فانّ الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فانّ الأفعال التابعة للإنسان لا تكون معارضة للتوحيد أيضاً .

ولا بأس أن يتوضّح هذا البحث بضرب مثال :

جاء إنكار الأشاعرة للعلّية والسببية نتيجة لتوهّم وقوع الشرك ، أي إذا إعتبرنا الإحراق من النار فانّهم يقولون : إنّ هذا شرك ! في حين يبقى هذا السؤال: أليس الإعتقاد بوجود أصل النار أمام وجود الله شركاً ؟

سيقولون : لا حتماً ، لأنّ هذا الوجود تابع لذاته المقدّسة ( كالضوء المنبعث من المصباح المتوقّف على إرتباطه بالطاقة الكهربائية ويطفأ عند إنقطاعها ) ، ونذكر هذا الكلام ذاته في تأثير الأسباب ونقول : إنّها تكون في النهاية تابعة لله تعالى ، وقدوة الإنسان وإختياره تابع له أيضاً ، وعليه فانّ التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً في هذا المجال ، فالله خالق كلّ شيء مع ثبوت أصل العلّية والحرية في إرادة الإنسان .

وستأتي إيضاحات أكثر بهذا الشأن في بحث الجبر والإختيار ، بإذن الله .

* * *

[٢٩٥]

[٢٩٦]

ب ــ توحيد الربوبيّة

[٢٩٧]

[٢٩٨]

تمهيد :

إنَّ توحيد الربوبية يعني أنّ المدير والمدبّر والمربّي والمنظّم لعالم الوجود هو ذات الله المقدّسة فقط .

وكلمة ( ربّ ) التي هي من صفات الله عزّوجلّ قد تكرّرت في القرآن الكريم أكثر من غيرها حتّى بلغت ( ٩٠٠ مرّة ) بألفاظ : ( ربّ ، ربّك ، ربّكم ، ربّنا، ربّي وأمثالها ) ، والعديد من الآيت القرآنية تعرّف الله بــ ( ربّ العالمين ) ويدلّل ذلك على أنّ القرآن يولي إهتماماً خاصّاً بتوحيد الربوبية ، حيث كان أغلب المشركين يجعلون مع الله تعالى موجودات اُخرى تشاركه في تدبير العالم ، وأغلبهم ــ كما أسلفنا ــ آمنوا بتوحيد الخالقية ولكنّهم تورّطوا بالشرك في الربوبية ، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الإنحراف العقائدي الكبير لدى أقوام مختلفة مكرّراً

وباستمرار ، والشرك في الربوبية طبعاً يكون مصدراً لإنحرافات خطيرة أُخرى تجدونها في بحوث مقبلة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين إلى آيات قرآنية تمثّل نماذج من آيات توحيد الربوبية في القرآن الكريم :

١ ــ ( الحَمدر لِلّهِ رَبِّ العالَمينَ ) سورة الفاتحة ــ ٢ .

٢ ــ ( قُلْ أَغَيرَ اللهِ أَبْغي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَيء ) سورة الأنعام ــ ١٦٤ .

٣ ــ ( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمواتِ والأَرَضِ قُل الله ) سورة الرعد ــ ١٦ .

٤ــ ( فَتَعالى اللهُ المَلكُ الحقُّ لا اِلَه إلاّ هُوَ ربُّ العَرشِ الكريم ) سورة المؤمنون ــ١١٦.

٥ ــ ( اللهَ رَبَّكم وَربَّ آبائِكم الأوَّلين ) سورة الصافات ــ ١٢٦ .

٦ ــ ( قُلْ مَنْ يَرزُقكُمْ مِنَ السَّماء والأَرضِ أَمَّنْ يَملكُ السَّمعَ والأبْصَارَ ومَن



يُخرجُ الحَيَّ منَ الميّتِ ويُخرجُ الميّتَ مِن الحيّ ومَنْ يُدبّر الأَمْر فَسيَقُولون الله فَقُلْ أفَلا تَتَّقونَ ) سورة يونس ــ ٣١ .

شرح المفردات :

( ربّ ) له أصل واحد وفروع وشعب كثيرة وموارد إستعمال كثيرة .

والأصل كما يقول الراغب في المفردات يعني التربية وسَوْق الشيء إلى الكمال ، وفي ( مقاييس اللغة ) ذكر عدداً من الاُصول له هي : المصلح والقائم على الإصلاح الملازم والمقيم على الشيء ، الإدغام بين الشيئين ولكن كما ورد في ( التحقيق في كلمات القرآن الكريم ) فانّ هذه ترجع جميعها إلى أصل واحد وهو عبارة عن سوق الشيء إلى الكمال ورفع النقائص في أبعاد مختلفة : ماديّة ومعنوية ، ذاتية وعرضية ، وفي الإعتقاد والصفات والأخلاق .

وبما أنّ أداء هذا العمل يقترن بمفاهيم اُخرى نظير : الإصلاح ، التدبير ، الحكومة ، المالكية ، الصحبة ، السيادة ، الإجتماع ، التعليم ، والتغذية فانّه يطلق على هذه المعاني أيضاً .

من هنا ذكرت له كتب اللغة معان متعدّدة ، فقد جاء في ( لسان العرب ) مثلا : إنّ ( ربّ ) إضافة إلى إطلاقه على ذات الله المقدّسة فانّه يعني المالك والسيّد والمدبّر والمربّي والقيّم والمنعم أيضاً ، وجوهر الكلام هو أنّ هذه الكلمة تعني في الأصل التربية والسوق إلى الكمال ثمّ أُطلقت على المعاني الملازمة له(١).

ولكن كما يستفاد من أوال اللغويين إذا إستعملت هذه الكلمة مطلقة فانّها تستعمل فيما يخصّ الله تعالى فقط لأنّه المالك الحقيقي والمربّي والمصلح لكلّ

---

١ ــ ينبغي ملاحظة أنّ ( ربّ ) مشتقّة من ( ربب ) في حين أنّ ( التربية ) مشتقّة من ( ربو ) ويستفاد من التفاسير التي وردت حول كلمة ربّ في كتب اللغة أنّ ( ربو ) و ( ربب ) لهما تشابه شديد في المعنى وقد إعتبر الطبرسي ( (رضي الله عنه) ) في مجمع البيان هاتين الكلمتين بمعنى واحد ( ج١ ص٢٢ ) .



شيء ، وإذا إستعملت في سوى الله تعالى فالواجب هو أن تكون مضافة مثل ( ربّ الدار ) ( ربّ الإبل ) و ( ربّ الصبي )(١).

إنّ هذه الكلمة عندما تطلق على الله عزّوجلّ يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أبعاد الربوبية المختلفة أي المالكية والتدبير والإصلاح والتربية والقيمومة والأنعام .

( تدبير ) من ( دبْر ) ويعني المجيء خلف شيء ، والتدبير يعني جعل الشيء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة ، العمل الذي لا يمكن إنجازه إلاّ بالعلم والوعي وبهذا فانّ لفظ ( مدبّر ) يطلق على أشخاص يتدبّرون عواقب الأعمال ويوصلونها إلى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً(٢).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها :

إلهنا أنت ربّ العالمين

إنَّ الآية الأُولى التي نردّدها صباحاً ومساءً تقول : ( الحَمدُ لله رَبّ العالَمِين )وقد تكرّرت هذه الجملة بعينها في سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل الله تعالى ، وتكون تارة مرتبطة بالدنيا ، وأُخرى بيوم القيامة(٣).

هذه الآية تتضمّن في الحقيقة إستدلالا لطيفاً على أنّ الله عزّوجلّ أهل لكلّ حمد وثناء ، لأنّه المربّي الحقيقي للعالمين أجمعين ، فهو الخالق وهو الرازق وهو المالك وهو المربّي وهو المدير والمدبّر وهو المرشد والمعلّم والهادي ، والملاحظ أنّ ( الحمد ) إستعمل كجنس يشمل كلّ أنواع الثناء

---

١ ــ راجع : لسان العرب ، مفردات الراغب وقاموس اللغة مادّة ربّ .
٢ ــ مقاييس اللغة والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ومفردات الراغب .
٣ ــ سورة الأنعام : الآية ١٠ .



و ( العالمين ) كذلك ، فانّه جاء على هيئة الجمع المحلّى بالألف واللام فانّه يشمل موجودات العالم كلّها من عقلاء وغير عقلاء ماديّة وغير ماديّة ( وإستعمالها بصورة الجمع العاقل فانّه من باب التغليب )(١).

وعليه إنّ ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربية وأنعام في زاوية من العالم فانّ ذلك قبس من فيضه سبحانه ، ومن كان مالكاً فانّ ذلك شعاع من مالكيته المطلقة ، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمدهم ونثني عليهم يجب أن نحمد الله ونشكر ذاته المقدّسة .

والفخر الرازي يقدّم شرحاً إجمالياً لِنِعَم الله نظراً إلى أنّ الحمد والثناء يكون إزاء النعمة ويقول : « ... ثمّ أنّ أصحاب التشريح وجدوا قريباً من ٥ آلاف نوع من المنافع والمصالح التي ذكرها الله عزّوجلّ بحكمته في تخليق بدن الإنسان ثمّ انّ من وقف على هذه الأصناف المذكورة في كتب الشريح عرف انّ نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة في البحر المحيط » ثمّ يذكر آثار الربوبية في بقيّة أنحاء العالم ، ويقول : ( إنّ هذا المجموع « مجموع نعم الله » مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أقلّ ، ثمّ إنّه تعالى نبّه على أنّ أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان أو كما قال تعالى : ( وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض ) وحينئذ يظهر أنّ قوله جلّ جلاله « الحمد لله » مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقلّ )(٢).

المفسِّر المذكور تحدّث طبعاً في إطار العلوم السائدة في عصره ، وبملاحظة الإكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المختلفة يتّضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد ،

ففي جسم الإنسان وحده ( ١٠ ) ملايين مليار خليّة ! كلّ خليّة منها تعدّ من خَدَمه ومشمولة بربوبية الخالق

---

١ ــ لهذا فاتّه حينما وصف موسى ( (عليه السلام) ) الله تعالى أمام فرعون بأنّه ( ربّ العالمين ) سأل فرعون : ومن ربّ العالمين ؟ فأجاب موسى : ربّ السماوات والأرض وما بينهما .
٢ ــ تفسير الفخر الرازي : ج١ ص٦ .



سبحانه وتستلزم الشكر والحمد ، ولو أراد الإنسان أن يعدّ هذه الخلايا ليلا ونهاراً فضلا عن حمدها والثناء عليها لأحتاج إلى ( ٣٠٠ ) الف سنة !

* * *

الآية الثانية التي تخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) تقول : ( قل أَغَير اللهِ اِبغي ربّاً وهُو ربُّ كلِّ شَيء ) .

كيف تريدون الإستقلال لأنفسكم عن النظام العامّ لعالم الخلق ؟ فالله ربّ الموجودات كلّها فكيف لا نعتقد بأنّه ( ربّنا ) ؟ فهل من الممكن أن نجعل شيئاً تحت ربوبية الله شريكاً له ونعتبر المربوب ربّاً والمخلوق شريكاً للخالق ، والعبد في عرض المولى ؟ فأي حكم هذا ؟!

وبملاحظة سعة مفهوم ( شيء ) الذي يشمل كلّ ما سوى الله سبحانه فانّ توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة وفي هذا الأمر وضمن آيتين سابقتين النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) بأن يخاطب المشركين بصراحة : ( قُلْ اِنّ صَلاتي ونُسُكي ومَحياي ومَماتي للهِ ربِّ العالَمين ) .

لماذا أعبد غيره ؟ ولماذا أسجد لغيره ؟ وكيف أبقى حيّاً بذكر غيره ؟ أو أموت فداءً لغيره ؟ في حين أنّه وحده هو الخالق والمالك والمربّي لي .

ونرى هنا التلاحم والتآلف بين ( توحيد العبادة ) و ( توحيد الربوبية ) حيث أوجدا خليطاً مربّياً للروح(١).

في الآية الثالثة خطاب للنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) أيضاً ولكن الكلام هنا جاء عن ربّ السماء والأرض والذي لا يختلف في الحقيقة عن ( ربّ العالمين ) و ( ربّ كلّ

١ ــ ( نسك ) مفرد وفسّره الكثير من اللغويين بمعنى كلّ عبادة في حين فسّره البعض بمعنى الهدي ولكن لا توجد آية قرينة عليها بل إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ المراد هو كلّ العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة في من قبل العام بعد الخاصّ .



شيء ) كثيراً ، وأن ذكر بعبارات مختلفة فتقول الآية : ( قُلْ مَن ربُّ السمواتِ والأرض ) ، ولأنّهم ليس بوسعهم الإدّعاء بأنّ الأصنام أو المعبودات البشرية وأمثالها مدبّرة ومربّية ومنظّمة للسماء والأرض فانّ الآية تأمر النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) مباشرة : أجب على هذا السؤال و ( قُلْ اللهُ ) .

ينبغي لك أن تهجر كلّ ما سواه وتُعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدّسة فقط ، واجعل قلبك مرتبطاً به وعفّر خدّك له ، لأنّ جميع الموجودات لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً فضلا عن غيرها ( لا يَملِكُون لاَنفُسِهِم نَفعاً ولا ضَرّاً )(١).

* * *

الآية الرابعة تتحدّث عن ربوبية الله للعرش ولكنّها تبدأ بحاكمية الله وتقول : ( فَتعالى اللهُ المَلكُ الحَقُ ) .

وهذه جملة تكمّل ما ورد في الآية السابقة لها وفيها : ( اَفَحسِبتُم اَنّما خَلقناكُم عَبثاً وانّكُم اِلينا لا تُرجعون )(٢) ويستفاد منها بأنّه لولا المعاد والقيامة فانّ خلق الإنسان يكون عبثاً ، لأنّ الحياة لعدّة أيّام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من الدلائل المهمّة للمعاد ، سيكون لنا حديث مفصّل عنها في بحث المعاد بإذن الله .

ثمّ تضيف الآية : ( لا اِله إلاّ هُو ربُّ العرشِ الكريمِ ) .

( ملك ) يعني الحاكم والمالك ، ولا يصدق ذلك بمعناه الحقيقي إلاّ في الله سبحانه لأنّه من شؤون الخالقية ومستلزماتها ولعدم وجود خالق سواه فانّه لا مالك ومَلك غيره .

١ ــ سورة الفرقان : الآية ٣ .
٢ ــ سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

ولذا تصفه الآية بعبارة ( الحقّ ) ، ثمّ تحصر المعبود فيه لأنّ العبادة تليق بالملك الحقّ وتكمل ذلك بوصفه بـــ ( ربّ العرش الكريم ) هذه الصفات الأربع جاءت لتثبيت قضيّة المعاد والقيامة الواردة في الآيات السابقة .

( العرش الكريم ) أمّا إشارة إلى عالم الوجود كلّه ، لأنّ العرش يعني كرسي السلاطين العالي ، وكرسي الحكومة الإلهية كناية عن مجموعة عالم الخلق وعلى هذا ينسجم مع جملة ( ربّ كلّ شيء ) التي جاءت في الآيات السابقة ، واتّصاف العرش بـــ ( الكريم ) الذي يعني الشريف والمفيد والجيّد بسبب أنّ كرسي الحكومة الإلهية مصداق كامل لهذه الصفات .

ولكن بعضاً اعتقد أنّ ( الكريم ) يعني الصاحب الكريم ، ولأنّ هذا المعنى لا يصدق في العرش فانّ هذه الصفة تكونلذات الله المقدّسة لا العرش ، في حين أنّ كريم يمكن أن يكون وصفاً لغير الموجودات العاقلة أيضاً مثل : ( لهم مغفرة ورزق كريم )(١) أي كثير الفائدة والشريف(٢).

* * *

الآية الخامسة تتحدّث عن ربوبية الله للبشر وتنقل عن النبي العظيم « الياس » ( (عليه السلام) ) خطابه لقومه ، وفيه وبّخهم على عبادة صنمهم المعروف بـــ ( بعلْ ) وقال لهم : ( أتدعون بعْلا وتَذَرون اَحسَن الخالِقين ) وأضاف : ( اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكُم الأوّلين )(٣).

وهذا في الواقع لجميع الوثنيين الذين كانوا يبرّرون عبادة الأصنام حينما يسألون عنها بقولهم : إنّ هذه سنّة آبائنا ولا نتركها ، وفي المقابل إستند النبي

---

١ ــ سورة الحجّ : الآية ٥٠ .

٢ ــ هنا أبحاث مفصّلة في معنى ( العرش ) في اللغة والقرآن الكريم ومنها في تفسير الأمثل : ٦/٢٠٤ ذيل الآية ٥٤ من سورة الأعراف والجزء ٨ ص٢١٩ ذيل الآية .

٣ ــ ( الله ) منصوب لأنّه بدل من ( أحسن الخالقين ) في الآية السابقة وقال بعض إنّه عطف بيان .

إلياس ( (عليه السلام) ) إلى هذا المعنى وهو : أنّ اللائق للعبودية هو ربّ العالم ومدبّره والمربّي الحقيقي للإنسان ، والله ربّكم وربّ آبائكم وأجدادكم فإذا كان أُولئك على خطأ في معرفة المعبود الحقيقي وربّهم فلماذا تسلكون الطريق الخاطىء؟

* * *

هو المدبّر للأُمور

تتحدّث الآية السادسة والأخيرة عن تدبير الأمر بدلا من إستخدام كلمة ( الربّ ) وهو مفهوم شبيه بالربوبية ، وليس عينه تماماً ، فتخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : ( قُلْ مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ ) .

مَن الذي سخّر لكم نور الشمس الضروري لوجودكم وقطرات المطر التي تنزل من السماء وتنشر الحياة في كلّ مكان والهواء الذي يملأ أجواءكم ؟

وهكذا النباتات التي تنمو من الأرض ، وتوفّر البذور الغذائية لكم والفواكه اللذيذة والمعادن الثمينة التي تستخرجونها من باطن الأرض من الذي أعطاها لكم ؟ هل هذه الأرزاق من الأصنام ؟!

ثمّ تتوجّه الآية إلى جسم الإنسان وتشير إلى مجموعيتن من أهمّ أعضائه الطريق الأساس في إرتباط الإنسان مع العالم الخارجي والمبدأ الأساس للعلوم والأفكار حيث تقول : ( أمّن يَملِكُ السَّمعَ والأبصار ) ، ثمّ تتناول أهمّ ظاهرة في عالم الخلقة وهي قضيّة الحياة والموت وتقول : ( ومن يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميّتِ ويُخرجُ الميّتَ من الحَيّ ) فهل هذا من فعل الأصنام أيضاً ؟!

والآية في آخرها بعد ذكر المسائل المهمّة الثلاث ( الأرزاق السماوية والأرضية ، السمع والبصر الحياة والموت ) تذكر القضيّة بصورة كليّة وجامعة وتقول ( ومَنْ يُدبّرُ الأمرَ ) .

ومن المسلّم به أنّهم لو راجعوا عقولهم وضمائرهم لم يكن لهم جواب



إلاّ أنْ يقولوا : الله ( فَسَيَقُولُونَ اَللهُ ) .

ثمّ تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمسكاً وقل : ( أفلا تتّقون ) .

إنّ جميع الأرزاق المعنوية والماديّة للإنسان وتدبير العالم كلّه قد إجتمعت في الحقيقة في هذه الآية ، فانّ الأرزاق الماديّة أمّا تكون من السماء أو من الأرض ، والأرزاق المعنوية عادةً تكون عن طريق البصر والسمع اللذين ينقلان العلوم الحسّية والعقلية والنقلية إلى الإنسان ، وتدبير العالم يشمل هذه كلّها وغيرها ، فمن يستطيع أن يدّعي أنّ العباد الضعفاء أو الموجودات الحقيرة كالأصنام هي الخالقة لهذه الأرزاق والمدبّرة لهذه الاُمور ؟ إنَّ توحيد الربوبية ليس قضيّة معقّدة حتّى بالنسبة لعبّاد الأصنام فيما لو فكّروا قليلا .

والتعبير بـــ ( يملك السمع والبصر ) يمكن أن يكون إشارة إلى خلقها أو حفظها نظامها وتدبيرها أو هذه الاُمور كلّها .

* * *

تتحصّل هذه الحقيقة من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها في القرآن الكريم وهي كثيرة وواسعة ، وهي أنّ القرآن الكريم يعرّف الله القادر المتعال بأنّه هو المالك والمربّي والمدير والمدبّر لعالم الوجود كلّه وكلّ شيء ، وكلّ موجود في السماء والأرض والعرش والكرسي والبشر في الزمان الحاضر والماضي ، ونقول بصراحة لا ربّ لعالم الوجود غيره .

إيضاحات

١ ــ التوحيد يعني حذف الوسائط !

إنَّ المطالعة الدقيقة في الآيات القرآنية تفيد أنّ القرآن يصرّ مؤكّداً بأن لا يضيع الناس بين الوسائط وعليهم أن يتوجّهوا إلى ذات الله المقدّسة مباشرةً ،



ويتحدّثوا معه ولتتعلّق قلوبهم به وحده ولا يعبدوا غيره . والتعبير بـــ ( ربّ العالمين ) في سورة الحمد والسور القرآنية الاُخرى إشارة إلى هذه الحقيقة ، وتكرير ذكر الركوع والسجود ( سبحان ربّي العظيم ) و ( سبحان ربّي الأعلى ) كلّه لبيان هذه الحقيقة وهي : ليس خلقنا بيده فحسب بل وبقاؤنا وتربيتنا وتكاملنا وتدبير اُمورنا .

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بدقّة وهو أنّ، ( الخالق ) و ( الربّ ) لا يمكن أن ينفصلا ، ولو دقّقنا جيّداً في الإنسان لوجدنا له خلقاً جديداً في كلّ لحظة ، وكلّ ذلك منه سبحانه .

إنَّ موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقيرة وهو الغني المطلق من كلّ جهة .

وتاريخ الديانات يشير إلى أنّ البشرية بسبب التيه في الوسائط والخرافات التي ابتُليت بها وكم من الموجودات المنحطّة التي جعلتها معبودة ومتحكّمة بمصائرها ، وهذا التعدّد في الأرباب والآلهة قد جلب للبشرية كلّ هذا التفرّق والتناثر والشقاء .

ولكن عندما نهجر هذه الوسائط ونعتبر أنّ الله هو الربّ المطلق كما تقول الدلائل والبراهين العقلية ، نعرف أنّ كلّ شيء محتاج إليه فانّا سنصل إلى مبدأ النور والعظمة والوحدة والوحدانية .

ولذا فأنّ صفة ( ربّ ) تكرّرت أكثر من ( ٩٠٠ ) مرّة في الآيات القرآنية ولم تتأكّد صفة اُخرى من الصفات الإلهية إلى هذه الدرجة .

وفي الحقيقة يجب معرفة ومطالعة الإخلاص في توحيد الإسلام قبل كلّ شيء في هذا التوحيد الربوبي .

٢ ــ تاريخ الديانات وخرافة الوسائط

كلّما تعمّقنا في دراسة تاريخ المذاهب والديانات تتجلّى أمامنا هذه



الحقيقة أكثر فأكثر وهي سيادة تعدّد الآلهة ( الإله بمعنى الربّ ) بين المجتمعات البشرية المختلفة منذ أقدم العصور بشكل أوسع ، ولو قمنا بجمع أسماء هذه الآلهة وعقائد المجتمعات البشرية المختلفة لتألّف كتاب مفصّل مليء بالعقائد العجيبة والغريبة والخرافية ، ولا بأس في الإشارة إليها بصورة مختصرة ، ليطّلع القرّاء على تلك القصّة الطويلة من خلال هذه المقدّمة المتواضعة .

أ ــ آلهة الروم

كَتَبَ أحد المؤرّخين الغربيين بهذا الصدد : « لم تكن الديانة الرومية تشابه ما نصطلح عليه « مذهب » أبداً ، ولم تتضمّن أي تشريع لمعتقديها ، ولم تكن بصدد إصلاح التفسّخ الأخلاقي بين الناس ، بل كانت تعلّمهم أفضل السبل لإكتساب رضا الآلهة وعونها » .

... وكانت آلهة الروم كثيرة جدّاً ممّا جعل كلّ إله يحظى بجهة معيّنة ! وله دور في قضيّة معيّنة فلم يكن لأبواب البيوت إله فحسب ، بل والعتبة منها وقواعدها كانت لها أرباب ، كما أنّ هناك آلهة مستقلّة تتولّى أمر المحافظة على كلّ فرد من أفراد البشر ، إضافةً إلى وجود ربّ نوع خاص يعلّم الطفل أوّل صرخة ، وآخر يعلّمه شرب الماء ، وآخر يعلّمه الخروج من البيت وآخر يعلّمه كيف يرجع ! وهناك إله خاص عند حراثة الأرض وإله آخر عند الزراعة وآخر عند نثر البذور و ( هكذا أرباب آخرين ) ، ولا عجب في أن يكون للروم ( ٣٠ ) ألف إله ! حتّى أنّ أحد شخصياتهم مازح بقوله : أنّ آلهة بلادنا في الشوارع والمجتمعات هي أكثر من أفراد شعبنا ! »(١).

ب ــ آلة اليونان

ويكتب ذلك المؤرّخ أيضاً : ( لقد اعتقد المجتمع اليوناني ــ كالكثير من

---

١ ــ تاريخ آلبرمالة ... تاريخ الروم : المجلّد ، ص٢٩ و٣٠ ، ( علامة التعجّب منّا ) .



الأُمم ــ بألُوهية الظواهر الطبيعية كلّها نظير الشمس والرعد والمحيطات والأعاصير والأنهار والعيون والرياح والأمطار ، وقام بعبادتها واعتقد أنّ هذه الآثار تنشأ من وجود خفي ، واعتقد انّها منشأ الخير والشرّ ومن هنا قام بعبادتها كي يحصل على كرمها أو يدفع الشرّ بها .

ثمّ يذكر إله اليونان المعروف وهو ( زيوس ) ابن ( كرونوس ) وهو المتصوّر لديهم على شكل إنسان ، له الهيمنة التامّة والجبروت وذو جبهة عريضة وشعر كثيف ولحية كثّة طويلة على شكل حلقات !

كان زيوس ربّ الأرباب وإله البشر في اليونان ويحيطه عدد كبير من الآلهة وأرباب الأنواع ، وكانت زوجة زيوس ( هيرا ) تعيش في السماء .

ويعتقدون أنّ لزيوس أبناء ثلاثة هم : ( هرمس ) و ( آرتميس ) و ( آپولون ) وهم على التوالي مظاهر المطر وربّ النوع للقمر والشمس !

كما اعتقدوا بآلهة عديدة أُخرى نظير آلهة البحر وآلهة الأرض وآلهة جوف الأرض وآلهة العمل(١).

جـــ ــ آلهة مصر

أغلب المصريين القدماء اعتقدوا بديانة تؤمن بعدّة آلهة ، واعتقدوا أنّ إلهاً واحداً هو أعلى من الآخرين عرف بـــ ( إله الآلهة ) .

في مصر القديمة كان للناس في كلّ منطقة آلهة ومعبد خاصّ تجاوزت الـــ ( ٢٠٠٠ ) معبود ! تسعة منه يحظون بذكر أكبر ، أحدهم إله الشمس ، ثمّ إله الهواء ، وإله الفضاء والفرا غ ، وإله الأرض وهكذا هناك إله الصحراء والأراضي الخصبة والموات(٢).

يقوم المؤرّخ الشهير ويل دورانت في ( تاريخ الحضارة ) :

---

١ ــ تاريخ آلبرمالة ــ تاريخ أُمم الشرق : ج٢ ، من ص١٧١ إلى ص١٧٩ ( بإختصار ) .
٢ ــ الإسلام والعقائد والآراء البشرية : ص٤٦ .



( لم تكن في العالم منطقة تناظر مصر في تعدّد الآلهة ، وكان المصري يعتقد أنّ الخلق إبتدأ من السماء ، وكانت سماء نهر النيل أعظم ربّ الأنواع .

وقد إعتقد المصريون بأنّ كواكب السماء ليست أجساماً فحسب بل إنّها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء والحيوان المختلفة )(١).

هـــ ــ آلهة ايران

إعتقد الإيرانيون قديماً بالثنوية ثمّ بتعدّد الآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة ( امشاسبندان ) أو الآلهة الستّة ، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء ، إله النار ، إله المعادن ، إله الأرض ، وإله المياه والحيوانات وإله الثوابت والسيارات السماوية(٢).

**و ــ آلهة الصين**

**إعتقد الصينيون القدماء أيضاً بأنّ العالم يحكمه أصلان أحدهما ( فحل ) أو ( الموجَب ) أو ( النور ) والآخر ( أُنثى ) أو ( السالب ) أو ( الظلام ) وتبعه التفكير بالثنوية ( شانكتي ) وهو فح مظهر لأصل الذكورة وكان يدعى إله الأفلاك ، واعتقدوا أنّه هو الذي يجازي الإنسان على أعماله الصالحة والسيّئة في هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العامّ .**

**وكانت ( هاتن ) إلهاً مؤنثاً ويثنى عليه ، ثمّ ظهرت آلهة أُخرى تدريجاً وتبدّلت الثنوية إلى تعدّد الآلهة : إله الخصوبة ، إله المطر ، إله الرياح ، إله الثلج ، إله النار ، إله الجبل و ... )(٣).**

---

**١ ــ تاريخ الحضارة ــ ويل دورانت : المجلّد ١ ، ص٢٩٨ و٣٠٠ ( بإختصار ) .**
**٢ ــ الإسلام والعقائد والآراء البشرية : ص٣٤ ( بإختصار ) .**
**٣ ــ الإسلام والعقائد والآراء البشرية : ص١٥٧ .**



**ز ــ مشركو العرب**

**يؤكّد بعض المؤرّخين والمفسّرين بأنّ العرب كانوا يعتقدون بأنّ الخالق والرزّاق والربّ والمدبّر للعالم إله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدّث عن إقرارهم في قضيّة خالقية الله ورازقيته . وعليه فانّ عبادة الأصنام بينهم لم تنشأ من الإعتقاد بتعدّد الآلهة ، بل من إعتبارهم الأصنام ذات مقام ومكانة عند الله يرجون منها الشفاعة والقرب من الله . حتّى اعتقد البعض منهم أنّ إلى جانب كلّ صنم شيطان موكول به من قبل الله ، وكلّ من يعبد الصنم حقّ عبادته فانّ ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من الله !!(١).**

**ولا يمكن إنكار أنّ طائفة من العرب كانت ترجّح عبادة النجوم ، وتعتقد أنّ كواكب خاصّة حين الغروب والشروق تقوم بإنزال المطر وقد عبّروا عنها بــ ( الأنواء ) وهو جمع نوء ويعني النجم الذي يميل إلى الغروب ، وقد إعتقدوا بإرتباط الحركة والسكون والسفر والإقامة بهذه النجوم ( واعتقدوا بتأثيرها على مصائرهم ) وقد شيّدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب(٢).**

وفي اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية ، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد أشار القرآن الكريم إليها في قصّة ملكة سبأ، وطائفة أُخرى عبدت القمر ، وأُخرى عبدت نجمة الشعراء ، كما عبدت قبائل أُخرى نجوماً أُخرى(٣).

ح ــ في بلدان أُخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الإعتقاد بأرباب الأنواع والآلهة المتعدّدة ، كما اعتقد الصابئة ( عبّاد النجوم ) بأنّ السيّارات السبع هي التي تحرس الأقاليم السبعة وتحافظ عليها ( حيث قسّموا الأرض قديماً إلى سبعة

---

١ ــ بلوغ الأرب : المجلّد ٢ / ص١٩٧ .
٢ ــ المصدر السابق : ص٢٢٣ .
٣ ــ الإسلام والجاهلية : ص٢٩٥ .



أقسام أُطلق على كلّ قسم منها اقليم )(١) واعتقدوا أنّها مبدأ الخيرات ودافعة للأضرار عن أهل الأرض .

والإعتقاد بـــ ( توتم ) الذي ساد في مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً بالإعتقاد بربّ الأنواع أيضاً ، حيث كان لكلّ قبيلة توتم بمثابة الأب وروح القبيلة واعتقد بأنّه على صورة الحيوانات أو ما شاكله .

ط ــ الإعتقاد بالمثل الأفلاطونية

إفترض افلاطون لكلّ نوع من أنواع عالم الطبيعة فرداً مجرّداً عقليّاً ، واعتقد أنّه قائم بالذات وبما أنّ هذه الأفراد المجرّدة إعتبرت أمثالا ومظاهر لأسماء وصفات الله وشبيهة للأنواع الطبيعة فقد أُطلق عليها عنوان ( مثال ) وجمعه مُثُل على وزن رُسُل .

إعتقد افلاطون أنّ ما له الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذي لا يتغيّر ومجرّد من الزمان والمكان وأبدي وكلّي ، وأمّا هذه الأجسام الجسمانية والمادّية التي نشاهدها متعدّدة وذات زمان ومكان وفانية فانّا إنعكاس لتلك ، وعليه تكون نسبة الإنسان الجسماني لمثاله هو نسبة الظلّ إلى ذي الظلّ .

ولأفراد الإنسان قسط من الحقيقة ما يناسب قربها من المثال ، ومن هنا اعتبر افلاطون العالم المحسوس مجازاً وعالم المعقولات حقيقة(٢).

إنّ الإعتقاد بالمثل اليونانية وأن تغاير مع الإعتقاد بأرباب الأنواع ولكنّه لا يخلو من تشابه من عدّة جهات ويعتبر شكلا فلسفياً من أرباب الأنواع اليوناني .

كما أنّ الإعتقاد بالعقول الفلكية المجرّدة له تشابه مع أرباب الأنواع من جهة .

وإيضاحه : أنّ جماعة من الفلاسفة إعتقدوا بأنّ الله ــ بسبب بساطته من

---

١ ــ يمكن مراجعة معجم البلدان : المجلّد١ / ص٢٧ للمعرفة التفصيلية بالأقاليم السبعة وحدودها .
٢ ــ كليّات ( الفلسفة الإسلامية ) و ( سير الحكمة في اوربا ) وكتب اُخرى .



كلّ جهة ــ له مخلوق واحد لا أكثر ، وهو مخلوق مجرّد أطلقوا عليه ( العقل الأوّل ) ثمّ اعتقدوا بأنّ العقل الأوّل لتركّبه من وجود وماهية فهو الخالق للعقل الثاني والفلك الأوّل ، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة أفلاك !

وقد إعتقد البعض منهم أنّ عدد العقول لا حصر لها ، كما اعتقدوا بـــ ( العقول العرضية ) إلى جانب العقول الطولية ( العقول العشرة التي يكون أحدها مخلوقاً للآخر ) ، واعتبروها وسائط لفيض الصور النوعية والمرتبة العليا للموجودات الجسمية ( مثل أرباب الأنواع والمثل الافلاطونية ) ، ولكلّ مفردة من هذه المسائل بحوث مطوّلة ننصرف عنها لأنّها خارجة عن موضوع بحثنا .

المهمّ هنا هو أن نعلم بأنّ القرآن الكريم واجه هذه الأفكار كلّها وفي هذا الوسط الواسع من الأفكار العجيبة والغريبة والملوّثة بالشرك وأمام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التي تُشمّ منها رائحة الشرك قام بعرض توحيد خالص في مسألة الخالقية وتدبير العالم وربوبيته وهو بحقّ من معجزات القرآن الكريم .

لقد أبطل القرآن هذه الآلهة الوهمية وربّ الأنواع الخيالية وعرّف ( الله عزّوجلّ ) كربٍّ للعالمين فقط ، واعتبر كلّ شيء وكلّ إنسان مخلوقاً له وتحت تربيته وتدبيره ، وقام بإفاضة

الصفاء على قلوب البشر وأرواحهم بنور الوحدة ووجّه أنظار البشر المشتّتة إلى ذلك الواحد الأبدي .

أجل ، إنّ دراسة تلك العقائد المشوبة بالشرك ومطالعتها تفصح عن قيمة التوحيد الإسلامي في منظار أتباع الحقّ .

والطريف أنّ الإسلام قد إنبعث من أجواء لا يتحكّم فيها سوى الجهل ، وكان الشرك يفرض قوّته على عقول الناس ، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجزيرة العربية متخلّفاً عنها ، فقد أشرنا سالفاً إلى أنّ الفلاسفة والمفكّرين كانوا متورّطين بلون من الأفكار المشوبة بالشرك .

ويدلّ ذلك على أنّ طريق التوحيد الأصيل ليس أمراً يسمح للإنسان أن يسير فيه بنفسه ، بل لابدّ من يد غيبية تمتدّ إليه عن طريق الوحي ، ومن أنبياء



يقودونه من وادي الظلمات ويوصلونه إلى ماء التوحيد الخالص .

* * *

٣ ــ التفويض لومن من الشرك

بالرغم من أنّ له التفويض معان مختلفة تبلغ سبعة عند بعض ، ووجود بحوث واسعة مرتبطة به ، إلاّ أنّ من اللازم التذكير بأنّ جمعاً من المسلمين القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأنّ الله تعالى خلق النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) والأئمّة المعصومين ( (عليهم السلام) ) ثمّ أوكل إليهم أمر الخلق والرزق والموت والحياة لسائر الموجودات في العالم .

وأفضل ما قيل عن هذه العقيدة هوماذكره العلاّمة المجلسي ((رحمه الله)) في مرآة العقول: «ثم اعلم أنّ التفويض يطلق على معان بعضها منفي عنهم ((عليهم السلام)) وبعضها مثبت لهم فالأوّل: إنّ التفويض في الخلق والرزق والتربية والأمانة والإحياء ، فانّ قوماً قالوا: إنّ الله خلقهم وفوّض إليهم أمرالخلق فهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويمشون وهذا يحتمل وجهين : أحدهما : أن يقال : أنّهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وإرادتهم وهم الفاعلون لها حقيقة وهذا كفر صريح ، دلّت على إستحالته الأدلّة العقليّة والنقلية ولا يستريب عقل في كفر من قال به وثانيهما : أنّ الله تعالى يفعلها مقارناً لإرادتهم كشقّ القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حيّة

وغير ذلك من المعجزات ، فانّها جميعها إنّما تقع بقدرته سبحانه مقارناً لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأبى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح في نظام العالم ثمّ خلق كلّ شيء مقارناً لإرادتهم ومشيئتهم ، وهذا وأن كان العقل لا يعارضه بتاتاً لكن الأخبار الكثيرة ممّا أوردناها في كتاب ( بحار الأنوار ) يمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهراً بل صريحاً »(١).

---

١ ــ مرآة العقول : المجلّد ٣ / ص١٤٣ ( باختصار ) .



وعليه فانّ الإحتمال الثاني غير محال عقلا ، إلاّ أنّ الأدلّة النقلية لا ترتضيه ، وقد كثرت الاُمور التي ليست محالة عقلا ولكن الشرع يرفضها ، فمن الممكن ــ مثلا ــ أن يكون عدد الأنبياء أو الأئمّة أكثر من المعروف إلاّ أنّ الأدلّة النقلية قد حدّدت أعدادهم بما نعلمه .

وهناك إحتما ثالث وهو أنّ الله عزّوجلّ يوهب النبي أو الإمام قدرة يستطيع بها إحياء الميّت أو إبراء المريض من مرضه المستعصي بإذنه والظاهر من الآيات القرآنية حول السيّد المسيح هو ما ذكرنا ، وهذا كلّه ممكن أيضاً بالنسبة للمعصومين ، ولكن كما وردت في العبارات المذكورة تكون هذه المسألة في إطار المعجزات والكرامات فقط ، لا في مورد خلق السماء والأرض وتدبير اُمور الكائنات ، لأنّ القرآن الكريم قد صرّح في حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية في الله عزّوجلّ ، والآيات التي ذكرناها في هذا الفصل حول التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى .

وبما أنّ الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من الخلق وبما أنّ المعصومين هم أفضل البشر ، يمكن القول أنّ عالم الوجود قد خلق من أجلهم ، وبتعبير آخر ، أنّهم بمثابة العلّة الغائية لعالم الوجود .

* * *

٤ ــ هل الملائكة مدبّرات الأمر ؟

يُقسم القرآن الكريم في سورة النازعات الآية ٥ بـــ ( المدبّرات أمراً ) . والمشهور بين المفسّرين هو أنّها تلك الملائكة التي تدبّر اُمور العالم ، فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية ؟

الإجابة عن هذا السؤال واضحة ، فلو كانت الملائكة لها الإستقلال في التأثير لم يكن ذلك منسجماً مع توحيد الربوبية ولكنّا نعلم أنّها منفّذة للأمر الإلهي وقد أوكلت إليها الاُمور بإرادته ومشيئته نظير الأسباب في عالم الطبيعة



التي لها تأثيراتها بأمر الله .

وقد لاحظ الكثير من المفسّرين هذه النقطة في هذه الآية ولم يجدوا تناقضاً بين القول بأنّ الله ( ربّ العالمين ) و ( ربّ كلّ شيء ) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبير الملائكة بإذن الله ، فكما ينصّ القرآن الكريم على أنّ الرازق لجميع الموجودات هي الذات المقدّسة لله عزّوجلّ ( وما من دابة إلاّ على الله رزقها )(١) في حين يقول في موضع آخر ( وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتُهُنَّ بالمعروف )(٢)، ومن المسلّم به أنّ إطلاق الرازق على والد المولود لا يتنافى مع إطلاقه على الله سبحانه ، فهذا مستقلّ بالذات وذلك بالعرض والتبع .

أو عندما نقول : إنّ في العسل شفاء ( فيه شفاء للناس )(٣) فانّ ذلك لا يتنافى مع أنّ الشافي هو الله فقط ، كما يقول رمز التوحيد ، إبراهيم ( (عليه السلام) ) : ( وإذا مرضت فهو يشفين )(٤).

هذه كلّها تبيّن سلسلة العلّة والمعلول ، أي تبدأ بالعلّة غير المستقلّة حتّى تصل إلى علّة العلل ومسبّب الأسباب ، أي الذات المقدّسة لله تبارك وتعالى حيث يكون كلّ سبب مديناً له في تأثيره .

* * *

٥ ــ « توحيد الربوبية » في الأحاديث الإسلامية

لقد إنعكس هذا المضمون بصورة واسعة في الروايات والأدعية المأثورة عن المعصومين ( (عليهم السلام) ) ومنها الأدعية المختلفة التي وردت في الجزء الثاني من اُصول الكافي ، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الأدعية : « اللهمّ ربّ السموات

---

١ ــ سورة هود : الآية ٦ .

٢ ــ سورة البقرة : الآية ٢٣٣ .

٣ ــ سورة النحل : الآية ٦٩ .
٤ ــ سورة الشعراء : الآية ٨٠ .



السبع وربّ الأرضين السبع ... رب العرش العظيم ... ربّ المشعر الحرام وربّ البلد الحرام وربّ الحل والحرام ... الحمد لله ربّ الصباح ... ربّ الملائكة والروح .. ربّ المستضعفين .. ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وربّ القرآن العظيم وربّ محمّد خاتم النبيين »(١).

كما وردت هذه التعابير في روايات أهل السنّة(٢).

وعليه فلا ربّ للسماء والأرض والملائكة والنبيين والأغنياء والمستضعفين والصباح والمساء والكعبة ومكّة والعرش العظيم إلاّ الله القادر الواحد .

والتنسيق في شؤون الكون وتنفيذ الأنظمة الحاكمة عليه دليل واحد على وحدة المدبّر ، ولذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق ( (عليه السلام) ) قوله للزنديق الملحد الذي سأله عن وحدانية الله عزّوجلّ :

« فلمّا رأينا الخلق منتظماً ، والفلك جارياً ، وإختلاف الليل والنهار والشمس والقمر ، دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد »(٣).

* * *

١ ــ أُصول الكافي : المجلّد ٢ / ص٥١٤ ــ ٥٨٥ .
٢ ــ للمزيد من الإيضاح راجع الجزء ٣ من ( المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ) ص٢٠٧ .
٣ ــ توحيد الصدوق : ص٢٤٤ ، باب٣٦ ( باب الردّ على الثنوية والزنادقة ) .





## جـــ ــ توحيد المالكية

## والحاكمية التكوينية

**تمهيد :**

**من الفروع المهمّة الأُخرى لـــ ( توحيد الأفعال ) هو التوحيد في المالكية ، ويعني أنّ المالك الحقيقي تكويناً وتشريعاً هو الذات الإلهية المقدّسة ، والمالكيات الأُخرى مجازية وغير مستقلّة .**

**إيضاح ذلك : أنّ المالكية على قسمين : مالكية حقيقية ( تكوينية ) ومالكية حقوقية ( تشريعية ) .**

**المالك الحقيقي هو من له السلطة التكوينية والخارجية على الأشياء ، وأمّا المالكية الحقوقية والتشريعية فانّها العقود التي تمضي عليها السلطة القانونية نظير مالكية الإنسان بالنسبة لأمواله .**

**والقسمان من المالكية لله تعالى في الدرجة الأُولى من منظار الموحّد لعالم الوجود ، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع الأشياء في الكون ، لأنّ الموجودات كلّها منه وتستمدّ منه فيض الوجود آناً بعد آن ، والجميع تبع له بهذا تثبت مالكيته الحقيقيّة على كلّ شيء من كلّ جهة .**

وأمّا المالكية القانونية فانّ كلّ شيء له لأنّه الخالق والموجود لجميع الأشياء ، بل حتّى ما نصنعه فانّه هو الذي أعطانا وسائل الإنتاج كلّها وعليه : المالك الأوّل في الحقيقة هو الله ، وأن جعل الأشياء في أيدينا وديعة لعدّة أيّام .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين إلى الآيات التالية :

١ ــ ( قُل اللّهمَّ مَالكَ المُلكِ تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ انَّكَ عَلى كلِّ شَيء قَديرٌ ) سورة آل عمران ــ ٢٦ .

٢ ــ ( أَلَمْ تَعلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرضِ وَمَا لكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ



نَصيْر ) سورة البقرة ــ ١٠٧ .

٣ ــ ( ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم لَهُ المُلْكُ لا إلهَ إلاّ هُوَ فَأَنّى تُصْرَفُونَ ) سورة الزمر ــ ٦ .

٤ ــ ( واللهُ يُؤتي مُلكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ واسعٌ عَليم ) سورة البقرة ــ ٢٤٧ .

٥ ــ ( ذلِكُم الله رَبُّكُم لَهُ المُلْك وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يملِكُونَ مِنْ قِطمير ) سورة فاطر ــ ١٣ .

٦ ــ ( قُلِ اِدْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرة في السَّمواتِ وَلا في الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهما من شِرْك وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهير ... ) سورة سبأ ــ ٢٢(١).

شرح المفردات :

( ملك ) بناءً على ما ورد في المقاييس هو في الأصل : القوّة على الشيء ، ولذا ورد التمليك بمعنى التقوية ، ثمّ استعمل هذا التعبير في ما يصحبه الإنسان من أشياء وذلك لما له من قدرة وقوّة علهيا .

ولذا يطلق على الماء الذي يحمله المسافر ( ملك ) ، لأنّ المسافر الذي يصطحب الماء (خصوصاً في الصحاري الحارّة) يكون قويّاً ومهيمناً على عمله.

( مَلِك ) هو السلطان لقدرته في بلاده .

( ملكوت ) يعني العزّة والسلطنة .

( إملاك ) في العربية يعني التزويج ، لإعتبارهم الزوجة ملكاً لهم !

وأخيراً ( مملكة ) هي الحكومة وعزّة السلطنة ، ومن ثمّ أُطلق على الوطن.

جمع الآيات وتفسيرها :

---

١ ــ وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة أُخرى حول هذا الموضوع متّفقة مع الآيات أعلاه مثل : المائدة : ١٧ ، ١٨ ، ٤٠ ، ١٢٠ ، الأعراف : ١٥٨ ، التوبة : ١١٦ ، الإسراء : ١١١ ، النور : ٤٢ ، الفرقان : ٢ ، ص : ١٠ ، الزمر : ٤٤ ، الشورى : ٤٩ ، الزخرف : ٨٥ ، وغيرها .



الله مالك الملك

قال المفسّرون : إنّ الآية الأُولى نزلت بعد فتح مكّة ، أو حينما كان النبي الكريم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) مشغولا بحفر الخندق قُبيل معركة الأحزاب حيث بشّر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد إعتبر المنافقون ذلك تخيّلات وتكهّنات وتشبّثاً بالمحالات(١).

وفي هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأنذرت الجهلاء بأنّ الله مالك كلّ البلدان حيث قالت : ( قُلِ اللّهمَّ مَالكَ المُلكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاء ) وليس الحكومات فقط وليس العزّة والذلّة بل ( بِيَدِكَ الخَيرُ انَّكَ عَلى كلِّ شَيء قَديرٌ )(٢).

وقدرة الله عزّوجلّ على كلّ شيء هي ــ في الحقيقة ــ دليل حاكميته على الأرض والسماء .

ومن الواضح أنّ لمالكية الله بُعداً عامّاً وحقيقيّاً ، في حين ما جاء في المورد الآخر في جملة ( تؤتي الملك من تشاء ) يكون له بعد جزئي ومجازي .

ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) أو عزّة المؤمنين وذلّة اليهود وما شاكل ــ كما يعتقد بعض المفسّرين ــ بأنَّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الحكومات وكلّ عزّة وذلّة ، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة ، والجملة الأخيرة ( انَّكَ عَلى كلِّ شَيء قَديرٌ ) هي في الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الإلهية العامّة والمطلقة .

وواضح أنّ المشيئة والإرادة الإلهية التي إستند إليها في هذه الآية لا تعني أنّ الله يعزّ أو يذلّ أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب ، بل أنّه وضع في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئة وإرادته .

---

١ ــ مجمع البيان : المجلّد٢ / ص٤٢٧ ، وتفسير الفخر الرازي : المجلّد٨ / ص٤ .
٢ ــ قال بعض اللغويين : الخير والإختيار لهما مادّة واحدة ، والحسنات خير لأنّ كلّ إنسان يختارها ( التحقيق ، المفردات ، تفسير الميزان في ذيل آية البحث ) .



فحينما يوفَّقُ المسلمون يوماً لفتح الأندلس وهي بوابة اوربا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فانّ ذلك حديث وفق تلك الأسباب التي هي مظاهر لمشئيته الإلهية .

وعندما يتسلّط أمثال يزيد وجنگيزخان على الناس فلعلّه نتيجةً لأعمال الناس أنفسهم وأنّهم أهل لمثل هذه الحكومات حيث ورد : ( كما تكونوا يولّى عليكم ) .

من هنا يتّضح الجواب على الأسئلة التي تطرح حول آية البحث وليست بحاجة إلى توضيح أكبر .

* * *

الآية الثانية تنظر إلى الإشكالات الواهية التي أثارت اليهود حول تغيير القبلة بقولهم : هل بإمكان الله أن ينسخ حكماً ويحلّ حكماً آخر محلّه ؟ أن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للكعبة ؟ فتقول : ( أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرضِ ) .

وعليه هل يكون عجيباً أن يقوم مثل هذا الحاكم العظيم بنسخ حكم ؟

إنّه ليس مطّلعاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمية أيضاً وهو مالك التدبير والتصرّف المطلق في الكون في عباده .

ولذا تضيف الآية في ذيلها ( وَمَا لكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصير ) .

إنّه يعينكم في ضوء علمه بالمصالح والمفاسد وفي ظلّ حاكميته يسنّ القوانين ، ثمّ أنّ الله تعالى ليس له مكان لكي تتوجّهوا إليه في الصلاة ، وعليه فانّ قيمة المكان المتّخذ كقبلة ــ مع أنّ الكون بأسره ملك له ــ ناشئة من أمره بذلك .

وقد ورد وصف الله تعالى بأنّه ( ولي ) و ( نصير ) في القرآن بكثرة ، ويمكن أن يكون الإختلاف بينهما من جهتين : الاُولى أنّ ( ولي ) يعني حافظ



المصالح و ( نصير ) هو الذي ينصر الإنسان على عدوّه ، والاُخرى : أنّ ( ولي ) هو الذي يؤدّي عملا لشخص تحت ولايته ، ولكن ( نصير ) هو الذي يعين الإنسان ليتغلّب على مشكلته .

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة إلى خلق الإنسان والحيوانات والتطوّرات العجيبة تقول : ( ذلِكُم اللهُ رَبُّكُم له الملك ) ، فهو الخالق وهو المربّي ولذا فهو المالك والحاكم ، ثمّ تجعل الآية هذه القضيّة مقدّمة لإثبات توحيد العبادة وتضيف : ( لا إلهَ إلاّ هُوَ فَأنّيى تُصْرَفُونَ ) .

فيأيّها الغافلون الجاهلون ويأيّها التائهون في وادي الضلالة ! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الإعتراف بخالقية الله وربوبيته ومالكيته ؟! هذا الجزء من الآية يثبت في الحقيقة ( توحيد العبادة ) إستناداً إلى ( توحيد الحاكمية ) لله تعالى وحاكميته بالإسناد إلى مسألة الخلق التي يذعن حتّى المشركون بأنّها مختصّة بالله عزّوجلّ .

* * *

الآية الرابعة تنظر إلى قصّة طالوت وجالوت ، فقد كان جالوت جبّاراً ومجرماً وحاكماً على بني إسرائيل وقد آذاهم كثيراً .

وقد قام النبي ( اشموئيل )(١) بطلب من بني إسرائيل بتنصيب ( طالوت ) الذي كان من القرويين الفقراء قائداً للجيش وحاكماً على بني إسرائيل !

امّا الملأ من بني إسرائيل فقد احتجّوا على هذا الإنتخاب واعتبروا أنفسهم أرجح منه ، وذلك لما لهم من ثروة وفخامة ! إلاّ أنّ نبيّهم قال لهم بصراحة : ( إنّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ) وأضاف ( إنّ اللهَ اصْطَفاهُ وَزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ

١ ــ احتمل بعض المفسّرين أنّه النبي شمعون أو يوشع ولكنّهما يبدوان بعيدين ، أمّا بالنسبة ليوشع الذي كان وصيّاً لموسى ( (عليه السلام) ) فهو غير ممكن تقريباً .



واللهُ يُؤتي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) .

وعليه فانّه لا يكون حاكماً تكوينياً على عالم الوجود فحسب ، بل إنّ الحاكمية القانونية والتشريعية على المجتمع البشري هي لذاته المقدّسة ويمنحها لمن يشاء وأن كانت إرادته ومشيئته قائمة على أساس الأهلية واللياقة .

* * *

الآية الخامسة تبيّن هذه المسألة في إطار جديد ، فبعد بيان حاكمية الله على الشمس والقمر ونظام النور والظلم تستنتج بهذا النحو بقولها : ( ذلكم الله ربّكم ) ( له الملك ) .

في حين ليس للمعبودات من دونه حاكمية ولا مالكية حتّى بحجم الغشاء الرقيق الذي يغلّف نوى التمر ( وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يملِكُونَ مِنْ قِطْمِير ) .

وقد ذكر المفسّرون واللغويون معانيَ مختلفة لكلمة قطمير ، أشهرها هو الغشاء الرقيق الذي يفصل النوى عن التمر .

وقد فسّره البعض بأنّه يعني التجوّف الأبيض الصغير الذي يوجد على ظهر النوى وينمو منه نبات التمر ، وفسّره البعض بأنّه رأس التمرة ، وفسّره بعض آخر بمعنى الشقّ الموجود على بطن النوى ، أو بمعنى النطفة الحيّة الموجودة في بطن النوى .

ترتبط هذه المعان الخمسة بنوى التمر التي كانت في متناول العرب ، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل، ولكن الأشهرــكما ذكرنا ــ هو المعنى الأوّل وعلى كلّ حال هو كناية عن الشيء الصغير والتافه الذي لا يؤبه له(١).

١ ــ راجع مجمع البيان ، روح المعاني ، القرطبي ، تفسير الميزان ، تفسير المراغي ، مفردات الراغب ، لسان العرب ومجمع البحرين .

والآية هذه دليل واضح على أنّ المالكية والحاكمية لا تكون لأحد سوى الله عزّوجلّ إلاّ أن تكون بمشيئته وهبته .

* * *

وفي الآية السادسة والأخيرة جاء هذا المضمون في إطار جديد ، حيث تخاطب النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : ( قُلِ اِدْعُو الَّذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللهِ ) هل بإمكانهم أن يحلّوا عقدة من مشكلاتكم ؟

ثمّ تقيم دليلا على عجزهم في حلّ المشكلات وتضيف : ( لا يَمْلِكُونَ مِثْالَ ذَرّة في السَّمواتِ وَلا في الأَرْضِ ) ( وَمَا لَهُمْ فِيهما من شِرْك ) ( وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهير ) .

وعليه فانّهم ليسوا مالكين مستقلّين ولا شركاء ولا معاونين ، فأي عمل هم قادرون عليه إنجازه حتّى تسجدوا لهم وتعبدوهم ؟!

بهذه الإستدلالات الواضحة ينفي القرآن الكريم كلّ شرك في المالكية والحاكمية في عالم الوجود الواسع بصورة مستقلّة ومشتركة ومتعاضدة ، وتعتبر ذلك كلّه مختّصاً في الله ، وينزّه الله عن كلّ شريك ومعين وناصر في عالم الوجود كلّه .

المستفاد من مجموع هذه الآيات الستّ والآيات القرآنية المشابهة لها هو أنّ المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون في منظار الموحّد الكامل إلاّ الله ، ولا يملك أحد في أي موضع ومنصب جزءاً صغيراً ، وبهذا لا يبقى للمشركين أي مبرّر لعبادة الأصنام أو ربّ الأنواع أو الملائكة وغيرها .

إيضاحات :

١ ــ التربية الإيمانية وتأثيراتها على ( توحيد المالكية ــ والحاكمية )



الطغيان والغرور والتمرّد والبخل والحسد حالات نفسية تنشأ غالباً من عقيدة الإنسان بأنّه المالك الحقيقي للأموال التي يتصرّف فيها ، ويرى نفسه حرّاً فيما إذا إستلم زمام الحكم في

نطاق واسع أو صغير ، وهذه حالة مشوبة بالشرك وهي منشأ لألوان المعاصي والفساد الإجتماعي .

ولكنّه إذا نظر إلى هاذا العالم بمنظر توحيدي ، وإعتقد ــ كما في الآيات ــ أنّ العالم ملك مطلق لله وإعتبر نفسه ــ كما جاء في سورة الحديد ( وانفِقوا مِمّا جعلكم مستخلفين فيه )(١)ــ أميناً بين يدي الله ، وإستوعب هذا لامعنى بوجوده كلّه ، كيف يمكن أن يقصر أداء ما يريده صاحب الأمانة الأصلي أو يبخل أو يحسد ؟

وكيف يتصوّر أن تكون هذه الأموال سبباً لغروره وطغيانه ، أيكون المال له ؟ وهل يغترّ الموظّف في أحد المصارف بالملايين التي تكون بيده كلّ يوم ؟

وهكذا بالنسبة للحكومات والمناصب التي يتولاّها الناس ، فانّهم ليسوا سوى ممثّلين عن الله في جزء صغير من عالم الوجود هذا ، وبهذا الفهم والرؤية فلماذا الغرور والطغيان ؟ ولماذا الظلم والفساد ؟

إنَّ هذه الرؤية التوحيدية للعالم تصبغ الإنسانية بلون آخر ، لون إلهي ، لون السلام والصفاء والأمن ولون الإنفاق والإيثار .

* * *

٢ ــ إستغلال مفهوم ( ملكية الله )

لا شكّ في أنّ الله تعالى مالك لعالم الوجود بأسره ــ كما تقدّم ــ ومع غضّ الطرف عن الآيات القرآنية الكثيرة فانّ الدليل العقلي شاهد على هذا الأمر ، فإنحصار واجب الوجود في ذاته المقدّسة وإحتياج الموجودات كلّها إليه يكفي

---

١ ــ سورة الحديد : الآية ٧ .



لإثبات هذا المفهوم ولا ينافي هذا المعنى مع المالكية الحقوقية والقانونية لبني الإنسان في الإطار الذي يسمح به الله أبداً ، وما يتشبّث به البعض في قضيّة ( ملكية الله ) لنفي آية ( مالكية خاصّة ) فانّه إستغلال ليس إلاّ ، والعجيب أنّه يطرح ذلك تحت عنوان الفقه الإسلامي ، ويعطي في الحقيقة للإشتراكية أو الشيوعية لوناً إسلامياً .

وبوضوح أكثر نقول : إنّ القرآن الذي يؤكّد على مالكية الله لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلّق بـــ ( الإرث والخمس والزكاة والتجارة ) أيضاً ويضفي الشرعية على الأموال المشروعة التي يتصرّف بها القطّاع الخاصّ ، فقد جاء التعبير ــ ( أموالكم ) في ( ١٤ ) آية قرآنية ، والتعبير بـــ ( أموالهم ) في ( ٣١ ) آية ــ وقد أمّر المسلمين في العديد من الآيات في أموالهم ، فلو كان مفهوم الملكية الإلهية ينفي ملكية الإنسان ، فما هو إذن مفهوم التي وردت في هذه الـــ ( ٤٥ ) آية إضافة إلى آيات كثيرة أُخرى تتعلّق بهذا الموضوع ؟

فالقرآن الكريم يقول في موضع ( وآتوا اليتامى أموالهم ... ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ) (النساء ــ ٢) و ( انّ الّذين يأكُلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً .. ) ( النساء ــ ١٠ ) .

وفي موضع آخر يقول : ( الذين يُنفقونَ أموالَهم في سَبيلِ اللهِ ثُمّ لا يَتبعُونَ ما أنفقوا مَنّاً ولا أَذى لَهمْ أجرُهُم عِندَ رَبّهم ... ) ( البقرة ــ ٢٦٢ ) .

ويخاطب المرابين : ( فان تُبتُم فَلَكم رؤوس أموالِكُم ) ( البقرة ــ ٢٧٩ ) .



د ــ توحيد التقنين

( الحاكمية التشريعيّة )





تمهيد :

من المعلوم أنّ تنظيم شؤون المجتمعات البشرية بحاجة إلى ثلاث سلطات ( السلطة التشريعية ) التي تتكفّل سنّ القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من إضاعة الحقوق ، و ( السلطة التنفيذية ) التي تنفّذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاّها عادةً الحكومات والوزراء والدوائر الحكومية .

و ( السلطة القضائية ) المسؤولة عن معاقبة المتخلّفين عن القانون والمجرمين والمعتدين .

في الرؤية التوحيدية الإسلامية نستمدّ هذه الاُمور الثلاث من ذات الله سبحانه وتعالى ولا يكون فيها حكماً جائزاً إلاّ بإذنه وأمره فهو الذي شرّع القوانين وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين ، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة ، وعليه فانّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعيتها عن طريق الإذن الإلهي طبق الشرائط والأوامر ، وهذا المعنى له إنعكاس واسع في الآيات القرآنية إضافةً إلى إمكانية الإستدلال عليه عقليّاً .

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنستمع خاشعين إلى الآيات القرآنية :

١ ــ ( وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الكافِرونَ ) سورة المائدة ــ ٤٤ .

٢ ــ ( وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظالِمونَ ) سورة المائدة ــ ٤٥ .

٣ ــ ( وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ ) سورة المائدة ــ ٤٧ .

٤ ــ ( وَأَن احْكُمْ بَينَهُم بِما أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ واحْذَرْهُم أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيكَ ) سورة المائدة ــ ٤٩ .

٥ ــ ( فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحكِّموكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثمَّ لا يَجدُوا في أَنْفُسِهِم حَرجاً ممّا قَضَيْتَ وَيُسلّمُوا تَسليماً ) سورة النساء ــ ٦٥ .



٦ ــ ( إنّ الحُكم إلاّ لِلّه ) سورة الأنعام ــ ٥٧ ، وسورة يوسف ــ ٦٥ .

٧ ــ ( وَهُوَ الله لا إلهَ إلاّ هُوَ لَهُ الحمدُ في الاُولى والآخِرةِ وَلَهُ الحُكْمُ وإلَيهِ تُرْجَعُونَ ) سورة القصص ــ ٧٠ .

٨ ــ ( وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا إلهَ إلاّ هُوَ كُلّ شَيء هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكم وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) سورة القصص ــ ٨٨ .

٩ ــ ( وَمَا اَختَلَفْتُم فِهى مِنْ شَيء فَحُكْمهُ إلى اللهِ ذلِكُم اللهُ رَبِّي عَلَيه تَوكَّلتُ وَإلَيْهِ اُنيبُ ) سورة الشورى ــ ١٠ .

١٠ ــ ( أَفَغَيرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَماً وَهُوَ الّذي أَنْزَلَ إِلَيكُم الكتابَ مُفَصَّلا ) سورة الأنعام ــ ١١٤(١).

شرح المفردات :

( حكم ) على وزن ( قُفل ) ويعني في الأصل ــ كما يقول الكثير من كبار اللغويين ــ المنع والصدّ(٢) ومن ثمّ أُطلق على ( القضاء ) و ( الحكومة ) ، لأنّ القاضي والحاكم يمنعان الناس بأحكامهما الحازمة من مخالفتها أو إرتكاب الأعمال الممنوعة .

( حَكَمه ) تعني الحديدة التي توضع في فمّ الحيوان أو أنفه كلجام ، ولدى سحبه يتألّم الحيوان ويستسلم ويوجد هنا معنى المنع نفسه أيضاً .

وفي ( لسان العرب ) : لــ ( حكم ) معان مختلفة كالعلم والفهم والقضاء بالحقّ والعدل ( حيث تصدّ هذه الأُمور الإنسان عن المخالفة ) ويطلق ( حكيم ) على من كان ذا معرفة كافية تصدّه عن إرتكاب الأعمال السيّئة .

ومن اللازم التذكير بهذه النقطة وهي أنّ هذه الكلمة تستعمل في الموارد

---

١ ــ هنالك آيات قرآنية كثيرة وردت بهذا المضمون أيضاً مثل المائدة : ٤٨ ، و٥٠ ، الكهف : ٢٦ ، الأعراف : ٨٧ ، يوسف : ١٠٩ ، هود : ٤٥ ، يوسف : ٨٠ ، التين : ٨ ، النساء : ٦٠ .

٢ ــ المفردات غ مقاييس اللغة ومصباح المنير للفيومي .



الثلاث ( التشريعية والقضائية والتنفيذية ) حيث يطلق الحاكم على الموارد الثلاث ، ولذا فانّ البعض من كتب اللغة تذكر أنّ أحد معاني حكم هو تفويض الأمر والفعل لشخص ما .

ورد في كتاب ( العين ) أنّ لفظ ( حكمة ) يرجع إلى مفهوم العدل والعلم والحلم ، ويقول صاحب الكتاب : إنّ هذه الكلمة فُسّرت بمعنى ( المنع ) أو ( المنع من الفساد ) ، وهذا ينسجم مع ما نقلناه عن اللغويين . والآيات المحكمات أُطلق عليها هذا اللفظ لأنّ صراحتها ووضوحها يمنع من أي تفسير أو تأويل خاطيء .

جمع الايات وتفسيرها :

من لم يحكم بما أنزل الله

في الآيات الأربعة الاُولى (الآية ٤٤، ٤٥، ٤٧، من سورة المائدة) إضافة إلى الآية (٤٩) من السورة نفسها عرض لمسألة توحيد الحاكمية بأوضح وجوهه.

تقول الآية الاُولى والثانية والثالثة : ( وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الكافِرونَ .. هم الظالِمون ... هم الفاسقون ) .

وللمفسّرين أقوال في هذه العبارات هل أنّها تتضمّن مفاهيم مختلفة أو أنّها تشير إلى مفهوم واحد ؟

فبعض يعتقد أنّها تنظر إلى جماعة واحدة ، وأنّها صفات متعدّدة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب : من يحكم بخلاف ما أنزل الله فانّه يخالف الله وينهض بوجه الله فهو كافر من هذه الجهة .

ومن جهة ثانية أنّه يوجّه ضربه للحقّ الإنساني فهو ظالم .

ومن جهة ثالثة أنّه يخرج من نطاق واجباته فهو فاسق ( لاحظ أنّ الفسق يعني الخروج عن واجبات العبودية ) .

وقال بعض آخر : إنّ الآية الاُولى والثانية ــ وبقرينة ما قبلها ــ تقصدان



اليهود ، سحين تتحدّث الآية الثالثة عن النصارى ، وبما انّ عداء اليهود للأحكام الإلهيّة أشدّ من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بينما حكم على هؤلاء بالفسق .

ولكنّا نعلم أنّ نزول الآيات في موارد خاصّة لا يحدّد مفاهيمها الكلّية بتلك الموارد ، وعليه فانّ الآيات هذه تشمل جميع الذين يحكمون بغير ما أنزل الله .

إنَّ صدق الظلم والفسق فيمن يرتكب هذه المعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون في حالة الردّ لحكم الله والإعتقاد ببطلانه ، لأنّ ذلك أمّا إعتقاد يلازمه إنكار الذات المقدّسة أو علمه وحكمته وعدله ، وهذا يستوجب الكفر قطعاً ، وهكذا إذا رجع إنكار هذا الحكم إلى إنكار القرآن أو رسالة نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) .

ولكنّه إذا حكم بغير ما أنزل الله فقط وكان المنشأ فيه هوى النفس مثلا لا إنكار التوحيد أو النبوّة فانّه لا يستوجب الكفر .

وقد ورد في الآية ( ٤٨ ) من هذه السورة أمر هو : ( فاحْكُمْ بَينَهُم بِما أنْزَلَ اللهُ ) وفي الآية ( ٤٩ ) : ( وَأَن احْكُمْ بَينَهُم بِما أنْزَلَ اللهُ ) وتقول الآية ( ٥٠ ) : ( أَفَحكم الجاهلية يَبغون وَمنْ أحسنُ مِنَ الله حكماً لقوم يوقنون ) .

إنّ الآيات الستّ هذه تؤكّد على هذا المعنى وهو ( الحكم حكم الله فقط ) .

إنّ هذه التعابير المختلفة وهذا التأكيد المثالي الذي ورد في هذه الآيات الستّ في سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهي أنّه لا يحقّ التشريع لأمىْ مقام إلاّ الله ، وكلّ من يفتي أو يقضي أو يحكم على خلاف حكم الله فانّه يقترف إثماً عظيماً وظلماً وينزع عنه ثوب الإيمان أيضاً .

بهذه يثبت توحيد الحاكمية التشريعية وحصر التشريع في ذات الله المقدّسة وحصر الحكم في حكم الله .

* * *

[٣٣٦]

الآية الخامسة تتحدّث عن مقام القضاء وتعتبره من مختصّات رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ( الذين ينصبون من قبله أئمّة بالمعنى المطلق أو في خصوص القضاء ) وتقول : ( فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحكِّموكَ فِيما شَجَرَ بَينَهمْ ) ( ثُمَّ لا يَجدُوا في أنْفُسِهم حَرجاً ممّا قَضَيْتَ ) ( وَيُسلّمُوا تَسليماً ) .

وعليه تكون علامات الإيمان الحقيقي ثلاثة : الإحتكام إلى النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) في كلّ إختلاف وعدم الشعور بالأذى من حكمه وتنفيذه بالكامل في الخارج ، وبهذا فانّ الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمية ، أي الحاكمية في القضاء منحصرة في الله عزّوجلّ ( لأنّ النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ممثّل عن الله ) .

* * *

الحكم حكم الله فقط

الآية السادسة تقول بتعبير قصير : ( انّ الحكم إلاّ لله ) .

**لقد تكرّرت هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً ولها مفهوم واسع حيث تتضمّن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكويني والأحكام التشريعية ، غير أنّ هذا التعبير في سورة الأنعام الآية ( ٥٧ ) وسورة يوسف الآية ( ٦٧ ) جاء في مورد الحكم الإلهي بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم .**

**على كلّ حال فانّ الإختلاف في موارد التعبير هذه دليل واضح على أنّ مفهوم الآية واسع كما قلنا ، ويعتبر كلّ حكم وأمر مختصّاً في الله ، في عالم التكوين وعالم التشريع .**

* * *



الآية السابعة وبعد أن وصفت الله عزّوجلّ بإستحقاق العبودية والحمد والثناء في الدنيا والآخرة تقول : ( وَهُوَ الله لا إلهَ إلاّ هُوَ لَهُ الحمدُ في الأُولى والآخِرةِ ولَهُ الحُكْمُ وإلَيهِ تُرْجَعُونَ ) .

وعبارة (وله الحكم) في الحقيقة دليل على إنحصار الأهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عزّوجلّ لأنّ ( المعبود ) و ( المحمود ) هو من كان حكمه نافذاً في كلّ شيء وفي الجميع ، وأن قال بعض المفسّرين أمثال ابن عبّاس : بأنّ المراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم القيامة(١) وليس بأيدينا أي دليل على تحديد معنى الآية، وقلنا مراراً: إنّ خصوصية المورد لاتمنع عمومية مفهوم الآية.

وعليه فانّ الآية أعلاه تشمل توحيد حاكمية الله في عالم التكوين وفي عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (في تفسير الميزان إشارة إلى عمومية مفهوم الآية )(٢).

وينبغي ملاحظة أنّ عبارة ( له الحكم ) تدلّ على الحصر من جهتين : أحدها من جهة أنّ ( له ) مقدّم ، والأُخرى من جهة أنّ كلمة ( الحكم ) جاءت مطلقة أي أنّها تشمل أنواع الحاكمية كلّها .

والجدير ذكره أنّ إنحصار المالكية في الله لا يمنع من أن يضعها الله في إختيار الأنبياء والأئمّة المعصومين والعباد الصالحين فالبحث يدور حول المبدأ الأصلي للحاكمية ، كما أنّ إختصاص الحمد والثناء في ذاته المقدّسة لا يمنع من أن يثني الإنسان على العباد الصالحين وهم وسائط النعمة والوالدين أو المعلّم ، ولابدّ من ملاحظة أنّ هذه الأُمور كلّها من الله وهذا هو معنى الحاكمية .

* * *

---

١ ــ تفسير روح المعاني : المجلّد ٢٠ / ٩٢ .

٢ ــ تفسير الميزان : ٧٠/١٦ .

الآية الثامنة تتحدّث أوّلا عن توحيد العبادة ثمّ توحيد الحاكمية حيث تقول : ( وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ إلاّ هُوَ ) ثمّ تقول بما يتضمّن الدليل على هذا الحكم : ( كُلّ شَيء هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ) وتضيف أخيراً : ( لَهُ الحكم وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .

هذه الآية تخصّص العبادة في الله وهكذا البقاء والحكم والقضاء وأن اعتبر البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكويني وإرادة الله النافذة في كلّ شيء ، وإعتبرها البعض الآخر بمعنى القضاء يوم القيامة .

وقال البعض : إنّ الحكم هنا له جانب تشريعي فقط ، غير أنّ الإطلاق هو الظاهر من الآية ويشمل كلّ حكم في عالم الوجود وعالم الشريعة والدنيا والآخرة .

أمّا المراد من ( الوجه ) في العبارة ( كُلّ شَيء هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ) فانّ البعض فسّره بمعيّة الأعمال الصالحة التي تنجز لله تعالى ، فيما فسّره البعض الآخر بمعنى الدين والقانون ، والبعض الآخر بمعنى مقام الربّ .

ولكنّا نعلم أنّ ( وجه ) يعني في الأصل ( الصورة ) وكما يقول الراغب : أنّ الوجه هو أوّل ما يواجه الأشخاص الآخرين وهو أشرف الأعضاء في الإنسان ، ولذا أُطلقت هذه الكلمة على الموجودات الشريفة ، وبهذه المناسبة يطلق على ذات الله المقدّسة وقد إستعملت بهذا المعنى في الآية ظاهراً .

وبما أنّ كلّ موجود يرتبط بهذه الذات الباقية والأبدية ، فانّه يتلوّن بلون الأبدية فانّ دين الله وشريعته والأعمال المنجزة من أجله والأنبياء تكون خالدة وباقية لإرتباطها بالله تعالى ، بهذا تجتمع التفاسير المذكورة في مضمون الآية .

* * *

عند الإختلاف ارجعوا إلى الله ورسوله

[٣]

الآية التاسعة ترى ( الحاكمية ) بمعنى القضاء حيث تقول : ( وَمَا اَخْتَلَفْتُم فِيه مِنْ شَيء فَحُكْمهُ إلى اللهِ ) .

أجل ، إنّه وحده القادر على رفع الإختلاف فيما بينهم لأنّه عالم بكلّ شيء وله الولاية على الجميع .

وتضيف الآية : ( ذلِكُم اللهُ رَبِّي عَلَيه تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ اُنيبُ ) .

وهناك أقوال عديدة في تفسير هذه الآية ، فالبعض إعتبرها ناظرة إلى الإختلافات والخصومات بين الناس الذين وجَبَ عليهم الإحتكام إلى النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ، فيما إعتبرها البعض الآخر إشارة إلى الإختلاف في تأويل الآيات وتفسيرها ، في حين إعتبرها البعض الآخر ناظرة إلى الإختلاف في العلوم المرتبطة بالمفاهيم الدينية والتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة الروح وأمثالها(١).

ولكنّا لا نرى دليلا لتحديد مفهوم الآية ، بل كما قال بعض المحقّقين : إنّ الآية تشمل كلّ قضاء سواء كان في الأحكام أو في المفاهيم الدينية أو في معنى الآيات المتشابهة أو غيرها .

إنّ الآية هذه من الآيات التي تثبت هذه الحقيقة بوضوح وهي أنّ كلّ المسائل التي يحتاجها الناس قد وردت في الكتاب والسنّة ، ويكون كلّ قياس وتشريع وأمثاله باطلا ، فلولا وجود هذه الأحكام كلّها في الكتاب والسنّة فلا معنى لإرجاع جميع الإختلافات إلى الله فيها ( تأمّل جيّداً ) .

والملاحظ أنّ الفخر الرازي وبعض المفسّرين قد أقرّوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآية من جملة الأدلّة المبطلة للقياس في الأحكام الفقهية(٢).

فالآية تقول : يجب إرجاع الحكم في جميع الإختلافات إلى الله ( النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ( طبعاً هو ممثّل عن الله بين الناس ) ، فلو لم يتضمّن الكتاب

---

١ ــ نقلت هذه التفاسير الثلاثة عن المفسّرين في روح المعاني : ج٢٥ ، ص١٥ .

٢ ــ تفسير الفخر الرازي : ١٤٩/٢٧ .



والسنّة طرق حلّ الإختلافات في الأحكام والعقائد وما يتعلّق بالشرع لكان إرجاع الإختلافات إلى الله عزّوجلّ بلا معنى .

* * *

الآية العاشرة والأخيرة تقول كاستنتاج عام عن لسان النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : ( أَفَغَيرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَماً وَهُوَ الّذي أَنْزَلَ إِلَيكُم الكتابَ مُفَصَّلا ) وعليه فانّ ( الحكم والحاكم والقاضي ) هو ذاته المقدّسة فقط لأنّه عالم بكلّ شيء ، والقرآن أفضل دليل على علمه(١).

وأمّا السؤال عن أنّ الحكمية في أي شيء تكون ؟ فانّ القرائن تشير إلى أنّ المقصود هو الإحتكام إلى الله في حقّانية الرسول الأكرم ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) .

وشأن النزول الذي ينقل في هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل : إنّ مشركي قريش إقترحوا على النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) أن اجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود أو قسس النصارى ؟ كي يخبرونها عنك بما يتوفّر لديهم من كتب سماوية(٢).

فنزلت الآية وردّت : هل يكون الحكم أحداً غير الله !

وذيل الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً بقولها : ( والَّذين آتيناهم الكتاب يعلمون انّه منزل من ربّك بالحقّ ) .

على كلّ حال فانّ مفهوم الآية واسع ويحصر الحَكَمية لجميع الاُمور دون

---

١ ــ ( حكم ) كما يعتقد المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والشيخ الطوسي في ( التبيان ) يطلق على من لا يحكم إلاّ بالحقّ في حين أنّ ( الحاكم ) يمكن أن يحكم بغير الحقّ ، ولكن لم يتوضّح من أين استفيد هذا المعنى إلاّ أنّ القدر المسلّم به هو أنّه صفة مشبهة وتدلّ على الدوام والإستمرار ويطلق على من يحكم باستمرار ، والقصّة المعروفة عن ( الحكمين ) في حرب صفّين شاهد على نفي هذا المعنى ، غير أنّ هذه الكلمة أو كلمة ( حاكم ) إذا استعملت في الله فانّها إشارة إلى القضاء والحكم المنزّه عن كلّ ظلم وخطأ وليس لهذا إرتباط بالأصل اللغوي .

٢ ــ تفسير روح المعاني : ٧/٨ .



إستثناء في ذات الله المقدّسة لأنّا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهوم الآية أبداً .

* * *

المستفاد جيّداً من الآيات العشرة هذه هو أنّ الحاكمية ونفوذ الحكم والأمر في عالم الوجود وفي عالم الشريعة مختصّ في ذات الله المقدّسة .

والحاكمية بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى التنفيذ كلّها تنشأ منه تعالى ومن يرغب في التصدّي لبعض هذه الاُمور فلابدّ أن يكون ذلك بإذنه وأمره .

غير أنّ الآيات المذكورة مختلفة ، فبعضها يلاحظ فروع الحاكمية كلّها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط ، ولكن المستفاد من المجموع هو مسألة ( توحيد الحاكمية ) بجميع أبعادها من هذه الآيات .

إيضاحات :

١ ــ حاكمية الله في المنطق العقلي

لا شكّ أنّ كلّ عارف بالله مقرّ بتوحيد الخالق يذعن بنفاذ أمره في عالم الوجود ، وعندما يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فانّه سوف لا يتردّد في ولايته وحكومته التشريعية لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير والمدبّر فغيره لا يكون أهلا للتشريع ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق .

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فانّه هو الذي يجب أن يحكم في مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضي في الإختلافات ، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّوجلّ وتدبيره بدون إذنه ، من جهة اُخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان



وروحه ويلبّي حاجاته الماديّة والمعنوية ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة وطويلة ، وأن يكون ذا ضمان تنفيذي كاف وذا تقبّل وإنشداد في المجتمع الإنساني .

وبتعبير آخر يكون المشرِّعُ الحقيقي عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة اُخرى كي يلاحظ بدقّة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين .

وما نشاهده من إختلال كبير في القوانين البشرية فانّه ناشيء من :

أوّلا : فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم ، فلا زالت تؤلّف كتب من قبل المفكّرين تحت عنوان (

الإنسان موجود مجهول ) وما شاكل ، فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع ؟

ثانياً : الإنسان موجود محتاج إلى غيره ، ولذلك نجد أنّ كلّ مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب .

ثالثاً : الإنسان غير مصون عن الخطأ والإشتباه ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيّر المستمرّ وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمان فيبادر لإصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب اُخرى ، وهكذا ، من هنا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم ، إختباراً لا طائل فيه ولا نهاية !.

وبقطع النظر عن مسألة مالكية الله وخالقيته لا يصلح أحد للتشريع أصلا إلاّ من كان خالقاً للإنسان وعالماً بكلّ متطلّباته الجسمية والروحية وغنيّاً عن كلّ شيء وكلّ إنسان ومنزّهاً عن كلّ خطأ وإشتباه .



وواجبنا الوحيد هو تطبيق اُصول القوانين الإلهية العامّة على مصاديقها وجعل الأحكام العامّة أحكاماً جزئية قابلة للتنفيذ .

* * *

٢ ــ الحكومة وديعة إلهيّة

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيّدة أنّ الحكومة وديعة إلهية . وعلى الحكّام والمسؤولين العمل كنوّاب عن الله تعالى ، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الأصلي للحكومة ، أي الله سبحانه وتعالى في جميع المجالات .

وقد خاطب الله عزّوجلّ النبي داود ( (عليه السلام) ) وهو ملك لأحد أوسع الحكومات في التاريخ البشري : ( ياداود اِنّا جعلناكَ خَلِيفَةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله )(١).

إنَّ هذا التعبير يشير من جهة إلى أنّ الحكومة وديعة ، وإلى المنهج والطريقة للحكومة الإلهية الشرعية والصحيحة من جهة اُخرى .

* * *

**٣ ــ شرعية الحكومات من الله فقط**

**في الإسلام والرؤية التوحيدية تتعيّن الحكومة من الأعلى وليس من الأسفل ، أي من قبل الله عزّوجلّ لا من قبل الناس ، ويضمن الجانب الإجتماعي لها بأمره أيضاً .**

**توضيح ذلك : انّ إحدى الفوارق الواضحة بين الرؤية التوحيدية وبين**

---

١ ــ سورة ص : ٢٦ .



**الرؤية المشوبة بالشرك في قضيّة الحكومة هي أنّ الموحّد يعتقد أنّ الحكومة في جميع أبعادها ( التشريعية والتنفيذية والقضائية ) نشأت من الله ومن ثمّ إنتقلت إلى الأنبياء وأوصيائهم ثمّ الصالحين والعلماء في الاُمم .**

**لابدّ أن يشعر هؤلاء الحكّام بالمسؤولية أمام الله عزّوجلّ ، ويراعوا رضاه قبل كلّ شيء ، وأن يكونوا خدمة مخلصين واُمناء لعباده .**

**إنّ مثل هذه الحكومة وبوحي من الرسالة الإلهية يمكنها قيادة البشر ، لا أن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المنحرفة والمشوبة بالمعاصي .**

**ومن الممكن أن يقال : بأنّ الحكومة الإسلامية إذن ليس لها بعد إجتماعي بل هي أكثر ما تكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين ، ولكن هذا خطأ كبير لأنّ مبدأ الشورى الذي تقرّر في الشرائع التوحيدية كقضيّة أساسية في الحكومة وأكّد عليها النصّ القرآني ويشهد له فعل نبي الإسلام ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وهو صاحب مقام ( العقل الكلّ ) يدلّ على أنّ الله هو ( مالك الملك ) و ( أحكم الحاكمين ) هو الذي أمر بالمشورة مع الناس في أمر الحكومة وإشراكهم في هذا الشأن .**

**من هنا تكون الحكومة التوحيدية والإسلامية حكومة ( شعبية دينية ) ويعني ذلك الإهتمام بآراء الناس بأمر إلهي وذلك في إطار مباديء العقيدة والأحكام الإلهية طبعاً ، وسيأتيى تفصيل هذا الكلام بشكل كامل في مباحث الحكومة في الإسلام بإذن الله .**

النتيجة هي أنّ الناس ــ مثلا ــ عندما يتوجّهون إلى صناديق الإقتراع في الحكومة الإسلامية لإنتخاب رئيس الجمهورية أو نوّاب المجلس فانّهم يلاحظون هذه النقطة وهي أنّهم اُمناء الله تعالى ، فالواجب هو أن يضعوا هذه الوديعة الإلهية التي إسمها الحكومة في يد من يتّصف بالقيم الإلهية ، وإلاّ فانّهم يخونون الأمانة .

تقول الآية ( ٥٨ ) من سورة النساء ( انّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) وقد ورد في الروايات الإسلامية



إنّ إحدى المصاديق المهمّة للأمانة هي الحكومة ، وقد تأكّد هذا الأمر في تفسير الدرّ المنثور حيث قال : « حقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدّي الأمانة »(١).

وعليه فانّهم لا يفكّرون أبداً بأي نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو الفئوية أو من هو الذي تربطهم معه الصداقة أو القرابة ؟ من الذي يرتاحون إليه أو لا يرتاحون ؟ بل ينبغي أن يراعوا الله عزّوجلّ ورضاه والقيم الإنسانية والدينية السامية في كلّ موضع .

أمّا في الحكومات الديمقراطية والشعبية في العالم المادّي يمكن أن تنظر هذه الاُمور في آراء المقترعين من قبيل الميول الشخصية والفئوية ، الإتّفاقات السياسية ، المصالح المادّية اللامشروعة والعلاقات الخاصّة وأمثالها .

لاحظ الفارق من أين وإلى أين ؟

* * *

٤ ــ الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية

ممّا ذكر يتّضح جانب من تأثير الإيمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الإعتقاد بحاكمية الله في جميع الأعباد ، وأنّ الحكومة وديعة إلهية عند الناس ، فعند التعيين سواء كان في المسؤوليات الكبيرة في الحكومة أو الصغيرة ينبغي أن يراعى فيه مبدأ الأمانة والوديعة الإلهية وعدم التضحية بالضوابط فداءً للعلاقات وعدم التضحية بمصالح المجتمع من أجل مصالحهم .

وأمّا من جهة الحكّام فانّا نعلم بأنّ المشكلة الهامّة في العالم مشكلة الحكّام المستبدّين الذين أضرموا النيران طيلة التاريخ في مناطق واسعة من العالم ، أو في العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير للبشرية .

في هذا العصر قام ( هتلر ) بقتل عشرات الملايين ، و ( ستالين ) مسؤول

---

١ ــ تفسير الدرّ المنثور : ٢/١٧٥ .



عن مقتل ( ٣٠ ) مليون إنسان ! حسب الإحصاءات المروّعة التي نشرت من قبل شعبه ، ولا تزال أوضاع العالم بهذا النحو وان كانت بصور اُخرى .

في حين لو كان الإنسان ذا رؤية توحيدية لآمن بأنّ الحكومة المطلقة مختصّة بالله تعالى وقد فوّضت إليه بإذنه عزّوجلّ وإعانة عباده وانّه خليفة الله في الأرض فانّه لا يكون إنساناً مستبدّاً مغروراً وظالماً أبداً ، وعندما يصل إلى الحكومة يقول كما قال علي ( (عليه السلام) ) : « ... وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظَّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أوّلها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز »(١).

أجل إنّه يرى الحكومة في كلّ الأحوال وديعة إلهية وهو أمينها ومسؤول أمام صاحبها الأوّل . وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة الحكومة في العالم بشرط أن تنفذ إلى أعماق الروح وتتلوّن الروح الإنسانية بلونها .

ولا يصدق هذا الأمر على المتصدرّين في الحكومة فحسب ، بل يصدق جميع العاملين في الحكومة والاُمراء والقادة والمديرون والقضاة .

المعلوم من مجموع ما مرّ من أبحاث هو أنّ الحكومة في الإسلام ليس لها شكل إستبدادي وليست من الطراز الديمقراطي الغربي ، بل هي نوع من الحكومة الشعبية التي تعمل في إطار العقيدة ولها لون إلهي في أساسها ، عن هذا الطريق تكتسب لوناً شعبياً وتنشأ كلّ إمتيازاتها من هنا .

وهناك كلام طويل حول ( الحكومة في القرآن ) والمطروح هنا هو ( التوحيد في الحاكمية ) و ( نشوء الحكومة من الله ) ولذا نوكل الباقي إلى البحث العامّ حول الحكومة بإذن الله .

* * *

---

١ ــ نهج البلاغة : الخطبة ٣ .

[٣٤٧]

[٣٤٨]

هـ ــ توحيد الطاعة

[٣٤٩]

[٣٥٠]

تمهيد :

الكلام الأخير في باب فروع التوحيد هو أنّ الإنسان الموحّد يعتقد بأنّ الله وحده واجب الإطاعة ولذا يضع طوق العبودية في رقبته ويفتخر بقوله : إنّي عبد ويستعدّ للتضحية بنفسه ويعلن عن إستعداده لتنفيذ أمره .

ويقوم بإطاعة الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين ومبعوثيهم بوصفها فرعاً لعبادة الله عزّوجلّ ويحترم أوامرهم .

إنّه يفكّر بأمر واحد فقط هو رضا المحبوب الحقيقي وإمتثال أوامر المولى الحقيقي ، إنّه لا يشتري ( رضا الناس ) بـــ ( سخط الله ) ولا ( إطاعة المخلوق ) بـــ ( معصية الخالق ) ، لأنّه يرى ذلك شعبة من الشرك .

إنَّ هذا الفرع من التوحيد وهو ( توحيد الطاعة ) ينشأ من الواقع من التوحيد في الحاكمية الذي مرّ في البحث السابق .

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم للإستماع بخشوع إلى الآيات التالية :

١ ــ ( وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاْحذَرُوا فَإنْ تَولَّيتُمْ فَاعلَموا انَّما عَلى رَسُولِنا البَلاغُ المُبينُ ) سورة المائدة ــ ٩٢ .

٢ ــ ( قُل أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فَإنْ تَولَّوْا فَإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافِرين ) سورة آل عمران ــ ٣٢ .

٣ ــ ( ياأَيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعوا الرَّسولَ وأُولِيْ الأَمر مِنْكُم فَإنْ تَنَازَعتُمْ في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِر ) سورة النساء ــ ٥٩ .

٤ ــ ( فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتم وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ) سورة التغابن ــ ١٦ .

[٣٥١]

٥ ــ ( فاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ) سورة الشعراء ــ ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٩ ، سورة آل عمران ــ ٥٠ ، سورة الزخرف ــ ٦٣ .

٦ ــ ( اتَّبعوا مَا أُنْزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تتبِعوا مِنْ دُونِهِ أولياء ) سورة الأعراف ــ ٣ .

٧ ــ ( وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَغ ضَلالا مُبيناً ) سورة الأحزاب ــ ٣٦ .

٨ ــ ( ياأَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُقدِّموا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِه واتّقوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَليمٌ ) سورة الحجرات ــ ١ .

٩ ــ ( اتَّخذوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُم أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ والمَسيحَ بنَ مَرْيمَ وَمَا أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سُبْحانَه عَمّا يُشْرِكُونَ ) سورة التوبة ــ ٣١ .

١٠ ــ ( أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يابَني آدَمَ أَنْ لا تَعبُدوا الشَيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدوٌ مُبينٌ * وَأن اعبدوني هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ) سورة يس ــ ٦٠ ، ٦١(١).

شرح المفردات :

( إطاعة ) تعني في الأصل الإنقياد والتسليم ( وقد صرّح بذلك الكثير من اللغويين ) ومن ثمّ أُطلق على اتّباع الأمر .

وقد فرَّق البعض بين ( الإطاعة ) و ( المطاوعة ) ففسّر الإطاعة بمعنى الإنقياد وتنفيذ الأمر ، والمطاوعة بمعنى الموافقة والإنسجام ، ولذا يقول الخليل ابن أحمد في كتاب ( العين ) : تستعمل ( الإطاعة ) في مورد الرعية بالنسبة للقائد، وفي مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل ( طواعية ) أو ( مطاوعة ) .

جمع الآيات وتفسيرها :

إلهنا : نطيع أمرك وحدك

---

١ ــ هنالك آيات قرآنية كثيرة أُخرى تتفق مع الآيات أعلاه مضموناً منها : الأنفال : ٢٠ ، ٤٦ ، النور : ٥٤ ، محمّد : ٣٣ ، المجادلة : ١٣ ، النساء : ١٦ ، الأنعام : ١٥ ، يونس : ١٥ ، الزمر : ١٣ .



إنَّ آية البحث الاُولى وان جاءت بعد تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام إلاّ أنّ محتواها لا يخفى كونه حكماً عامّاً حيث تقول : ( وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ واْحذَرُوا ) ، وتضيف لدى تأكيدها على هذا الأمر : ( فَإنْ تولَّيتُمْ فَاعلَمُوا انَّما عَلى رَسُولِنا البَلاغُ المُبينُ )(١).

ومن الواضح أنّ إطاعة الرسول رشحة من رشحات إطاعة الله تعالى وإطاعته إطاعة الله ، لأنّه لا يبيّن سوى كلام الله وأمره ، ولعلّ إشارة في تكرار جملة ( أطيعوا ) إشارة إلى هذا المعنى ، أي أنّ الإطاعة الاُولى لها جانب ذاتي وأصلي والثانية لها جانب عرضي وفرعي .

* * *

والآية الثانية تعكس هذا المضمون من خلال توجيه خطاب للنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) : ( قُل أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإنْ تَولَّوْا فَإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافِرين ) ذيل الآية يشهد جيّداً بأنّ التمرّد يستوجب الكفر ، التمرّد الحادث عناداً وعداءً لأمر الله تعالى والنبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) ، أو نتوسّع في معنى الكفر حتّى يشمل كلّ معصية .

على أي حال فانّ الآية تؤكّد على وجوب طاعة الله ونبيّه أي اتّباع الكتاب والسنّة .

النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) في هذه الآية وان كان معطوفاً على الله تعالى بدون واسطة ولكن بملاحظة الآية السابقة التي تقول ( قل ان كنتم تحبّون الله فاتّبعون ) يتّضح أنّ إطاعة النبي ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) هي فرع لإطاعة الله تعالى .

* * *

---

١ ــ جزاء الشرط في الآية محذوف يقدّر بـــ ( قامت الحجّة عليكم ) أو ( استحققتم العقاب ) أو ( لم تضرّوا بتوليكم الرسول ) ( تفسير مجمع البيان ، الفخر الرازي ، روح المعاني والمراغي في ذيل آية البحث ) .



وهذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ علامة الحبّ الحقيقي لله ورسوله هي إطاعتهما واتّباعهما وإلاّ كان حبّاً كاذباً أو ضعيفاً جدّاً .

* * *

الآية الثالثة تضيف إطاعة اُولي الأمر إلى إطاعة الله ورسوله وتأمر ( يأَيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسولَ واُولِي الأمرِ مِنْكُم فَإِنْ تَنَازَعتُمْ في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ) .

وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ الإطاعة مختصّة في الله ثمّ رسوله واُولي الأمر ، ولحلّ أي نزاع لابدّ من الإستعانة بهم ، وبدون ذلك فانّ قواعد الإيمان بالمبدأ والمعاد ستتزعزع في قلب الإنسان وروحه .

* * *

الآية الرابعة تتحدّث عن إطاعة الله فقط حيث تقول : ( فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ) ، فهي تأمر بالتقوى أوّلا وتجنّب المعاصي لأنّ ( التحلية ) والتطهير يتقدّمان على ( التخلية ) ، ثمّ تأمرنا ثانياً بالإستماع لأمر الله إستماعاً يكون مقدّمة للإطاعة ، وتأمر أخيراً بإطاعة أمره دون قيد أو شرط ، وهذه الإطاعة المطلقة مختصّة في الله عزّوجلّ وما يظنّه البعض من أنّ عبارة ( فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُم ) نسخت الآية ( ١٠٢ ) من سورة آل عمران ( اتّقوا الله حقّ تقاته ) خطأ كبير لأنّ الآيتين تتحدّثان عن حقيقة واحدة ، لأنّ حقّ التقوى ليس سوى أن يكون الإنسان متّقياً قدر ما يستطيع .

الآية الخامسة التي جاءت على لسان الكثير من الأنبياء ( (عليهم السلام) ) تأمر أوّلا



بالتقوى ثمّ إطاعة الأنبياء وتقول : ( فاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ) وقد نقلت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب والسيّد المسيح ( (عليهم السلام) ) في القرآن الكريم ( مرّة واحدة على لسان نوح ( الشعراء : ١٠٨ ) ومرّتين على لسان هود ( الشعراء : ١٢٦ و١٣١ ) ومرّتين على لسان صالح ( الشعراء : ١٤٤ ، ١٥٥ ) ومرّة على لسان لوط ( الشعراء : ١٦٣ ) وشعيب ( الشعراء : ١٧٩ ) ومرّتين على لسان المسيح ( آل عمران : ٥٠ والزخرف : ٦٣ ) ومن المسلّم به هنا هو أنّ الإطاعة ترتبط بالدرجة الأُولى بمبدأ التوحيد وترك الوثنية ثمّ سائر التعاليم الدينية ، ومثل هذه الإطاعة هي طاعة لأمر الله لأنّهم لم يتحدّثوا إلاّ عنه تعالى .

* * *

في الآية السادسة حديث عن متابعة الأحكام الإلهية ، وهي تعبير آخر عن الإطاعة إضافةً إلى تصريح الآية بعدم اتّباع غيره ، وهذا النفي والإثبات يوضّحان ( توحيد الطاعة ) وتقول : ( اتَّبعوا مَا أُنزِلَ إليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تتّبِعوا مِنْ دُونِهِ أولياء ) هذه الآية تبطل إطاعة الغير أيّاً كان وفي أي حال إلاّ أن ترجع إطاعته إلى طاعة أمر الله عزّوجلّ .

وهذه الآية وأمثالها تشهد جيّداً أنّ أحكام البشر وآراءهم مهما كانت فهي ليست أهلا للإتّباع ( لإمتلائها بالأخطاء إضافةً إلى عدم وجود دليل على وجوب إطاعة الآخرين ) .

* * *

الآية السابعة وبعد التصريح بعدم إمتلاك أي رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أي خيار أمام أمر الله ورسوله تقول : (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبيناً).

[٣٥٥]

إنّ الآية تُبيّن في أوّلها وآخرها توحيد الطاعة وتعتبره علامة الإيمان ومعارضته تكون ( ضلالا مبيناً ) وأي ضلال هو أوضح من أن يترك الإنسان أمر الله العالم الحكيم والرحمن والرحيم ويتوجّه لإطاعة الآخرين ؟!

* * *

الآية الثامنة تخاطب المؤمنين ، وقد ذُكرت شؤون مختلفة في نزولها وكلّها تشهد أنّ بعض الأشخاص يتقدّمون أحياناً على الله ورسوله بالإقتراحات ويقولون : لو أصدر الأمر الفلاني لكان أفضل ، فنزلت الآية تنذرهم بقولها : ( يأَيُّها الَّذين آمَنوا لا تُقدّموا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِه واتّقوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَليمٌ ) .

ومن المسلّم به أنّ الله لا مكان له حتّى يقول : لا تتقدّموا عليه ، بل أنّ ذلك كناية عن عدم التقدّم عليه في أي عمل أو كلام(١).

على أي حال فإنّ الآية لا تعتبر إطاعة الأمر الإلهي واجباً فحسب ، بل تقول : كونوا بإنتظار أوامره في كلّ عمل ، وبعد إصدار الأمر لا ينبغي عليكم التقدّم عليه أو التريَّث في إمتثاله فالمسرعون والمبطئون مخطئون .

وقد جاء في تفسير المراغي القول عن بعض علماء الأدب العربي بأنّ مفهوم التعبير ( لا تقدّم بين يدي الإمام ) هو : لا تعجّل عليه في أداء الأعمال .

* * *

---

١ ــ المراد من ( تقدّموا ) هنا هل هو بمعنى لا تتقدّموا أم لا ؟ وقع كلام بين المفسّرين ( الأوّل من باب التفعيل والثاني من باب التفعّل ) ولكن جملة ( بين يدي الله ورسوله ) في الحالة الأُولى يكون معناها عدم التقدّم على الله ورسوله ، وفي الحالة الثانية يكون مفهومها هو لا تقدّموا شيئاً على الله ورسوله وأوامرهما والمعنى الأوّل هو الأنسب .

[٣٥٦]

الآية التاسعة تذمّ اليهود والنصارى لكونهم جعلوا من علمائهم ورهبانهم آلهة أمام الله الواحد ( اتَّخذوا أحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُم أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ )(١).

وقد جعلوا من المسيح بن مريم معبوداً لهم أيضاً ( والمَسيحَ بنَ مَريْمَ )في حين : ( وما اُمروا إلاّ لِيَعْبُدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سُبْحانَه عَمّا يُشْرِكُونَ ) . ومن المسلّم به أنّ اليهود والنصارى لم يعتقدوا بألوهية علمائهم ورهبانهم ولم يعبدوهم كما نعبد الله تعالى أبداً ، فلماذا إذن إستعمل القرآن الكريم كلمة ( ربّ ) و ( إله ) فيهم ؟!

وردت الإجابة عن ذلك في رواية عن الإمام الباقر ( (عليه السلام) ) والإمام الصادق ( (عليه السلام) ) « أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالا فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون »(٢).

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعدّدة اُخرى في المصادر الشيعية والسنّية ومنها ما نقرأه في كتب عديدة : « عن عَدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله ( (صلى الله عليه وآله وسلم) ) وفي عنقي صليب من ذهب فقال : ياعدي : اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ آية : اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . فقلت له : يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : أليس يحرّمون ما أحلّ الله تعالى فيحرّمونه ويحلّون ما حرّم الله

---

١ ــ ( احبار ) جمع ( حبر ) أو (حِبر ) ويعني في الأصل الأثر الجميل ثمّ اُطلق على العالم والمفكّر بسبب الآثار الجميلة التي تبقى منهم بين الناس وهذه الكلمة تستعمل في الغالب في علماء اليهود وقد تطلق أحياناً على غيرهم كما لقّبوا ابن عبّاس بـــ ( حبر الاُمّة ) .

( رهبان ) جمع راهب وقال البعض إنّ هذه الكلمة لها معنى المفرد والجمع وتعني في الأصل الشخص الذي يتّصف بخوف الله ويظهر ذلك على أعماله ، وتطلق عادةً على مجموعة ( التاركين للدنيا ) من النصارى وهي مجموعة هجرت الحياة والإكتساب والعمل بل والزواج أيضاً وإشتغلوا بالعبادة في الدير ( مفردات الراغب ، العين ، نهاية ابن الأثير ، تفسير الميزان ، الفخر الرازي ، روح المعانيى وروح البيان والمراغي ) .

٢ ــ مجمع البيان : ج٥ ص٢٣ ، وتفسير البرهان : ج٢ ص١٢٠ و١٢١ .



فيستحلّونه ؟ فقلت : بلى ، قال : ذلك عبادتهم »(١).

وبهذا يتّضح أنّ اتّباع وإطاعة أشخاص يأمرون على خلاف حكم الله يكون لوناً من الشرك .

* * *

الآية العاشرة والأخيرة تخاطب جميع البشر : ( أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يابَني آدَمَ أَنْ لا تَعبُدوا الشَيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدوٌ مُبينٌ ) ( وَأن اعبدوني هذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ) .

ومن المسلّم به أنّه لا أحد يعبد الشيطان بمعنى الركوع والسجود والصلاة والصيام ، فما هي العبادة التي نُهي عنها ؟ هل هو شيء غير الإطاعة ؟ أجل ، إنّهم حينما يستسلمون لما يريده الشيطان ويقدّمون أمره على أمر الله فانّهم مشركون وعبّاد الشيطان والشرك هنا بمعنى إطاعة الأمر لا الركوع والسجود .

أين أخذ الله تعالى هذا العهد من بني آدم ؟ فسّره البعض بأنّه ( عالم الذرّ ) وفسّره بعض أنّه وصايا الأنبياء لأقوامهم ، ولكن الظاهر أنّ الآية تشير إلى الوصايا التي تشبه العهد الذي كان لله تعالى عند هبوط آدم مع أولاده إلى الأرض ، وقد قامت الآية ( ٢٧ ) من سورة الأعراف بتبيان ذلك : ( يابَني آدَمَ لا يفتِنّنكُم الشَيطانُ كَما أخرَجَ أبَويكُم مِنَ الجَنّة ) .

وهكذا في الآية ( ٢٢ ) من هذه السورة ، وفيها تخاطب آدم وزوجته بقولها ( انّ الشَيطانَ لكما عَدوٌّ مُبين ) .

والآية ( ١١٧ ) من سورة طه تخاطب آدم ( (عليه السلام) ) ( فَقُلنا ياآدَم إنّ هذا عَدوٌّ لَكَ ولزَوجِكَ ) .

ومن المسلّم به أنّ مثل هذا العدو يكون عدوّاً لأبنائه أيضاً ، لأنّ مخالفته

---

١ ــ تفسير روح المعاني : ٧٥/١٠ وورد هذا المعنى في تفاسير متعدّدة أُخرى منها تفسير الدرّ المنثور بفارق طفيف .



لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله ، ولذا قسم من البداية ( قال أرأيتك هذا الذي كرّمتَ عَليّ لَئن أخَّرتَنِ اِلى يَومِ القيامةِ لأحتَنكَنَّ ذُريتَه إلاّ قَليلا )(١).

وقوله تعالى ( قال فَبِعزّتكَ لأغوِيَنّهُم أجمَعين إلاّ عِبادَكَ مِنهُم المُخلصِين)(٢).

* * *

**إيضاحات**

**١ ــ الله تعالى هو المطاع المطلق**

**من مجموع الآيات السابقة يستفاد جيّداً أنّ الله تعالى وحده هو ( واجب الإطاعة ) في النظرية الإسلامية وفي المنظار القرآني وهكذا الذين تُعتبر إطاعتهم إطاعة الله تعالى ، وكلّ طاعة وتسليم أمام الأحكام والأوامر المخالفة لأمر الله يُعدّ لوناً من الشرك والوثنية في المنظار القرآني .**

**وعليه فانّ لزوم طاعة النبي والأئمّه ( (عليهم السلام) ) والوالدين هو بأمر الله كما يقول القرآن ( وما أرسَلنا مِن رَسُول إلاّ ليُطاعَ بِاذنِ الله )(٣).**

**كما يمكن إثبات هذه المسألة بالدليل العقلي ، لأنّ المطاع المطلق هو من يكون عالماً بكلّ شيء وحكيماً وخبيراً ومنزّهاً عن كلّ خطأ ورحيماً وقد إجتمعت هذه الصفات في ذات الله المقدّسة فقط .**

**وإرادة الحكّام والأصدقاء والأبناء والأرحام والاُمنيات القلبية إن لم تتناسق مع إرادة الله فانّ إطاعتها تكون شركاً .**

**يقول الإنسان الموحِّد : لو إنحرفت عن طاعة الله قيد أنملة فانّي قد أشركت لأنّي جعلت له ندّاً في طاعته .**

---

١ ــ سورة الإسراء : الآية ٦٢ .
٢ ــ سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .
٣ ــ سورة النساء : الآية ٦٤ .



**٢ ــ توحيد الطاعة في الروايات الإسلامية**

**إنَّ الأحاديث المختلفة التي وردت في مصادرنا الإسلامية أكّدت على هذه المسألة أيضاً وهي أنّ أحد شعب الشرك هو الشرك في الطاعة منها الروايات التالية :**

أ ــ ورد في الحديث النبوي: «لا طاعة في معصية الله إنّما الطاعة في المعروف»(١).

ب ــ ونقرأ في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين ( (عليه السلام) ) : « لا طاعة لمخلوق بمعصية الخالق »(٢).

جـ ــ سحديث عن الإمام الصادق ((عليه السلام)):«من أطاع رجلا في مصعية فقد عبده»(٣).

د ــ في حديث عن الإمام الباقر ( (عليه السلام) ) وهكذا عن الإمام الجواد ( (عليه السلام) ) : « من أصغى إلى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان »(٤).

هـ ــ ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن أمير المؤمنين ( (عليه السلام) : « لا دين لمن دان بطاعة المخلوق في معصية الخالق »(٥).

تتّضح من هذه الروايات الصريحة والقاطعة النظرية الإسلامية في مسألة الشرك وتمييز الموازين الإسلامية في توحيد الطاعة .

إلهنا:إنّ سلوك طريق التوحيدمعقّدومشكل،فاهدناأنت في هذاالطريق الملتوي.

الهنا : إنّ جهات مختلفة تدعونا لطاعتها من كلّ جهة ، فالهوى من الداخل ، وشياطين الجنّ والإنس من الخارج ، ونحنُ نرغب في طاعة أمرك وحدك ، فكن لنا عوناً وناصراً في هذا الطريق .

---

١ ــ صحيح مسلم : ١٤٦٩/٣ .

٢ ــ الكلمات القصار : الكلمة ١٦٥ .

٣ ــ وسائل الشيعة : ٩١/١٨ الحديث ٨ .

٤ ــ وسائل الشيعة : ٩١/١٨ الحديث٩ ، وتحف العقول : ص٣٣٩ ( باختلاف يسير ) .

٥ ــ بحار الأنوار : ج٧٣ ، ص٣٩٣ ، الحديث ٦ ( وهذا المضمون ورد أيضاً عن الإمام الباقر (عليه السلام) في الكافي : ٢٧٣/٢ الحديث٤ ) .